

الترجمة المحشرة

الدكتور أحمد محمد الحوفي
أستاذ بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة
وتضمن جميع اللغة العربية



الهيئة المصرية العامة للكتاب

البرمجشري

الدكتور أحمد محمد الحوفي
أستاذ بكلية دارالعلوم - جامعة القاهرة
وعضو مجمع اللغة العربية



الهيئة المصرية العامة للكتاب

شبكة كتب الشيعة



shiabooks.net

رابط يديل < mktba.net

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله الذي هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ... وبعد .

فإن الأمة العربية ما كادت تفيق من خوارها حتى تلفت إلى ماضيها للشرق ، قبضت به أعظم ماضٍ تفاخر بمثله أمة ، ووجدت فيه أنفس تراث يخاليل يشبهه خلف ، فأيقنت أنها لا تستطيع أن تبدل حاضرها ، ولا أن تحقق آمالها في مستقبلها ، إلا بالتأسي بماضيها العظيم ، فجعلت نستحي هذا الماضي ، وتبتعث مفاخره ، وتجلّ عظمته ، وتدرس أبطالها وعظماءها وعلماءها وأدباءها ومفكرينها دراسة واعية موحية .

ولأمر ما نعدُّ من العرب أعلاماً من أعصار شتى ، ومواطن متباعدة ، وثقافات متعددة ، لأنهم جميعاً عرب ، امتزجوا بالعروبة ديناً ولغة وثقافة وإنتاجاً وتاريخاً وحضارة ، حتى إن كثيراً منهم يمتنون إلى أصول غير عربية ، ولكنهم نسوها أو ذكروها على أنها أطيايف من ماضٍ سحيق ، لطول العهد بينها وبينهم ، ولسلطان العروبة الغلاب على بيتائهم ، إذ كانت العربية ينبوع الشريعة ، ولغة الثقافة أحقاباً متوالية ، لا تنازعها لغة من لغات الأمم التي نشر العرب عليها ظلالهم .

بهذا التصور كتبت عن الطبري من قبل ، وبالتصور نفسه أكتب عن الزنجشري اليوم .

ومن حق الزنجشري أن يخص بدراسة مفصلة متكاملة تكشف عن

عصره وحياته وأساتذته وتلاميذه ومؤلفاته ، وتفوقه وابتداعه ، فقد كان في الصدارة بين علماء عصره ، وكان إماماً في أفانين من المعرفة ، وخلف في كل منها آثاراً بقي منها كثير ، واحتجب منها كثير ، ولعله يسفر بعد طوال احتجاب ، وإن مابقي من آثاره لكفيل بتقديره ، والتنويه به ، والاحتفاء بذكراه .

وقد رجعت إلى ما كتبه القدماء عنه ، وقرأت مؤلفاته مطبوعة ومخطوطة ، لأستنبط منها أحداث حياته ، ومعالم شخصيته ، وخصائصه الفكرية والفنية ، ومثلت بنماذج من كتبه لتكون كالإشارة التي تدل على معالم الطريق الطويل .

ولست أنسى أن أنوه بالدراسة التي قام بها الدكتور مصطفى الجويني في كتابه (منهج الزمخشري في تفسير القرآن) وبالفصل الذي كتبه الدكتور شوقي ضيف عن الزمخشري في كتابه (البلاغة تاريخ وتطور) .

وإني لأرجو أن يمنح الله دراستي هذه من السداد والتوفيق ما يجعلها جديرة بما قصد منها وأريدت له ؟

أحمد محمد الحوفي

تمهيد بيئة (١) خوارزم

هنالك على حفافتي نهر جيحون في آسيا الوسطى كانت ولايات خمس هي الصفد وعاصمتها بخارى وسمرقند ، وفي غربي الصفد خوارزم التي تسمى اليوم خيوة أو كيوة ، وصفانيان ، وفرغانة ، والشاش المسماة الآن طشقند .

وقد فتح العرب الإقليم سنة ٩٣ هـ (٧١٢ م) بقيادة قتيبة بن مسلم الباهلي^(١) . ولم يلبث هذا الإقليم بعد الفتح أن صار مركزاً من مراكز الثقافة العربية والإسلامية ، ومشرقاً لكثير من كبار العلماء كالزنجشري والرازي والسكاكي والمطرزي .

وحسبنا من وصف خوارزم وما جاورها أن نذكر ما قاله ثلاثة من الرحالة شاهدوها بأعينهم وأقاموا بها زمناً .

فالمقدسي رحل إلى إقليم المشرق - وكانت تطلق هذه التسمية على إقليم خراسان وما وراء النهر - في عهد الدولة السامانية التي حكمت من ٢٦١ إلى ٣٨٩ هـ (٨٧٤ - ٩٩٨ م) فوصفه بقوله : « إنه أجل الأقاليم ، وأكثرها أجلة وعلماء ، وهو معدن الخير ، ومستقر العلم ، وركن الإسلام الحكم ، وحصنه الأعظم ، ملكه خير الملوك ، وجنده خير الجنود ، فيه يبلغ الفقهاء درجة الملوك . وقد قال محمد بن عبد الله لدعائه : « عليكم بخراسان ، فإن هناك العدد الكثير والجلد الظاهر ، وهناك صدور سليمة ، وقلوب فارغة لم تنقسمها الأهواء ،

ولم تتوزعها النحل ، ولم يقدح فيها فساد ، وهم جند لهم أبدان وأجسام ،
ومناكب وكواهل ، وهامات ولحى وشوارب ، وأصوات هائلة ولغات نغمة...
وأهل خراسان أشد الناس تفقها ، وبالحق تمسكا ، وهم بالخير والشر أعلم ، وإلى
إقليم العرب ورسومهم أقرب ، وإقليمهم أكثر أجلة وعقلاء ، مع العلم الكثير ،
والحفظ المجيب ، والمال المديد ، والرأى الرشيد ، به مرؤ التي قامت بها الدنيا ،
وبلخ وإليها المنتهى ، ونيسابور فلا تنسى .

وهو أكثر الأقاليم علما وفقها ، وبه يهود كثيرة ، ونصارى قليلة ، وأولاد
على رضى الله عنه فيه على غاية الرفعة ، ولا ترى به هاشميا إلا غريبا ، ومذاهبهم
مستقيمة ، غير أن الخوارج بسجستان ونواحي هراة كثيرة ، وللمعتزلة بنيسابور
ظهور بلا غلبة ، وللشيعة والكرامية بها جلبة ، والغلبة فى الإقليم لأصحاب
أبى حنيفة إلا فى كورة الشاش وطوس ونسا وأبيورد فإنهم شفعوية (شافعية)
ولهم جلبة بهراة وسجستان وسرخس .

ورسومهم تخالف رسوم أقاليم العرب فى أكثر الأشياء ، فلمؤذنين سرير
قدام المنبر يؤذنون عليه بتطريب وألحان ، ويدكرون بلا دفاتر... من غير كتب
يقرءون فيها - وبنيسابور رسوم حسنة ، منها مجالس المظلم فى كل يوم أحد
وأربعاء بمحضرة صاحب الجيش أو وزيره... وألسنتهم مختلفة ، أما لسان نيسابور
فقصيح مفهوم ، غير أنهم يكسرون أوائل الكلم ، وفيه رخاوة ، وأهل طوس
ونسأ أحسن لسانا... وبهذا الإقليم عصبيات بين الشيعة والكرامية وبين
الشافعية والخنفية ، وقد يهراق فى هذه العصبيات الدماء ، ويدخل بينهم السلطان.
ولهم مجالس عشيات تجمع شهر رمضان للمناظرة بين يدى السلطان ، فيبدأ هو فيسأل
مسألة ثم يتكلمون عنها... إلى أن يقول : وأقل إمام فى الفقه والأدب والقرآن
لقيقته له تلميذ خوارزمى قد تقدم ونفذ فى فنه واستقام ^(١) .

والذى يسترعى النظر من هذا الوصف :

١ — كثرة العلماء ، وتقدير الحكام لهم .

٢ — الكلف بالحفظ .

٣ — إجلال نسل علي بن أبي طالب ، وكثرة الشيعة .

٤ — كثرة المعتزلة بنيسابور خاصة .

٥ — العصبية بين الشيعة والكروامية ، وبين الشافعية والحنفية .

٦ — الكلف بالمناظرات :

وجاء في وصف ياقوت لإقليم خوارزم أنه موفور الخيرات، كثير الثمرات، جميل المناظر، وقال إن أهله كرام الأخلاق، وإن لم يكونوا من ذوى الظرف والكياسة. وزار ياقوت عاصمة خوارزم (الرجانية) سنة ٦١٦ هـ (١٢١٩ م) فوصفها بأنه لم يرمدينة أعظم منها ولا أكثر أموالا ولا أحسن أحوالاً^(١). ويقول في موضع آخر إنه زار إقليم خوارزم سنة ٦١٦ هـ فلم ير ولاية أعمر منه، فإنه — على رداءة أرضه وكثرة سبخها ونزوزها — متصل العارة، متقارب القرى، كثير البيوت المفردة والقصور في صحاريها، ولما يقع النظر في رساتيقه — ضياعه ومزارعه — على موضع لا عمران منه، هذا إلى كثرة الأشجار والخيرات. وأكثر ضياع خوارزم مدن ذات أسواق وخيرات ودكاكين، ويندر أن تكون قرية بغير سوق، والأمن هناك شامل والطمأنينة تامة^(٢).

ووصفها ابن بطوطة بعد عصر الزمخشري — في رحلته التى بدأها من المغرب إلى المشرق سنة ٥٧٢٥ (١٣٢٤ م) واستغرقت ٢٧ عاما — بقوله « لم أر في بلاد

(١) معجم البلدان ٧٩/٢ .

(٢) معجم البلدان ٤٧٤/٣ .

الدنيا أحسن أخلاقاً من أهل خوارزم ، ولا أكرم نفوساً ، ولا أحب في الغرباء .
ولهم عادة جميلة في الصلاة لم أرها لغيرهم ، وهي أن المؤذنين في مساجدها يطوف
كل واحد منهم على دور جيران مسجده معلماً لهم بحضور الصلاة ، فمن لم يحضر
الصلاة مع الجماعة ضربه الإمام بمحضر الجماعة ، وفي كل مسجد درة معلقة برسم
ذلك ، ويفرم خمسة دنانير تنفق في مصالح المسجد ، أو لإطعام الفقراء والمساكين ،
ويذكرون أن هذه العادة عندهم مستمرة من قديم الزمان ^(١) .

ومن البديهي أن وصف ابن بطوطة - وإن كان بعد عصر الزمخشري -
ينبئ عن أخلاق أصيلة قديمة العهد ، لأن السجاية الحميدة لا تكتسب سريعا بعد
تجرد وخلاء ، ولأنه يذكر أن عادتهم في ضرب التخلف عن صلاة الجماعة قديمة
منذ زمان بعيد .

وفي إقليم خوارزم عدة مدن ، منها الجرجانية وزمخشري وخوارزم ، وزمخشري
إحدى قرى خوارزم القريبة منها ، ويظهر أن كلامها امتدت فتدخلنا ،
لأن القفطي يقول : سمعت بعض التجار يقول إنها قد دخلت في جملة المدينة ،
وإن العبارة لما كثرت وصلت إليها وشملتها ، فصارت من جملة محالها ^(٢) .
وإلى زمخشري هذه نسب جابر الله محمود بن عمر ، فقيل الزمخشري ، وهذه
النسبة حين تذكر لا تنصرف إلا إليه .

والبرد شديد جداً هناك ، حتى إن الثلج كثيراً ما يؤثر في الأطراف
فتسقط ، ويذكر ابن خلكان أنه شاهد خلقاً كثيراً ممن سقطت أطرافهم في
خوارزم بسبب البرد ، ويعلق على هذا بأنه من الخطأ أن يستبعد من لا يعرفه ^(٣) .
ويذكر بقوت أنه رأى نهر جیحون - وعرضه ميل - وهو جامد ، والقوافل
والعجول الموقرة ذاهبة وآية على جليده ^(٤) .

(١) مهذب رحلة ابن بطوطة ٢٩٨/١ .

(٢) إنباء الرواة ٣٦٥/٣ .

(٣) وفيات الأعيان ٢٥٥/٤ .

(٤) معجم البلدان ٤٧٤/٤ .

وكثيراً ما ردد ابن بطوطة آلامه من برد الاقليم ، حتى إنه كان يتوضأ بالماء الحار بمقربة من النار ، فما تقطر من الماء قطرة إلا جددت لحينها ، وإذا غسل وجهه بالماء ووصل الماء إلى لحيته جدد ، فيسقط منها شبه الثلج ، والماء الذي ينزل من الأنف يحمد على الشارب^(١) .

ويقول إن نهر جيحون يجمد في أوان البرد ، ويسلك الناس عليه ، وتبقى مدة جهوده خمسة أشهر^(٢) . ويقول إن السلطان علاء الدين طرمشيرين — سلطان ماوراء النهر — أعطاني سبع مئة^(٣) دينار دراهم وفروة سمور تساوي مئة دينار طلبتها منه لأجل البرد ، وأعطاني فرسين وجلين ، ولما أردت وداعه أذكرته في طريقه إلى الصيد ، وكان اليوم شديد البرد جدا ، فوالله ما قدرت على أن أنطق بكلمة ، لشدة البرد ، ففهم ذلك وضحك ، وأعطاني يده وانصرفت^(٤) .

(٢) الحياه السياسية

خضعت تلك البلاد للحكم العربي مدة ، ثم آل الأمر فيها إلى ثلاث دول متتابعة . أولاها الدولة السامانية من سنة ٢٦١ إلى ٨٣٨ (٨٧٤ — ٩٩٩ م) وقد نشأ السامانيون في بلخ واتخذوا بخارى عاصمة لهم ، وكانوا في عصرهم الذهبي أصحاب النفوذ والسلطان بالشرق كله ، ثم تقلص ظلمهم فشمل خراسان وماوراء النهر وحدهما . وإذا كانوا قد جدوا في تشجيع الأدب الإيراني ، وكانت الفارسية لغتهم الرسمية في أكثر سنوات ملكهم ، فإنهم جمعوا في قصورهم كتاب العربية كما جمعوا كتاب الفارسية ، واجتذبت عاصمتهم بخارى كثيرا من العلماء

(١) مهذب رحلة ابن بطوطة ٢٩٤/١ .

(٢) مهذب الرحلة ٢٩٨/١ .

(٣) هكذا أثرت كلمة مئة ومركباتها .

(٤) مهذب الرحلة ٣٠٩/١ .

والشعراء ، وكانوا حماة لأهل السنة — إلا في نحو أربعين سنة من القرن العاشر الميلادي — ففي عهدهم ألف كتاب في العقائد باللغة العربية لوقاية الشعب من الرافضة ، ثم ترجم إلى الفارسية ، وترجم تفسير الطبري إلى الفارسية ، كما ألف بها تفسير آخر ، وأفقي الناس بجواز الصلاة باللغة الفارسية كاللغة العربية^(١) .
ثم قضى محمود بن سبكتكين الفزنوي على دولتهم سنة ٣٨٩هـ^(٢) .

وثانيها الدولة السلجوقية المظني^(٣) من سنة ٤٢٩ إلى ٥٥٥ (١٠٣٧ — ١١٥٧م) التي امتلكت خوارزم سنة ٤٣٤هـ ثم خراسان وبلاد الري وأصبهان وأذربيجان ، وكان نفوذ البويهيين قد انحسر عن بغداد ، فتقدم طغرل بك إليها ودخلها بغير حرب سنة ٤٤٧هـ ، وقبض على آخر سلاطين بني بويه ، ومن هذا التاريخ قامت الدولة بالعراق وماوراءه .

وهي تنقسم إلى خمسة بيوت ، يهمن منها البيت الأول ، وملوكه هم السلاجقة العظام الذين ملكوا خراسان والري والجليل والعراق والجزيرة وفارس والأهواز ، وقد قامت من سنة ٤٢٩ إلى ٥٥٢ (١٠٣٧ — ١١٢٨م) وعاصر الزمخشري من ملوكها :

- ١ — عضد الدين أبو شجاع ألب أرسلان ٤٥٥ — ٤٦٥هـ
- ٢ — جلال الدين أبو الفتح ملكشاه ٤٦٥ — ٤٨٥هـ
- ٣ — ناصر الدين محمود ٤٨٥ — ٤٨٧هـ
- ٤ — ركن الدين أبو المظفر بركياروق ٤٨٧ — ٤٩٨هـ
- ٥ — ركن الدين ملكشاه الثاني ٤٩٨ — ٤٩٨هـ

(١) تاريخ الحضارة الإسلامية ٦٨ بارتولد .

(٢) وفيات الأعيان ٢٤٥/٤ .

(٣) الدولة العباسية ٤١٢ للخصري . وكانت للسلاجقة دول غيرها أقل منها شأنًا .

٥١١ — ٤٩٨

٦ — غياث الدين أبو شجاع محمد

٥١١ — ٥٢٢

٧ — معز الدين أبو الحارث سنجر

ثم انقضت دولتهم على أيدي شاهات خوارزم .

ويرتبط تاريخ هذه الدولة باسم وزيرها العظيم نظام الملك الذي استورزه ألب أرسلان ، واستعان به في إدارة ملكه ، ثم استورزه ابنه جلال الدين أبو الفتح ملكشاه ، فقام بالتدبير والإصلاح خير قيام ، وبفضله اتسع نفوذ جلال الدين ، فخطب له من حدود الصين شرقا إلى آخر الشام غربا ، وازدهرت الآداب والفنون ، وازدانت المدن بالمدارس والمستشفيات . وكان جلال الدين سلطانا عادلا شجاعا متدينا ، وكان وزيره عالما جوادا مشغوقا بالعلم معظما للعلماء ، وهو الذي أمر بالآل يلعبن الأشعرية والرافضة على المنابر ، إذ كان الوزير عميد الملك الكندري قد زين للسلطان طغربك لعن الرافضة ، فأمر بذلك ، فأضاف إليهم الأشعرية ، ففارق كثير من العلماء بلادهم ، مثل إمام الحرمين وأبي القاسم القشيري ، ولم يكتف نظام الملك بإلغاء ذلك ، بل أعاد العلماء إلى أوطانهم ^(١) .

ثم قتل الوزير سنة ٤٨٥ هـ ، ومات السلطان بعده بنحو شهر ، فأفلت شمس آل سلجوق ، ونشبت الفتن بين كبارهم ، وحكموا السيوف فيما بينهم ، فكانت النتيجة سقوط دولتهم ، وقيام الدولة الخوارزمية .

أما الدولة الثالثة التي حكمت خوارزم فهي الدولة الخوارزمية التي نشأت إمارة (أتابكية) في خوارزم ، وجمعت تتقوى وتتوسع ، على حين أن الدولة السلجوقية تضعف وتضيق ، فلما سقط السلاجقة خلفهم الخوارزميون ، وضمو تحت لوائهم الأقاليم التي كان يحكمها السلاجقة .

(١) الكامل لابن الأثير ١٠/٢٦ ، ٧١ .

وهذه الدولة تنتسب إلى نوشتكين أحد الأتراك في بلاط ملكشاه السلجوقي .

أما مؤسسها الحقيقي فهو ابنه محمد ^(١) الذي عينه أحد قواد السلطان بركياروق السلجوقي (٤٨٧ — ٤٩٨ هـ) حاكماً على إقليم خوارزم ، ولقبه خوارزم شاه . وقد جعلت هذه الدولة الناشئة تمتد وتقوى منذ أئسز بن محمد بن نوشتكين ، ثم تصارع سنجر السلجوقي وأئسز صراعاً استمر حتى توفي أئسز سنة ٥٥١ هـ (١١٥٦ م) وتوفي سنجر بعده بعام ، وكانت وفاة سنجر نهاية للسلاجقة في فارس وخراسان ، فلم يجد الخوارزميون بعده من يعوق طموحهم أو يحتجز اتساعهم ، فاستطاع إيل أرسلان بن أئسز أن يبسط سلطانه على غربي خراسان . ثم امتدت الدولة غرباً في عهد تكش خوارزم شاه ، وصار لها نفوذ على أمراء العراق ، واستعان الخليفة العباسي الناصر لدين الله بتكش على طغربك آخر السلاجقة في بغداد ، فحرب تكش بهذه الفرصة المواتية ، والتقى جيشه بالجيش السلجوقي عند الري سنة ٥٩٠ هـ (١١٩٣ م) وانجلىت المعركة عن انتصار تكش ، وعن قتل طغربك .

وحينئذ بسطت الدولة الخوارزمية سلطتها على الأقاليم العراقية التي كانت للسلاجقة ، فاحتل تكش همدان عاصمة سلاجقة العراق سنة ٥٩٠ هـ واحتل أصفهان والري . ثم حارب دولة (الخطا) شرقاً ، واستولى على إحدى مدنها المهمة وهي بخارى سنة ٥٩٤ هـ (١١٩٧ م) . وفي عهد ابنه علاء الدين محمد تم اقتطاع مدينتي بلخ وهراة من الدولة الفورية سنة ٦٠٢ هـ (١٢٠٥ م) كما نجح في هزيمة دولة (الخطا) سنة ٦٠٦ هـ (١٢٠٩ م) فاستولى على بلاد ما وراء النهر ، ثم مد نفوذه إلى إقليم كرمان وإقليم مكران وإلى الأقاليم التي غربي نهر السند ، وبهذا طوق غزنة عاصمة الدولة الفورية ، واحتلها سنة ٦١٢ هـ (١٢١٥ م) .

(١) الدولة الخوارزمية والنول ١٩ وسلاجقة إيران والعراق ١١٨ .

كان الخوارزميون يتطلعون إلى تكوين دولة إسلامية عظيمة ترث الدويلات الإسلامية والإمارات المتناثرة المفككة ، وقد تم لهم النصر على السلاجقة سنة ٥٩٠ هـ فسيطروا على العراق العجمي ، وحكموه من قبل الخليفة العباسي ، وطلبوا الخليفة بأن يحل اسمهم في خطبة الجمعة محل أسلافهم السلاجقة ، وأن ينقش اسمهم إلى جوار اسم الخليفة على النقود ، ثم طلب تكش من الخليفة الناصر أن يعيد دار السلطنة في بغداد إلى ما كانت عليه أيام السلاجقة فلم يستجب الناصر لهذه المطالب .

فلما تولى علاء الدين محمد العرش بعد أبيه تكش أعد العدة لغزو بغداد^(١) سنة ٦١٤ (١٢١٧) فتأهب الناصر لصدّه ، وساعدته عوامل عدة على النجاة من هذا الغزو ، وفي الوقت نفسه كان سيل المغول يكتسح ما أمامه . وإذاً فقد خلف الخوارزميون السلاجقة على فارس وخراسان والعراق ، وخلفوا الغوريين ، واستولوا على بلاد ما وراء النهر .

أما عاصمتهم فكانت تارة مرو — عاصمة خراسان — وتارة سمرقند — عاصمة بلاد ما وراء النهر — وحينئذ أصفهان كبرى مدن العراق العجمي . وامتد حكم هذه الدولة من سنة ٤٩١ إلى ٦٢٨ هـ (١٠٩٧ — ١٢٣٠ م) ، وقد فاجأها المغول في عهد ملكها علاء محمد شاه فقر منهم ومات سنة ٦١٧ هـ وفي السنة نفسها هجموا على خوارزم ، فتولى الدفاع بعده ابنه جلال الدين منكبرتي ، وقاومهم في بسالة وبطولة إلى أن لقيهم في قلة من رجاله ، فلما أيقن أنه لا بد من أن يقتل أو يؤسر ألقى بنفسه من مرتفع على شاطئ نهر السند ، وهو على صهوة جواده لينجو فيلقاهم من جديد ، فضرب بهذا الصنيع مثلاً رائعاً للبطولة والفداء ، وما زال يقاومهم بعد ذلك حتى انتهت دولته سنة ٦٢٨ هـ^(٢) .

(١) لهذا الغزو أسباب منها أن علاء الدين اعتنق المذهب الشيعي واجتهد في إسقاط الخلافة العباسية من بغداد وإقامة خلافة علوية مكانها .

(٢) سيرة جلال الدين منكبرتي ١٦٠ .

كان الوزراء في الدولة الخوارزمية يتلون من السلاطين أعظم التقدير ، فيجلسونهم عن أيمنهم في المحافل العامة ، وكان الوزير الذي يلعب بنظام الملك لا يقبل أن يدخل عليه وهو في دست الوزارة مهما تكن مكانته ، لإجلال المنصب لأنه قائم مقام السلطان .^(١)

وكثيرا ما عهدوا بحكم الأقاليم أو المدن إلى حكام أطلقوا على كل منهم لقب وزير^(٢) ، فلما قوى نفوذ الأتراك صار الوزراء أكثر حرية ، فاستأثروا بثروات الأقاليم ، وتمرّدوا على السلاطين .

• أما سلاطين الدولة فهم ثمانية^(٣) ، وأما السلاطين الذين عاصرهم الزمخشري فهم :

١ — نوشتكين من ٤٧٠ إلى ٤٩٠ هـ (١٠٧٧ - ١٠٩٦ م)

٢ — قطب الدين محمد » ٤٩٠ - ٥٢١ هـ (١٠٩٦ - ١١٢٧ م)

٣ — أنسر » ٥٢١ - ٥٥١ هـ (١١٢٧ - ١١٥٦ م)

ومن هذا يتبين أن الزمخشري عاصر تأسيس الدولة ، وأدرك ثلاث عشرة سنة من عهد أنسر ، لأن الزمخشري عاش فيما بين سنة ٤٦٧ و ٥٣٨ هـ ، فلم يدرك سقوط آل سلجوق وقيام الخوارزميين مقامهم ، إذ كانت نهاية السلاجقة سنة ٥٥٢ هـ .

(١) سيرة جلال الدين منكبرتي ١٨٦ .

(٢) المرجع السابق ٢٤٠ ، ٢٤٧ .

(٣) الدولة الباسية ٤٥١ الحضري ، وسيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ١ .

والدولة الخوارزمية والمغول ٢٧٣ .

(٣) حياة الثقافة

ما كادت أقاليم خراسان وخوارزم وما وراء النهر وغيرها تخضع للحكم العربي حتى جعلت تستعرب، وتكاثرت فيها بذور اللغة العربية والأدب والعلوم الإسلامية، وسرعان ما نبتت وبسقت فروعها، وأينعت ثمارها.

فلا غرابة في أن كثر العلماء والمؤلفون والأدباء في خوارزم، لأنها بيئة كثيرة الخيرات، ومنتجع الوافدين الذين يطمشون إلى طيب المقام، ولأن أهلها أقبلوا على الإسلام بشغف، ونشطوا أيما نشاط في تعلم اللغة العربية لغة القرآن والحديث، وهما مصدرا الشريعة ومنبعاها، فلما كانت النهضة العلمية والأدبية في العصر العباسي ازدادوا ركضا في ميادين الثقافة العربية.

وكان نشاطهم العلمي والأدبي مقرونا بالغيرة على الإسلام، والحرص على تعاليمه، والحفاظ عليه من أعدائه المحيطين بهم.

ثم إن المدارس كانت كثيرة في الإقليم، وكان العلماء والمؤلفون والمدرسون جادين في التعليم والتثقيف والتأليف، وكانت المكتبات العامة عديدة، والحكام حراسا على تشجيع الحركة الفكرية، كلفين بتقريب الشعراء إليهم، ليضيفوا إلى ملكهم هبة وجمالا، ولينافسوا سلفهم وجيرانهم من السلاجقة وغيرهم في الجاه وحسن الأكلوة وبعد الصيت.

ولأهل خوارزم اتجاه في التفكير اشتهروا به، فقد وصفهم المقدسي بأنهم أهل فهم وعلم وقه وقرائح وأدب، وقال إنني قلما لقيت إماما في الفقه والقرآن والأدب ليس له تلميذ من خوارزم^(١).

(١)

في خوارزم

وإذا أردنا أن نختص خوارزم وحدها بالنظرة السريعة وجدناها تجمّع بالعلماء والأدباء ، منذ عاش هنالك أخلاط من الفرس والعرب والترك ، ومنذ أقامت الدولة الخوارزمية ملكها على أنقاض السلاجقة في فارس والعراق وخوارزم ، وعلى أنقاض الدولة الغورية في غزنة ، وامتلكت ما وراء النهر ، فورثت ثقافات هؤلاء جميعا .

ولقد شجع الخوارزميون الأدباء والعلماء ، فازدانت دولتهم بكثير منهم ، ويذكر النسوي — وهو الكاتب المؤرخ الذي خالطهم وعمل في دولتهم — أن سلاطينهم عمروا قصورهم بالشعراء والكتاب والعلماء من فرس وعرب ، وقربوهم إليهم ، وأغدقوا عليهم ، كما فتحو المدارس ، وشجعوا الوعاظ ، على الرغم من أن بعضهم مثل السلطان محمد بن تكش كان تركيا قلل المعرفة باللغة العربية ^(١) .

ويذكر أن الدولة كان لها ديوان إنشاء وعرض ، وأن هذا الديوان كان أرفع رتبة من ديوان الطغراء عند السلاجقة ، وكان له رئيس ويتبعه كتاب يلقب كل منهم بنائب ^(٢) .

أما إنتاج هؤلاء الأدباء والعلماء فإنه كان بالعربية وبالفارسية ، فمن الذين أنتجوا بالفارسية زين الدين أبو إبراهيم إسماعيل بن حسن الجرجاني — عاش في ظلالهم من سنة ٥٠٤ إلى ٥٥٣ — وألف كتابا في الطب سماه ذخيرة خوارزم شاه ، ومنهم رشيد الدين محمد عبد الملك البلخي الملقب بالوطواط المتوفى بخوارزم

(١) سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ٥١ ، ٢٠٤ ، ٢٠٨ .

(٢) المرجع السابق ٥٧ ، ١٩٤ ، ٢٠١ .

سنة ٥٧٣ هـ (١١٨٧ م) كان رفيقا وصديقا للسلطان أثير، وكان شاعر البلاط في عهده، وفي عهد إيل أرسلان وابنه علاء الدين تكش، وهو مؤلف كتاب (جذائق السحر في دقائق الشعر) وهو من تلاميذ أبي سعد آدم بن أحمد المروى^(١).

ومنهم محمد بن قيس الذي كان في عهد علاء الدين خوارزم شاه وألف كتاب (المعجم في معايير أشعار المعجم) لأبي المظفر خوارزم شاه.

وبعضهم برع في الإنتاج بالعربية والفارسية مثل الوطواط، الذي كان أفضل زمانه في النظم والنثر، وأعلم الناس بدقائق كلام العرب وأسرار النحو والأدب، وكان يشيء في حالة واحدة بيتا بالعربية من بحر وبيتا بالفارسية من بحر آخر، ويعلمها معا. وله ديوان شعر وديوان رسائل بالعربية، ومؤلفات أخرى، ومن رسائله ما كتبه لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري:

لقد حاز جار الله - دام جماله - فضائل فيها لا يشق غبارُه
تجدد رَسْمُ الفضل بعد اندثاره بأثار جار الله فالله جاره
ثم أتبع البيتين رسالة نثرية، يثنى فيها على الزمخشري، ويود أن يكون من تلاميذه^(٢).

ومن هؤلاء نصرة الدين حمزة بن محمد بن عمر، كان يحفظ سقط الزند لأبي علاء المروى، واليمينى للعتبي، والملخص لفخر الدين الرازي، والإشارات لابن سينا، وله بالعربية والفارسية أشعار مدونة، وأما ترسله فالسحر الحلال والعذب الزلال^(٣).

(١) معجم الأدباء ١٠٣/١ و ٣٩/١٩.

(٢) معجم الأدباء ٣٩/١٩.

(٣) سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ١٨٧.

وتنهم أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن حيدر بن هلى الخوارزمى (ولد سنة ٥٥٩) له من التصانيف كتاب ديوان الأنبياء ؛ وكتاب شرح كلىة بالفارسية ، وكتاب الوسائل إلى الرسائل (من ثمره) وديوان شعر بالفارسية ، وكتاب الخطب فى دعوات ختم القرآن ، سماه بئمة البئمة ، وكتاب الطرفة فى النحو بالفارسية وغيرها ^(١) .

ومنهم محمد النسوى — نسبة إلى مدينة نسا بخراسان — الذى كان كاتب الإنشاء لسلطان جلال الدين منكبرى . ثم وزير له فى مدينة نسا ، وهو مؤلف أدق كتاب فى سيرة جلال الدين .

وكان ثمة علماء وأدباء تفوقوا فى الإنتاج بالعربية مثل أبى بكر محمد بن العباس الخوارزمى المتوفى سنة ٥٣٨٣ (٩٩٣ م) وهو شاعر نثر عالم ، كان يحاضر بأخبار العرب وأيامها وأشعارها ويدرس كتب اللغة والنحو والشعر ^(٢) .

ومثل أبى سعيد الشيبى الفارس الأديب ، كان فى أيام شبابه بخوارزم يقول شعرا جاسيا ، فلما عاشر الناس ، ولقى الأدباء لطف طبعه ، ورق شعره ، وقد اختص بالدولة السامانية والدولة البويهية فسمى صاحب الجيشين وشيخ الدولتين ^(٣) .

ومثل أبى محمد عبد الله بن إبراهيم الرقاشى من أبناء الوزراء بمدينة خوارزم ، وكان مثل كشاجم كاتبا شاعرا منجما ^(٤) .

ومثل أبى الحسين أحمد بن محمد الشهلخوارزمى (المتوفى سنة ٥٤١٨ م) كان من أجلة خوارزم ، وبهتة بيت رئاسة ووزارة وكرم ومروءة ،

(١) معجم الأدباء ١٥/٢ ، وسلم الوصول ٣٢/١ .

(٢) بئمة الدهر ١١٤/٤ .

(٣) بئمة الدهر ١٥٤/٤ .

(٤) البئمة ١٥٧/٤ .

وكان يجمع بين آلات الرياسة وأدوات الوزارة ويضرب في العلوم والآداب بالسهم الفائزة ، وله كتاب الروضة السُّبُلِيَّة في الأوصاف والتشبيهات ، وبمشورته صنف الحسن بن الحارث الحُسُونِي في المذهب كتاب السُّبُلِي يذكر فيه المذهبين مذهب الشافعي والحنفي . خرج من خوارزم سنة ٤٠٤ هـ إلى بغداد وتوطنها ، وترك وزارة خوارزم شاه أبي العباس مأمون خوفا من شره ^(٢١) .

ومثل الإمام أبي عبد الله محمد بن أحمد الحوفي (حوالي ٤٤٤ هـ) من تلامذة الشيخ أبي حامد الإسفراييني ، تفقه عليه ببغداد ، وبنته بيت كبير ، قال صاحب الكافي في تاريخ خوارزم إن بيته معمور بالعلماء منذ نحو مئتين وخمسين سنة ، وأطال في ترجمته ^(٢٢) .

ومثل أبي القاسم محمود بن عبد العزيز العارضي الخوارزمي الملقب بشمس الدين (٥٢١ هـ - ١١٢٧ م) كان من أفضل الناس في عصره في علم اللغة والأدب ، وتخطى إلى الفلسفة فصار مفتونا بها ، وكان يطلع الفقه وينظر في مسائل الخلاف ، سمع الحديث من أبي نصر القشيري وغيره ، وأملى طرقا منه وشرحه . وكان الزمخشري يدعو الجاحظ الثاني ، لكثرة حفظه وفصاحة لفظه . أقام مدة بخوارزم مكرما في خدمة خوارزم شاه ، ثم ارتحل إلى مرو ، فمات بها ^(٢٣) .

ومثل أبي علي الحسن بن المظفر الشاعر المصنف الذي كان مؤدب أهل خوارزم في عصره ونحرجهم وشاعرهم ومقدمهم ، وهو شيخ أبي القاسم الزمخشري قبل أبي مُضَر ، ومن مصنفاته التي رأها ياقوت : تهذيب ديوان الأدب ، تهذيب

(١) معجم الأدباء ٣١/٥ .

(٢) طبقات العارضية ٤٨/٣ .

(٣) معجم الأدباء ١٩/١٢٦ .

إصلاح للخلق ، ديوان شعره ، ديوان رسائله ، زبانات أخبار خوارزم^(١)
ومثل أبي الحسن علي بن عرق الصناري (المتوفى سنة ٥٣٩هـ - ١١٤٤م
مُذَنَّة وهي قرية من قرى خوارزم) كان نحوياً لغوياً عروضياً فقيهاً مفسراً
مذكوراً ، درس بخوارزم وبخارى ، وصنف كتاب شمع اللمع في تفسير
القرآن^(٢) .

ويكفي للدلالة على كثرة العلماء وتقديرهم ما ذكره النسوي في سيرة السلطان
محمد بن تكش ، وهو أنه سیر إلى خوارزم برهان الدين محمد بن أحمد بن
عبد العزيز البخاري المعروف بصدر جهان ، رئيس الخفعية ببخارى وخطيبها
المقدم ، وكان في جملة من يعيش في ظل برهان الدين وإدارة سلفه ما يقرّب سنة
آلاف فقيه ، وكان كرمياً يقصده العلماء والفضلاء^(٣) .

وقد سارت طريقة التأليف في خوارزم على غرار الطريقة في البلاد العربية ،
ففي النحو والصرف والعروض لم تخرج عما سبّه المؤلفون في العراق والشام ومصر
والأندلس ، وفي اللغة سلكت الاتجاهين المعروفين ، وهما تأليف المعاجم على ترتيب
الألفاظ كما نجد في أساس البلاغة للزمخشري ، أو تأليف المعاجم على حسب
المعاني كما نجد في قسم الأسماء من (مقدمة الأدب) للزمخشري .

وأما في البلاغة فقد تميز الخوارزميون بما تميز به المشارقة بامة ، وهو التأثر
بالفلسفة والنطق وعلم الكلام ، على حين أن أهل العراق والشام ومصر
والأندلسيين والغاربة تأثروا بالذهب الأدبي .

وإذا كان مذهب المشارقة قد اتضح عند الزمخشري والرازي والطبرزي .

(١) معجم الأدباء ١٩١/٩ .

(٢) معجم الأدباء ٦٣/١٤ .

(٣) سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ٦٨ .

والسكاكي وأشباههم ، فإنه كان أقدم منهم ، إذ برزت معالنه في كتابي أسرار
البلاغة ودلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ، وهو متكلم على مذهب
الأشعرى ، ولكنه يمتاز بمروعة الأدب وذوقه للزهد عن الذين خلفوه ،
فصبروا على البلاغة علما جافا تعوزه نفحة الأدب ورفيف الجمال .

ويظهر أن طول ممارستهم للفلسفة والعلوم العقلية جعلهم يحفلون بدراسة
البيان والمعاني أكثر مما يحفلون بدراسة الألفاظ وفنون البديع .

وقد تنبه ابن خلدون إلى عناية المشارقة بالبيان والمعاني فقال : ^(١) « لا والعناية
به لهذا العهد عند أهل المشرق في الشرح والتعلم أكثر من غيره ، وبالحلة
فالمشاركة على هذا الفن أقوم من المغاربة ، وسببه — والله أعلم — أنه كما في
العلوم اللسانية ، والصنائع الكيالية توجد في العمران ، والمشرق أوفر ههنا من
المغرب كما ذكرناه ، أو نقول لعناية العجم — وهم معظم أهل المشرق — كتنفس
الزخشرى ، وهو كله مبني على هذا الفن ، وهو أصله ، وإنما اختص بأهل المغرب
من أصنافه علم البديع خاصة ، وجعلوه من جملة علوم الأدب الشعرية ، وفرعوا
له ألقابا ، وعدوا أبوابا ، ونوعوا أنواعا ، وإنما حملهم على ذلك الولوع بتزيين
الألفاظ ، وأن علم البديع سهل المأخذ ، وصعبت عليهم مأخذ البلاغة — يريد علم
المعاني — والبيان لدقة أنظارهما ، وغوض معانيهما ، فتجافوا عنهما » .

والمشاركة أصحاب السبق إلى تقسيم علوم البلاغة إلى بيان ومعاني وبديع .

ولأهل خوارزم بحاصة الفضل في هذا المجال منذ الزخشرى والسكاكي ^(٢)

إلى اليوم .

(١) مقدمة ابن خلدون ١٢١٥ .

(٢) السكاكي : أبو بطوب يوسف بن أبي بكر ، من أهل خوارزم ، ولاية الريية
والمعاني والبيان والأدب والمروض والشعر ، متكلم فقه . ولد سنة ٥٠٤ هـ وتوفي سنة
٦٢٦ هـ وصنف مفتاح العلوم في اثني عشر مجلد (معجم الأدباء ٥٨/٢٠) .

وحتى الرغم من أن السبكي من أصحاب المذهب الأدبي في دراسة البلاغة فقد أثار بفضل المشاركة ، ونهج نهجهم ، وهذا واضح في قوله : « وأما أهل المشرق الذين لهم اليد الطولى في العلوم ولأسياس العقلية والمنطق ، فاستوفوا همهم الشاغخة في تحصيله ، واستوفوا بجدد على جلته وتفصيله ، ووردوا مناهل هذا العلم فصدروا عنها بلاء سجعهم . وكيف لا ؟ وقد جلبوا عليه بحيلهم ورجلهم ، فلذلك عمروا منه كل دارس ، وعمروا من حصونه الشديدة ما رقد عنه الحارس ، وبلغوا عنان السماء في طلبه ^(١) » .

وهكذا كانت خوارزم ثرية بعلومها وأدبائها قبل الزخشرى وبعده ، فلما اجتاحتها التتار سنة ٦١٨ هـ (١٢٢٠ م) دمروها ، وبددوا كثيرا من نفائسها وذخائرها ، لكن الحياة العلمية والأدبية لم تنقطع .

ثم تناوبتها الأحداث ، حتى امتلكتها دول أخرى فأسدلت الأستار على ماض مشرق وتراث عظيم .

المعتزلة

كانت العراق وفارس وخراسان وما جاورها من البلاد الفارسية ، ملأى بالشيعة ^(٢) ، وكان المعتزلة كثرة في هذه الأقاليم ، وكانوا الأكثرين في كل إقليم يحكمه الشيعة ، ولهذا انتشر مذهبهم بالعراق وفارس وخراسان وما وراء النهر ، وعلا صوتهم منذ قامت الدولة البويهية سنة ٣٣٢ (٩٤٣ م) ذلك أن الناس في تلك البلاد كانوا على مذهب السنة والجماعة ، فلما آل الحكم إلى بني بويه — وهم من غلاة الشيعة — ناصروا التشيع وأزروا الشيعة ، وفي سنة ٣٥٢ هـ أمر معز الدولة الناس أن يحتفلوا في العاشر من المحرم بذكرى قتل الحسين ،

(١) عروض الأفراح في شرح تلخيص الفتاح ٥/١ .

(٢) راجع أدب السياسة في العصر الأموي للمؤلف ٣٤ .

فأغلقت الحوائط ، وخرجت النساء مسودات الوجوه منشورات الشموخ ،
يلطمن وجوههن على شهيد كربلاء .

وفي الثامن عشر من ذي الحجة أمر بإظهار الزيندى فى البلاد ليلاً ونهاراً
احتفالاً بميد الغدير ^(١) . وكان من أنصارهم الكبار الصحابي بن عباد الذى
تولى الوزاة لفتقر الدين اليوهسى من ٣٦٧ إلى ٣٨٥ هـ ، ففرب للمتزلة وآثرهم
بالتأصب العالية ^(٢) .

ثم ذاع الاعتزال واستقر بالشرق ، حتى لقد كان أكثر الشيعة ، فى بلاد
المعجم معتزلة ، وأكثر فقهاهم على الاعتزال ، وكثيراً ماوقفت المشاحنات
بين العامة بسبب ذلك ^(٣) .

وم كثير ، منهم بالقرب من خوارزم . أبو القاسم عبد الله بن أحمد البلخى ،
المعروف بالكعبي (٢٧٣ — ٣١٩ هـ) كان من كبار المعتزلة ودعاتهم ، وانتهت
رياستهم إليه وإلى أبى على الجبائى وأبى بكر بن الإخشيد ، كما ذكر ابن حزم
فى كتابه الفصل . دخل (نسف) فأكرمه أهلها إلا الحافظ عبد المؤمن
ابن خلف .

(١) الغدير : غدير خم ، وهو موضع بين مكة وللدنية على ثلاثة أميال من الجمفة ،
به ماء كثير وحوله شجر كبير ، يروى الشيعة عن البراء بن عازب أنه قال : كنا مع رسول الله
صلى الله عليه وسلم فى سفر ، فترلنا بغدير خم ، فأمر بتنظيف مكان بين الأشجار المنففة
بالغدير استعداداً لإقامة الصلاة ، ثم نادوا الصلاة جامعة ، فقلنا الظهر . ثم أخذ النبي يدعى
ابن أبى طالب فقال : ألسم تعلمون أنى أولى بكل مؤمن من نفسه ؟ قلنا : بلى ، فقال : من
كنت مولاه ، فعلى مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ، وانصر من نصره ، واخذل
من خذله ، وأدر الجلى معه حيث دار . ألا هل بلغت ؟ قلنا ثلاثاً .
والشيعة يتخذون من هذا اليوم عيداً . وأول من اتخذ هذه معز الدولة البويهى ، ثم جعله
الفاطميون عيداً فى مصر منذ سنة ٣٦٢ هـ حينما قدم المعز إليها (الليل والنعل ١/ ١٤٤) .

(٢) معجم الأدباء ٦/ ٢٢٥ .

(٣) أحسن التقاسيم ٣٩٥ ، ٣٩٦ ، ٤٣٩ .

وهو صاحب فرقة من من المعتزلة سماها ابن القديم^(١) البلخية ، وسماها ،
الشهرستاني الكمية .^(٢)

وقد وصفه أبو حيان التوحيدي بقوله : ناهيك به طالا وراويا وثقة^(٣) .
والمؤرخون متفقون على أن نجم المعتزلة بدأ يأفل منذ تولى الخليفة للتوكل سنة
٢٣٢ هـ (٨٤٦ م) لأنه اضطهدهم ، وعزل قضائهم ، وصادر أملاكهم ، وسجن
كثيراً من رجالهم ، فضفض شأنهم ، وسخر الناس بهم ، كقول أبي العتاهية
في الشامة بأحمد بن أبي دؤاد لما عزله المتوكل وصادر ضياعه :

لو كنت في الرأي منسوباً إلى رشدي وكان عزمك حرماً فيه توفيق
لكان في الفقه شغلٌ لو قنيت به عن أن تقول كلامُ الله مخلوق
ملذا عليك وأصل الدين يجمعهم ما كان في الفرع لولا الجهل واللوق^(٤)

ويقول ابن خلكان إنهم اتفقوا منذ تولى المتوكل ، فلما ظهر أبو الحسن
الأشعري سنة ٣٢٣ هـ ازدادوا انقاعاً ، لأنه كان معتزلياً فاشتق على المعتزلة ،
وقد كثيراً من آرائهم ، والزم حداً وسطاً بين السنة والمعتزلة ، فلم يكن
يعول على المنقول وحده كأهل السنة ، ولا على العقل وحده كالمعتزلة ، حتى
ليعبر أبو بكر الصيرفي عن هذا بأنهم كانوا قد رفعوا رءوسهم ، فلما أظهر الله
الأشعري جحرم في أقامع السمس^(٥) .

ولكن خوارزم مع هذا كله كانت تموج بالاعتزال ، حتى ليندر أن نجد
خوارزمياً ليس معتزلياً ، فإن كان غير معتزلي وأراد أن ينفي الاعتزال عن

(١) لسان اليرقان ٢/٢٠٠ .

(٢) اللؤلؤ والنحل ١/٧٣ .

(٣) النصارى والأخبار ١/١٤٣ .

(٤) تاريخ الطبري ١١/٤٦ ، اللوق : الحق .

(٥) وفيات الأعيان ٢/٤٤٧ .

نفسه أكد فيه ، كما نجد في وصف ياقوت القاسم بن الحسين بن محمد الخوارزمي :
« سأله عن مولده فقال : مولدى سنة خمس وخسين وخمس مئة ، وحضرت
في منزله بخوارزم فرأيت منه صدرا يملأ الصدر ^(١) ، ذابحة سنينة وأخلاق
هنية ، وبشر طليق ، ولسان ذليق ، غلا قلبى وصدرى ورأيت شيعا
بهى النظر ، حسن الشيبة كبيرها وقلت له : ما مذهبك ؟ فقال حنفى ^(٢) ،
ولكن لست خوارزميا ، لست خوارزميا يكررها ، إنما اشتغلت ببخارى ،
فأرى رأى أهلها ، نقي عن نفسه أن يكون معتزليا » ^(٣) .

وقد جعل الزمخشري اعتزال الخوارزميين أعظم فضائلهم ^(٤) ، وهو صادق
في هذا الحكم ، لأن الاعتزال شاع بينهم ، حتى إن عوامهم يدينون بأن
القرآن مخلوق ^(٥) .

القضاء

كانت الغلبة في خوارزم للمذهب أبى حنيفة ، وكان لكن مدينة قاض يفصل
بين الناس وفق الشريعة الإسلامية ، فإن كانت المدينة كبيرة وبها مذاهب
متعددة عين الخوارزميون قضاء بمد المذاهب ، وهؤلاء القضاء كانوا يقومون
أيضا بتدريس العلوم للدينية في المساجد والمدارس ^(٦) .

وذكر ابن بطوطة في وصفه لأمير خوارزم (قُطْلُو دُمُور) ^(٧) أن من

(١) يربد رئاسة وتهدأ يملأ القلب .

(٢) معجم الأدياء ٢٣٨/١٦ .

(٣) ربيع الأبرار للزمخشري الباب التاسع مخطوط .

(٤) أحسن التقاسيم ٣٩٥ ، ٤١٥ .

(٥) سيرة حلال الدين منكبرتي ٧٧ .

(٦) ضبطها بضم الفاء وسكون الهاء وضم اللام ، وضم الدال والهم ، وقال : إن معنى
الكلمة الأولى المبارك ومعنى الثانية الحديد ، واسمه إذا الحديد المبارك ، وقال : إنه ابن خالة
السلطان العظيم أوزبك وأكبر أمرائه وواليه على خراسان .

عادته أن يأتي القاضي كل يوم إلى مجلسه ومعه الفقهاء وكتابه ، ويجلس في مقابلة أحد الأفراد الكبراء ومعه ثمانية من كبار أمراء الترك وشيوخهم ، ويحكم الناس إليهم ، فما كان من القضايا الشرعية حكم فيها القاضي ، وما كان من سواها حكم فيه أولئك الأمراء . وأحكامهم مضبوطة عادلة لأنهم لا يهتمون بميل ولا يقبلون رشوة ^(١)

(٢)

في الإقليم كله

لكن خوارزم لم تكن في عزلة عن الحياة العلمية والأدبية في المنطقة كلها ، ولا سيما الأقاليم المصاحبة لها ، إذ كانت هذه المنطقة موحدة الحكم في عهد العرب البويهيين والسامانيين والسلاجقة ، وكانت تياراتها الثقافية تجري هنا وهناك بين مجتمع من الفرس والعرب والترك ^(٢) .

وإنه ليستري الانتباه أن الإقليم الذي كان فارسيا واستعرب خرج ماث من الشعراء والكتاب واللغويين والنحاة والفقهاء والمفسرين والمحدثين . وإذا كان البويهيون قد ذاع صيتهم بتقدير العلماء والأدباء فإن السامانيين كانوا مثلهم ، فكان نوح بن منصور الساماني يقدر العلماء ، ويؤثر استخدامهم في شئون الدولة ، ولما سمع بشهرة صاحب بن عباد وزير آل بويه كتب إليه يستدعيه إلى بخارى ليفوض إليه وزارته وتدبير مملكته ، فاعتذر صاحب بأنه يحتاج إلى أربع مئة رجل لنقل كتبه .

واشتهر وزيران من وزرائهم بشغفهما بالأدب والعلم ، أحدهما أبو الفضل

(١) مهذب رحلة ابن بطوطة ١/ ٣٠٠ .

(٢) كثير العرب هناك منذ الفتح ، وكثر الترك وعظم قوادم منذ عهد المنصور ، ثم توالى هجراتهم وكان السلاجقة من قمار بعضها .

ابن عبيد الله التميمي الذي كان وزيراً لمنصور بن نوح الساماني، وهو الذي ترجم تاريخ الطبري إلى اللغة الفارسية، والآخر أبو عبد الله محمد بن أحمد الجيهاني، الذي كان وزيراً للملك السابق، وكان بكرم قصاده ويعين مؤمليه^(١)، فشجع هذان الوزيران العلم والأدب في بخارى كما شجعهما أبو الفضل بن العبيد والصاحب بن عباد في الري، فكان في قصر الصاحب بأصبهان والري وجرجان عشرات من ذوى العلم والأدب، مثل أبي الحسين السلمي وأبي بكر الخوارزمي وأبي طالب المأموني وأبي الحسن البديهي وأبي سعيد الرستمي وأبي القاسم الزعفراني وأبي العباس الضبي وأبي الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني وبنى المنجم وأبي الفضل الهمداني وغيرهم^(٢)، وقصده كثير من الأدباء من جهات شتى.

ثم كان السلاجقة أعظم رعاية للعلوم والآداب، بفضل الوزير نظام الملك الذي وزر لألب أرسلان (٤٥٥ — ٤٦٥ هـ) ولابنه أبي القتح ملككشاه (٤٦٥ — ٤٨٥ هـ)، وهو عالم درّس الحديث وعلوم السنة في طوس، وكان ينقب عن المتأخرين منهم، ويبنى لهم مدارس ليتعلموا بها، ويقف عليها الأوقاف، وينشئ في كل منها مكتبة، ويرتب للعلماء ما يكفيهم حتى يفرغوا للتعليم ونشر الثقافة بين الناس، ولما كثرت الأموال في خزانة الدولة خصص فيها لأرباب العلوم حقوقاً لا تؤخر، وصير هذه الحقوق ثابتة لهم وميراثاً لأبنائهم^(٣)، وإليه تنسب المدارس النظامية التي أنشأها في أمصار شتى لتعليم الحديث.

ويذكر العماد الأصفهاني أن الآباء كانوا يترددون بأبنائهم النجباء على

(١) معجم الأدباء ١٧/١٥٧.

(٢) بنية الدهر ٣/٣٢.

(٣) الكامل لابن الأثير ١٠/٢٦، ٧١ وتاريخ آل سلجوق ٥٤.

مجلسه، لأنه كان يتفرس في وجوههم، فيرشح كلا منهم للمنصب الذي يلائم
رشدته وكفايته واستعداده^(١).

المكتبات

ولا شك أن رعاية الثقافة تقتضى عناية بالكتب والمكتبات على النحو
الذى نجدده في وصف ياقوت لمدينة مرو وتقديره لكتبها التى انتفع بها في
حرفاته « فيها عشر خزائن للوقف، لم أر في الدنيا مثلها كثرة وجودة، منها
خزانتان في الجامع، إحداهما يقال لها العريضة، فيها اثنا عشر ألف مجلد، والأخرى
يقال لها السكالية.

وكانت سهلة التناول لا يفارق منزلى منها مثلاً مجلد أكثرها بدون

وقد أنسأني جميعها كل بلد، وألهاني عن الصعب والولد، وأكثر فوائد
هذا الكتاب - معجم البلدان - وغيره فهي من تلك الخزائن^(٢) ».

ووصفها في رسالة إلى القاضي أبي الحسن الشيباني وزير حلب، وجاء في
وصفه قوله: « كان المقام يمر الشاهجان المفسر عندهم بنفس السلطان،
فوجدت بها من كتب العلوم والآداب ما شغلني عن الأهل والوطن، فظفرت
منها بضالتي للنشودة، فأقبلت عليها إقبال النهم الجريص ».

ووصف في هذه الرسالة إقليم خراسان بأنه موزق الأرجل، رائق الأنحاء،
ذو رياض أريضة، وجملة أمره أنه نموذج الجنة بلا منين، فيه ما تشتهي الأنفس
وتلذ الأعين^(٣).

(١) الكامل لابن الأثير: ٢٦/١٠، ٧١، وتاريخ آل سلجوق: ٤٤، الهادي الأسفهانى.

(٢) معجم البلدان مدينة مرو.

(٣) نبات الأعيان ٢/٢٩٣.

وكان نوح بن منصور الساماني كلنا بالكتب حريصاً على اقتنائها ، فجمع مكتبة كبيرة حوت أهم المؤلفات في كل علم من الأدب والشعر والعاريخ والطب والفلسفة ، ذكرها ابن سينا في حديثه عن نشأته ، وقال إنه استفاد منها ، وإن بعض كتبها نادر الوجود .

ولو حلوت أن أرسم صورة كاملة للحياة الثقافية هناك لطال المقال واتسع المجال ، فلتسكن لحات سيديمت .

علماء الحديث والفقه

من المحدثين البخاري — نسبة إلى بخاري — المتوفى سنة ٢٥٦ هـ (٨٦٩ م) وهو إمام مدوني الحديث ، ومسلم بن الحجاج النيسابوري — نسبة إلى نيسابور — المتوفى سنة ٢٦١ هـ صاحب صحيح مسلم ، وكل منهما قد وصل الى العراق والحجاز والشام ومصر ليجمع الأحاديث بسندها ، ويميز صحيحها من زائفها .

ومن الفقهاء المجتهدين أبو بكر محمد بن المنذر النيسابوري المتوفى سنة ٣١٦ هـ (٩٢٨ م) الذي وصفه الذهبي بأنه كان مجتهداً لا يقلد أحداً ، وأبو حاتم محمد بن حبان التميمي السمرقندي المتوفى سنة ٣٥٤ هـ (٩٦٥) الذي حكى عن نفسه أنه أخذ عن ألف شيخ بين الشاش — طشقند — والإسكندرية ، وهو مرجع كثير من المحدثين في حكمه على رجال الحديث بالجرح والتعديل .

كما كان بالإقليم من كبار الشافعية محمد بن علي التتال الشاشي المتوفى سنة ٣٦٥ هـ (٩٧٥ م) وهو الذي نشر مذهب الشافعي هناك ، وكان معتزلياً ، وله كتب في الفقه والأصول ، وأبو بكر بن فورك الأصفهاني الأصولي المتكلم المتوفى سنة ٤٠٦ هـ (١٠١٥ م) وهو ناصر مذهب الأشعري ، وقد اضطهده أهل الري لكثرة المعتزلة بها ، فطلبه أهل نيسابور ، وبنوا له مدرسة يعلم فيها ، وله مؤلفات

تبلغ نحو المئتين وأبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي الحافظ المتوفى سنة ٤٥٨ (١٠٦٥ م) — نسبة إلى بيهق بالقرب من نيسابور — ومؤلفاته كثيرة حتى قالوا إنها نحو ألف جزء ، ومنها السنن الكبير والسنن الصغير ودلائل النبوة ومناقب الشافعي ومناقب ابن حنبل .

وكان الإقليم من عظماء الحنفية أبو منصور الماتريدي — نسبة إلى ماتريد وهي محلة بسمرقند — المتوفى سنة ٣٣٣ هـ (٩٤٤ م) وهو في علم الكلام عند الحنفية مثل الأشعري عند الشافعية ، وله كتاب التوحيد وأوهام المعتزلة ، ومآخذ الشرائع في الفقه ، والجدل في أصول الفقه وغيرها ، وأبو الليث نصر بن محمد السمرقندي الملقب بإمام الهدى المتوفى سنة ٣٧٣ هـ (٩٨٣ م) ^(١) .

وهكذا نجد في كتب الحديث والفقه كثيراً من العلماء منسوبين إلى مدنيهم ، مثل الليث الجبوري والفرغاني والهروي — نسبة إلى هراة — والزمخشري ، والبيهقي والحوارزمي والترمذي والبلخي والسمرقندي والشاشي والفارابي والروزي — نسبة إلى مرو بزيادة الزاي ، ويقال أيضاً المروزي نسبة إلى مرو الروز — والرازي — نسبة إلى الري — والصاغاني .

علماء اللغة والأدب

كذلك ازدهر الإقليم بكثير من العلماء الكبار الذين ألفوا في اللغة والأدب ، منهم علي بن عبد العزيز الجرجاني المتوفى سنة ٣٦٦ هـ (٩٧٦ م) وهو فقيه ومفسر ومؤرخ وشاعر مُتَقِنٌ و كاتب مُتَرَسِّلٌ ، وناقد بصير ، ومن مؤلفاته (الوساطة بين القنبي وخصومه) .

ومهم أبو منصور محمد بن أحمد الأزهرى — من هراة — المتوفى سنة ٣٧٠ هـ

(٩٨٠ م) مؤلف كتاب التهذيب الذى يعد أصلاً من أصول المعاجم اللغوية ، وقد اعتمد عليه وعلى المحكم لابن سيده ابن منظور فى معجمه لسان العرب .
ومنهم أبو عمرو أحمد بن محمد الزوزنى المتوفى سنة ٣٧٤ هـ (٩٨٤ م) -
نسبة إلى زوزن بضم الزاى وفتحها ، وهى بلدة بين نيسابور وهرات ، وله شرح
القوائد السبع .

ومنهم أبو بكر أحمد بن الحسين بن مهران النيسابورى المتوفى سنة ٣٨١ هـ
(٩٩١ م) أصله من أصبهان وسكن نيسابور ، وسمع من كبار علمائها ، وله
من المؤلفات كتاب الشامل ، وكتاب الناية ، وكتاب قراءة أبي عمرو ،
وكتاب غرائب القرآن ، وكتاب وقوف القرآن وغيرها ^(١) .

ومنهم إسماعيل بن حماد الجوهري - من فارات - المتوفى سنة ٣٩٨ هـ
(١٠٠٧ م) مؤلف كتاب الصحاح وهو من أمهات المعاجم العربية .

ومنهم بديع الزمان الهمذاني المتوفى سنة ٣٩٨ هـ وهو كاتب وشاعر ، وقد
اشتهر بسرعة الحفظ وسرعة التحجير ، وله المقامات المعروفة باسمه التى حاكها
الحريرى فيما بعد ^(٢) .

ومنهم أبو منصور عبد الملك الثعالبي النيسابورى المتوفى سنة ٤٢٩ هـ (١٠٣٧ م)
كان كاتباً وكان عالماً باللغة والأدب ، وهو مؤلف كتاب فقه اللغة على الطريقة
الموضوعية ، إذ جمع فى كل موضوع الكلمات المتصلة به ، ومؤلف بتيمة الدهر
فى محاسن أهل العصر ، ترجم فيه لأدباء القرن الرابع ، وذكر نماذج من أدبهم ،
ومما قيل فيهم ، وقسمه حسب الأقاليم والأمصار ، وله كتاب ثمار القلوب فى
المضاف والنسوب وغيرها .

(١) معجم الأدباء ١٢/٣ .

(٢) معجم الأدباء ١٦١/٢ ، وبتيمة الدهر ١٦٧/٤ .

وأبو الحسين علي بن الحسن الباخري السنعي — باخرز من واهي نيسابور — المتوفى سنة ٤٦٧ هـ (١٠٧٤ م) وهو مؤلف دمية القصر في شعراء العصر، جملة تذيلا على قيمة الدهر للثعالبي^(١).

ومنهم عبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة ٤٧١ هـ (١٠٧٨ م) وهو مؤلف كتابي دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة.

ومنهم أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني النيسابوري — الميدان محلة من محال نيسابور كان يسكنها فنسب إليها — المتوفى سنة ٥١٨ هـ (١١٢٤ م) وهو مؤلف جمع الأمثال، والسامى فى الأسامى، والنموذج فى النحو، وشرح المفضليات^(٢).
ومنهم آدم بن أحمد بن أسد الهروى أبو سعد النحوى اللغوى المتوفى سنة ٥٣٦ هـ — ١١٤١ م، من أهل هراة وسكن بلخ، كان أديبا فاضلا عالما بأصول اللغة صنائبا، ورد بغداد سنة ٥٢٠ فاجتمع إليه أهل العلم وقرأوا عليه الحديث والأدب، ومن تلاميذه رشيد الدين محمد بن عبد الجليل الملقب بالوطواط كاتب الإنشاء لخوارزم شاه، وكان يكاتبه ويخضع له ويقر بفضله^(٣).

الفلاسفة

نشطت الفلسفة بالإقليم نشاطا كبيرا يرجع إلى ثلاثة من حاملي لوائها، أولهم — حسب الترتيب الزمنى — أبو القاسم عبد الله بن أحمد الكمى المتوفى سنة ٣١٧ هـ (٩٢٩ م)، وهو من بلخ، وكان واسع المعرفة بعم الكلام، وإماما من أئمة المعتزلة، وله مذهب خاص وأتباع يقال لهم الكمىة^(٤).

(١) مجمع الأدياء ٣٣/١٣.

(٢) مجمع الأدياء ٤٥/٥.

(٣) مجمع الأدياء ١٠١/١.

(٤) اللؤلؤ والنحل ٧٣/١.

وثانيهم أبو زيد أحمد بن سهل البلخي المتوفى سنة ٨٣٢٢ (٩٣٣ م) وكان صديقا للكوفي^(١)، وقد جمع بين العلوم الشرعية والأدب والفلسفة، وله مؤلفات كثيرة تبلغ نحو السبعين، منها كتاب أقسام العلوم، وكتاب شرائع الأديان، وكتاب السياسة، وكتاب أسماء الله وصفاته، وكتاب صناعة الشعر، ورسالة حدود الفلسفة، وكتاب أخلاق الأمم، وكتاب نظم القرآن.

وقد قال أبو حامد القاضى فى وصف كتابه نظم القرآن: لم أركتابا فى القرآن مثل كتاب أبى زيد البلخي.

وقال أبو حيان التوحيدي: «أبو زيد البلخي يقال له بالمراق جاحظ خراسان» وقال أيضاً فى كتاب تقريب الجاحظ: «الذى أقول وأعتقد وأخذ به أنى لم أجد فى جميع من تقدم وتأخر ثلاثة لو اجتمع الثقلان على تقريبهم ومدحهم ونشر فضائلهم . . . لما بلغوا آخر ما يستحقه كل واحد منهم، أحدم (وذكر الجاحظ) والثاني (وذكر أبا حنيفة الديبوري) والثالث أبو زيد أحمد ابن سهل البلخي، فإنه لم يتقدم له شبيه فى العصر الأول، ولا يظن أنه يوجد له نظير فى مستأنف الدهر، ومن تصفح كلامه فى كتاب أقسام العلوم، وفى كتاب أخلاق الأمم، وفى كتاب نظم القرآن . . . علم أنه بحر البهور، وأنه عالم العلماء، وما رأتى فى الناس من جمع بين الحكمة والشريعة سواه^(٢)».

أما الثالث فهو أبو على الحسين بن عبد الله بن سينا المتوفى سنة ٤٢٨ هـ (١٠٣٦ م) وقد درس الفلسفة اليونانية منذ الصغر، ثم درس الطب، وقرأ من الكتب ما لم يقع للكثير من الناس قط، وما زال كتابه القانون فى الطب يدرس

(١) هو أبو القاسم البلخي الذى سبق الحديث عنه فى الاعتزال بخوارزم.

(٢) معجم الأدباء ٦٤/٣ — ٨٦.

في جامعات أوروبا إلى القرن التاسع عشر^(١) ، وما تزال كتبه الشفاء ، والنجاة ،
والإشارات مصدراً لدراسة الفلسفة الإسلامية .

كذلك قد درس الفلسفة وتصدى للرد على الفلاسفة دفاعاً عن الإسلام أبو حامد
القرابي المتوفى سنة ٥٠٢ هـ (١١٠٨ م) وهو من مدينة طوس ، ودرس بالمدرسة
النظامية ببغداد ، وله مؤلفات كثيرة منها : تهافت الفلاسفة ، وكتاب فضائح
الباطنة ، وكتاب المنقذ من الضلال ، وكتاب إحياء علوم الدين .

المتصوفة

وكان بالإقليم تصوف ومتصوفة ، منهم أبو عبد الله محمد بن منازل
البيسابوري المتوفى سنة ٣٢٩ هـ (٩٤٠ م) وأبو العباس بن القاسم بن مهدي
المتوفى سنة ٣٤٢ هـ (٩٥٣ م) وهو من أهل مرو ، وأول من تكلم عندهم
في حقائق الأحوال^(٢) .

(١) تاريخ الحضارة الإسلامية ٧٦ بارنولد .

(٢) ظهير الإسلام ١ / ٢٦٥

الفصل الأول

حياته

اسمه محمود بن عمر بن أحمد، ولم أجد في نسبه ذكرًا وثيقًا لأحد بعد هذا الجده، وكنيته أبو القاسم، غلبت عليه النسبة إلى بلده الذي ولد به ونشأ فيه، فقيل الزمخشري، وكان قد جاور بمكة زمانًا ولقّب نفسه بجار الله، فصار هذا اللقب علمًا عليه^(١).

ولد بزخمشر في السابع والعشرين من رجب سنة ٤٦٧ هـ^(٢) (١٠٧٤ م)، وليس بين الذين أرخوا له خلاف في سنة وفاته، كما أنه متفقون أيضا على سنة ميلاده، إلا أن ابن كثير ذكر أنه توفي سنة ٥٣٨ هـ عن ست وسبعين سنة^(٣)، ومعنى هذا أن ميلاده كان في سنة ٤٦٢ هـ، لكن إجماعهم على أن المولد كان سنة ٤٦٧ هـ، وقول ابن العماد الحنبلي إنه توفي سنة ٥٣٨ هـ بعد أن عاش ٧١ سنة^(٤) يجعلنا نستبعد ما ذكره ابن كثير.

وكان مولده في عهد السلطان ملكشاه السلجوقي ووزيره نظام الملك، وهو من أزهى الفترات التي نهضت فيها الآداب والعلوم.

نشأ بزخمشر ودرس بها، ثم رحل إلى بخارى ليطلب العلم في مطلع حياته^(٥)،

(١) مراة الجنان ٣/٢٦٩، ومعجم الأدباء ١٩/١٢٦.

(٢) وفيات الأعيان ٤/٢٥٩، وشذرات الذهب ٤/١٢١ [وبه أن المولد كان في

١٧ رجب] ولذاته الرواة ٣/٢٦٨، وتاريخ أبي الفدا ٣/١٦.

(٣) البداية والنهاية ١٢/٢١٩.

(٤) شذرات الذهب ٤/١٢١.

(٥) وفيات الأعيان ٤/٢٥٥.

لأنها كانت منذ عهد السامانيين «مثابة الحمد، وكعبة الملك، وجمع أفراد الزمان، ومطلع نجوم أدباء الأرض، وموسم فضلاء الدهر» ^(١).

كان الزمخشري في مطالع حياته طموحاً، يأمل أن يقبوا المكانة التي تكافئ علمه وأدبه وذكائه، وأن ينال من المال ما يكفل له رغد الحياة، كما نال غيره ممن هم دونه مقدرة وكفاية، وكانت الدولة الخوارزمية مازال في نشأتها ولاية تابعة للسلاجقة، فصوّب الزمخشري نظره إلى الدولة الكبيرة التي يتولى شئونها نظام الملك، ومدحه بقصيدة ^(٢) صور فيها ضيق نفسه، وبرمه بعلمه وكفايته وفضله، ما لم تبوءه المكان الرفيع الذي يستحقه، وجهر بأنه من الظلم أن يظفر المتخلفون بما يجب أن يناله الأكفاء المتقدمون وحدهم، وسخط على الزمن الذي جاد على الأراذل بمقوق الأمانات، ثم عزى نفسه عن هذه المفارقات بأن كثيراً من القبيحات أجيادهن حالية، على حين أن كثيراً من الحسان عواطل الأجياد.

ونلاحظ أنه في مدحه المزوج بالشكوى نوه بعلمه وأدبه، وجعلها صلة قرى بينه وبين نظام الملك، وعرض بتقصيره في رعايته على ما بينهما من هذه القرابة، مع أن غيره ممن لا قرابة بينهم وبينه كانوا يرعون حقوقه، وختم القصيدة باعتداد مقرون بتحدى نظام الملك أن يجد له نظيراً في جميع من يرى، وتهديده بالرحيل عن خوارزم كلها إذا لم يسعفه بما يأمل، وبلوم خفي على أن آماله في الوزير كانت عظيمة فذهبت سُدى، لأن الأراذل ظفروا بما لم يظفر به، ثم طالبه صراحة بأن يأمر له بما يحقق آماله. من هذه القصيدة قوله ^(٣):

خليلى هبل تجدى على فضائلى إذا أنا لم أرفع على كل جاهل؟
ومن لى يحقى بعد ما وفرت على أراذل الدنيا حقوق الأمانلى؟

(١) بقيمة الدهر ٣٣/٤

(٢) ديوان الزمخشري ٩٥

(٣) الديوان ٩٤

كذا الدهر كم شوهاه في الخلق جديها
 وما شجاني أن غرّ مناقبي
 وطارت إلى أقصى البلاد قصائدي
 وكم من أمالي لي وكم من مصنف
 ولي في دقيق النحو والنقد منطق
 غني من الآداب لكنني إذا
 فيا ليتني أصبحت مستغنيا ولم
 وبالي ليتني مرض صديق ومُخط
 وما حق مثلي أن يكون مُضيقا
 وأعظمها أني نسيت نصابه
 وقد كان يرعى الناس حتى قبله
 أحظى منقوص ولست بناقص
 فلا ترض يا صدر الكفاة بأن ترى
 ولا تجعلوني مثل همزة واصل
 فكل امرئ آماله عند الحصاص
 لئن كان امرئ في خوارزم ما أرى
 وكم قلت ألقى في وزارتك المنى
 ولم أدر أن الأرذلتين يرون ما
 فوقع إلى هذا الزمان فإنه
 وكم جيد حسناء القلّة عاطل
 تغنى بها الركبان بين القوافل
 وسارت مسير النيرات رسائل
 أصاب بها ذهني تحزّ المفاصل
 إذا قتلته لم أبق قولاً لقائل
 ظننت فإني الكف غير الأنامل
 أكن نحر خورزم ورأس الأفاضل
 عدوى وأني في قهاهة باقل
 وقد قطعت عند الوزير وسائل
 إذا عرّضت أنساب هذي القبائل
 على عدم القرني ويُعدّ الوصائل
 وكم كامل حظاً وليس بكامل
 أعلى قوم الحقوا بأسافل
 فيسقطني حذف ولا راء واصل^(١)
 وهات نظيري في جميع المحافل
 فإن رحالي في ظهور الرواحل
 وأدرك وحدي ما أرنجي كل أمل
 تمنوا وأني لست أحظى بطائل
 غلامك يجعلني كبعض الأراذل

(١) أي لانهلك كما يهلك النكاح همزة الوصل وكما أسقط واصل بن عطاء الراء من كلامه

لكن الزمخشري لم يظفر من نظام الملك بما أراد ، فإذا عسى أن يكون السبب أو الأسباب في هذا الإخفاق ؟

قد يرجع إخفاقه إلى أن نظام الملك سُنّي تعلم الحديث وعلمه وأمله ، وافتتح للدارس لتعليم الشريعة على مذهب أهل السنة ، ولكن الزمخشري معزلى مكاشف باعتزاله مشهور به .

وقد يرجع أيضاً إلى أنه في مدائمه ومطالبه كان يمزج طلبه بألوان من التنويه بنفسه ، والمباهاة بعلمه وأدبه ، والتعريض بغيره ، ولوم نظام الملك على قصيره وتغاضيه عنه ، وكان كالآمر الذي يتوقع أنه لا بد من أن يطاع .

وحينئذ اجتمع اليأس من المقام بخوارزم ، حيث لا منصب ولا مال ، والعزم على الرحيل عن الوطن الذي ولده ورعى فيه ، وكان صراع نفسى صورته في قوله^(١) :

أَحَبُّ بِلَادِ اللَّهِ شَرْقًا وَمَغْرِبًا إِلَى الَّتِي فِيهَا غُذِيتُ وَلِيَدًا
ولكن تُوَاوِى بِالْكَرَامَةِ غَيْرُهَا وَهَذَى أَرَى فِيهَا الْهُوَانَ عَتِيدًا
وما منزل الإِذْلَالِ لِلْحَرِّ مَنْزِلًا وَإِنْ كَانَ عَيْشُ الْحَرِّ فِيهِ رَغِيدًا
سَأَرْحَلُ عَنْهَا ثُمَّ لَسْتُ بِرَاجِعٍ وَأَضْرِبُ مَرْمًى فِي الْبِلَادِ بَعِيدًا
فَلَا كُنْتُ إِنْ خِثِمْتُ فِيهَا ابْنَ حَرَّةٍ وَلَا عَشْتُ بَيْنَ الصَّالِحِينَ حَمِيدًا
فإلى أين يتجه ؟

لقد اتجه إلى إقليم آخر من أقاليم الدولة السلجوقية هو خراسان ، فالتصل ببعض رجال الدولة هناك ، ومدحهم ، منهم مجير الدولة أبو الفتح علي بن الحسين الأردستاني نائب تاج الدولة على ديوان الإنشاء في عهد السلطان أبي الفتح ملكشاه ، وكاتب الرسائل المشهور في ذلك العصر ، وقد مدحه ، وتطلع إلى أن يقرأ كتابيه (شرح أبيات سيبويه) و (الأنموذج) فقال^(٢) :

(١) الديوان ٣٧

(٢) الديوان ٢٣

فنفذ مجير الدولة المستجار لي مداواة أدواء وأنسو جراح
نطاسي آمال مراضٍ وجابر لكسر مهيضات الخطوب الفواح
فليت رحالي ألقيت بفنائيه فارتع في نعمائه غير نازح
ويقدح زنداً واريًا من مناقي إذا صلدت كل الزناد لقادح
وفي شرح أبيات (الكتاب) لبعض ما يرى في صفاتي مُجَمَّلاً أي شارح
و(أنموذجاً) أنفذت منه بضمه رجائي أرى فيه وجوه الناجح
أراقب من عين الوزير اطلاعاً عليه وحسبي منه لمحمة لامح
جميع ثياب الدهر ينبتى جديدها ويبقى على الألام ثوب المدائح

ونلاحظ أنه صور نفسه سقيماً جريحاً مريض الجناح، ويبد مجير الدولة بروه
وردد القوة إليه ، وأنه يتمنى أن يلحقه بعمل عنده ليلو كفايته التي لا مثيل لها،
وهو إذ يقدم كتابيه في النحو وهما شرح أبيات كتاب سيبويه والأنموذج^(١)
شاهدين على علمه يشرب إلى نظرة من المدوح راعية ، أو إلى لمحمة حانية .
وله في مدحه قصيدة أخرى^(٢).

ومدح في خراسان مؤيد الملك عبّيد الله بن نظام الملك ، وكان رئيس
ديوان الإنشاء أيام السلطان أبي الفتح ملكشاه ، وكان بليفاً في الشعر والنثر ،
ومتفوقاً على إخوته ، وردد في مدحه أمله في منصب كبير يلائم كفاءته كقوله^(٣) :

إليك عبّيد الله أنهى شكايي نكابة دهر ينتحي بصياله
بحقك فازجره ومُرّه لينتهي فأمرك أمضي من مواضي نباله

(١) سأعرض لها في مؤلفاته .

(٢) إنباه الرواة ٢٦٧/٣ .

(٣) ديوان الرخمري ٩٧ .

فأنت الذى الديوان طوع لحكمه وذلك طوق فى رقاب رجاله
وأنت الذى إن قال شيئاً يريد فافهم من يثنى عن مقال
وكرر مدائح له^(١).

ولكنه لم يجد فى خراسان مبتغاه ، ولم تكن حاله بها خيراً من حاله فى
خوارزم ، فسم البقاء ، وارتحل إلى أصفهان عاصمة السلاجقة ، وكان ملكها
محمد بن أبى الفتح ملكشاه مشهوراً بالعدل وحسن السيرة والشجاعة ، وهو الذى
قضى على الباطنية ، وملك حصونهم ، وخرّب ديارهم ، ومحا آثارهم^(٢) ، وهناك
مدحه الزمخشري بالعدل والسؤدد ونصرة الحق وحماية الإسلام فى قوله^(٣) :

محمد بن أبى الفتح الذى تركت أوصافه لُكنةً فى كل منطق
ابن السلاطين من أبناء سلجوق وابن الفطاري من الفرائق^(٤)
لله من عادل من حق سيرته ونصيره الحق أن يذق بفاروق
مستوجب من جوع الشرك متبغضة محبب فى بنى الإسلام مرموق
ومرت سنوات بعد حكم أبى الفتح ملكشاه (٤٦٥ - ٤٨٥ هـ) وإذا
بالزمخشري يمدح السابع من ملوك السلاجقة ، وهو معز الدين سنجر (٥١١ - ٥٢٢ هـ)
بقصيدة^(٥) تبدو ضعولة عواطفها ، واعتمادها على محاكاة القدماء فى معانيهم ،
والجنوح فيها إلى المبالغة :

سماء كل الناس كعبة سؤدد أهل الحوائج منهم حجاجها

(١) الديوان ٢٢ ، ٣٥ ، ٨٩ ، ١٠٦ .

(٢) الكامل لابن الأثير ١٨٥/١٠ .

(٣) ديوان الزمخشري ٨٦ .

(٤) الظاريف : جمع غطريف وهو السيد . الفرائيق : جمع غرينق أو غرنوق وهو

الصاب الأبيض الجليل .

(٥) الديوان : ٢٠ .

وكانما السلطان سنجر كعبة
ركب السياسة وهي أصعب مركب
ألفته دونهم قفا إجماعها
لو أنه ركب العجوة لما نبت
جهم الحيا للبداء طلق إذا
يجرى إليهم سببه بأناس
إلى أن يقول :

تبني الحقيقة في أمورك كلها
لو أن عدلك شئت بماها
إن الحقيقة واضح منهاها
لا تدك كالمذب للفرات أجابها

على أنه اتصل بخوارزم شاه محمد بن نويشكين (٤٩٠ - ٥٢١ هـ)
ومدحه ، وأشار في كتابه (مقدمة الأدب) برعاية ابنه أنسز (٥٢١ - ٥٥٥ هـ)
للعلماء والأدباء ، لأنه أمر بنسخ هذا الكتاب لخزائنه .

ثم رجع إلى نفسه في مرضه التي مرضها سنة ٥١٢ هـ ووصفها بأنها ناهكة^(٢)
ومنفرة ، فمأه الله إن من عليه بالصحة ألا يطأ عتبة سلطان ، ولا متصل بخدمة
سلطان ، وأن يربأ بنفسه ولسانه عن مديحهم ، وأن ينف عن التطلم إلى
عطياتهم والأمل في مناصبهم ، وأن يكف على التأليف والتدريس^(٣) .

فلما شفاه الله شخص إلى بغداد ، وناظر بها وسمع من علمائها^(٤) الذين
سيجيء ذكرهم .

(١) لقب الوزير .

(٢) الناهكة : الشديدة .

(٣) مقامات الزمخصري .

(٤) تاريخ أبي الفدا ١٦/٣

وما لبث أن أحسَّ بسمو نفسه ، وبتخلصها من أوهاق المطامع ، فأنجبه إلى مكة مشوقاً راجياً الصفح من ربه عما فرط منه ، معتزماً أن يقيم بها متردداً على بيت الله ، إلى أن يحم القضاء ، فناجى نفسه في الطريق بقوله ^(١) :

يا من يسافر في البلاد منقِباً إلى إلى البلد الحرام مسافراً
إن هاجر الإنسان عن أوطانه فالله أولى من إليه يهاجر
وتجارة الأبرار تلك ومن يبع بالدين ديناه فنعم التاجر
خرَّبْتُ هذا العمر غَيْرَ بقية فلعلنى لك يا بقية عامر
في طاعة الجبار أبذل طاقتي فلعلنى فيها لكسرى جابر
سأروح بين وفود مكة وافداً حتى إذا صدروا فما أنا صادر
بِفناء بيت الله أضرب قُبَّتِي حتى يُجَلَّ بى الضريح القابرُ
ألقى العصا بين الحطيم وزمزم لا يطيبينى إخوة وعشائر
ضيفاً لمولى لا يُجَلُّ بضيفه وببذل أقصى ماتمنى الزائر
حسبى جوار الله حسبي وحده عن كل مفخرة يعدُّ الفاجر
ساقم ثمَّ وئمَّ تُدفنُ أعظمى ولسوف يبعثنى هناك الحاشر

وهناك في مكة كان الأمير أبو الحسن علي بن حمزة بن وهَّاس الشريف الحسنى ، وكان ذا فضل غزير ، وله تصانيف مفيدة ، وقرينة في النظم والنثر مجيدة ^(٢) . فرحب بالزنجشري ، وعرف قدره ، ورفع شأنه ، وأقبل على الاستفادة منه ، كما استفاد منه الزنجشري ^(٣) .

(١) ديوان الزنجشري ٤٢ .

(٢) معجم الأدباء ٨٥/١٤ .

(٣) إنباء الرواة ٣/٢٨٦ ، ومعجم الأدباء ٨٥/١٤ .

ولقد اطمانت نفس الزمخشري إلى الإقامة في مكة ، وإلى التردد المستمر على بيت الله الحرام ، وإلى تكريم الأمير ابن وهّاس ، فمدح الأمير^(١) مدحا ينبىء عن صدق العاطفة والحبة والشكران ، كقوله :

فتى هو حالٍ بالمعالي ^{بأسرها} وقد حَلَيْتُ منه المعالي بأوحدا
نجيبٌ نمته من ذُؤابة ^{هاشم} نَقِيَّباتُ أعراقٍ أطابته مولدا
ولو شاء لم يمتدَّ ^{بهاشم} تحتدَّ هاشم نصاباً كفاه بالنبوة محتدا
وتقرأ من سِيماه في قسَماته شهادة حق أنه سِبْطُ أحدا
هو الحرما أصدى إلى بيض معشرى فأبصره إلا نَقَعْتُ به الصدى
ولى منه نُصْحُ الجَنِيبِ والعقْدَةُ التى أبت أن يرى الزاؤون أوثق مَنَقِدا
ولولا ابنُ وهّاسِ وسابقُ فضلِه رَعَيْتُ هَشِيماً واستقيت مُصَرِّدا
وكان ابن وهّاس يمدح الزمخشري ، فن مدحه قوله^(٢) :

وكم للإمام الفرد عندي من يدٍ وهاتيك مما قد أطاب وأكثرا
أخى العزمة البيضاء والهمة التى أنافت بها ، علامة العصر والورى
جميع قرى الدنيا سوى القرية التى تبوأها داراً فداه زمخشرا
وأحرز بأن تزهى زَمْخَشَرُ بامرئ إذا هُدَّ فى أسد الشرى زمخ الشرا^(٣)
فلولاه ما طنَّ للبلادُ بذكرها ولا طار فيها مُنْجِداً ومُؤموراً
فليس ثناها بالعراق وأهلُه بأعرافٍ منه بالحجاز وأشهرا
وفى أيام مقامه بالحجاز زار همدان ، ومدح آل زُرَيْر ، فقال فى إحدى قصائده^(٤) :

(١) ديوان الزمخشري ٢٧ ، ٧٤ ، والنجوم الزاهرة ٢٧٤/٥ .
(٢) معجم البلدان ٤٠٠/٤ ، وإنباه الرواة ١٦٨/٣ ، والقاموس المحيط مادة زمخسر .
(٣) العمرا : ما سدة . زمخ : تكبر . (٤) ديوان الزمخشري ١٢٥ .

كَمْ قُلْتُ فِي خُورَزْمٍ عِنْدَ تَرْحَلِي لِرَكَائِي سِيرِي إِلَى هَمْدَانَا
لَوْلَمْ أَقْلُ سِيرِي إِلَى هَمْدَانَ مَا هَمَدْتُ بِنَا فِي سِيرِهَا هَمْدَانَا^(١)
وَبَنُوزَرِيرٍ مَا تُنَزِّرُ ثِيَابَهُمْ إِلَّا عَلَى الْمُضْنَبَاتِ مِنْ شَهْلَانَا
وَطُوفَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ ، لِأَنَّهُ يَقُولُ : وَطِئْتُ كُلَّ تُرْبَةٍ فِي أَرْضِ الْعَرَبِ ،
فَوَجَدْتُ (تُرْبَةَ) أَطْيَبَ التُّرْبِ ، وَهِيَ وَادٍ عَلَى مَسِيرَةِ أَرْبَعِ لَيَالٍ مِنَ الطَّائِفِ ،
وَرَأَيْتُ نَاسًا مِنْ أَهْلِهَا^(٢) .

وَلَكِنَّهُ بَعْدَ أَنْ أَقَامَ بِمَكَّةَ نَحْوَ سِتِّينَ شَاقَهُ وَطَنُهُ ، فَرَجَلَ إِلَيْهِ ، ثُمَّ لَامَ
نَفْسَهُ أَشَدَّ اللَّوْمِ ، وَبَكَى أَحْرَبَ بَكَاءَ ، وَصَوَّرَ هَذَا فِي عِدَّةِ قِصَائِدٍ مِنْهَا قَوْلُهُ^(٣) :
بَكَاءٌ عَلَى أَيَّامِ مَكَّةَ إِنِّي إِلَيْهَا حَنِينَ النَّيْبِ فَاقْدَةِ الْبَكْرِ
تَذَكَّرْتُ أَيَّامِي بِهَا فَكَأَنِّي قَدْ اخْتَلَفْتُ زُرْقُ الْأُسْنَةِ فِي صَدْرِي
أَيَّتْ عَلَى الصَّخْرِ الْمُبَارَكِ بِأَكْيَا كَأَنَّتِ الْخُنُوءُ تَبْكِي عَلَى صَخْرٍ
وَقَوْلُهُ^(٤) :

أَلْبَتَّاعُ بِالْفُوزِ الشَّقَاوَةَ خَاسِرًا وَأَسْتَبْدِلُ الدُّنْيَا الدُّنْيَةَ بِالْأُخْرَى ؟
إِذَا خَطَرْتُ بِالْبَالِ ذَكَرِي إِنْ أَخَذْتِي عَلَى حَرَمِ اللَّهِ اسْقَمَزْتَنِي الذِّكْرِي
وَأَدْعُو إِلَى الشَّلْوَانِ قَلْبًا جَوَابَهُ لِدَاعِيهِ مُهْرَاقٍ مِنَ الْقَلَّةِ الْعَبْرِي
وَمَا عُدْرُ مَطْرُوحٍ بِمَكَّةَ رَحْلُهُ عَلَى غَيْرِ بَوْسٍ لَا يَجُوعُ وَلَا يَبْرِي
فَمَا فَرَّ عَنْهَا يَتَقَى بَدَلًا لَهَا وَرَبِّكَ لَا عُدْرًا وَرَبِّكَ لَا عُدْرًا

(١) لَيْسَ فِي أَصْلِ الْبَلَاغَةِ وَلَا فِي الْقَامُوسِ مَعْنَى يَلَامُ وَضَعُ هَمْدَانَ الْبَيْتِ ، لِأَنَّ أَهْمَدَ
بَعْنَى أَقَامَ وَبَعْنَى أَسْبَحَ ، وَالرَّادُ هُنَا الْإِسْرَاعُ ، فَيَكُونُ الصَّوَابُ أَهْمَدًا لَا هَمْدَانًا .
(٢) أَصْلُ الْبَلَاغَةِ مَادَّةُ تَرْبِ .

(٣) الدِّيَوَانُ ٤١

(٤) الدِّيَوَانُ ٤١

فلم يكن بد من العزم على العودة إلى مكة ، فقليل له : قد زَجَّيتَ أَكْثَرَ
عَمْرِكَ هُنَاكَ ، فما الموجب ؟ قال : القلب الذي لا أجده هنا ثم أجده هناك^(١) . ومعنى
هذا أنه لم يكن يجد طمأنينة القلب ، ووصفاء النفس ، ولذّة العبادة إلا في مكة .

ها هو ذا ينطلق إلى مكة ، وفي طريقه إليها يعرج على الشام ، فيمدح تاج
الملوك بورى طفتكين صاحب دمشق ، ولم يكن هذا المدح للزلفى أو لاستدرا
عطاء ، بل كان خالصاً لوجه الله ، لأن بورى كان معروفاً بكرامته للباطنية ،
حتى إنه قتل منهم ستة آلاف ، وكان قد حمى المسلمين من الصليبيين ، إذ جمع
العرب والتركمان لصدم عن دمشق وهزمهم سنة ٥٢٣ هـ^(٢) . (١١٢٨ م) .

والراجح أنه أقام بالشام مدة ، لأنه مدح شمس الملك الذي خلف أباه سنة
٥٢٦ هـ^(٣) .

وفي السنة نفسها سلك الطريق إلى مكة فبلغها ، وقضى بها ثلاث سنوات ،
لحق فيها من ابن وهّاس ما كان يلقيه من قبل من حفاوة وتظيم ، وكان ابن
وهّاس يوافقه في مذهبه ، فشجعه على تأليف تفسيره الكشف^(٤) ، فعقّب له أن
يمدح ابن وهّاس بقوله^(٥) :

بِمَكَّةَ آخَيْتُ الشَّرِيفَ وَفَتِيَّةً تُوَالِيهِ مِنْ آلِ النَّبِيِّ غَطَارِقاً^(٦)
يَتَابِعُ إِنْ نُوطِرْتُ رَدَّءاً لَشَاغِبٍ وَيَنْهَضُ إِنْ ذُكِرْتُ رَدَّءاً مَكَاتِفَا
مَتَى أَقْبَلَ الْعَلَامَةَ اتَّفَقُوا لَهُ وَحَيَّوْهُ ، حَيَّا اللَّهُ تِلْكَ الْمَعَارِفَا

(١) إنباه الرواه ٢٦٦/٣ .

(٢) الكامل لابن الأثير ٢٣٤/٩٠ ، ٢٤٣ .

(٣) ديوان الزمخمرى ٧٩ .

(٤) مقدمة الكشف وديوان الزمخمرى ٧٤، ٧٧ .

(٥) ديوان الزمخمرى ٧٩ .

(٦) غطارف : جمع غطريف وهو السيد الشريف .

وكان ابن وهّاس لجنبي فارساً كما تفعل الأم الحفية لاحفاً
وتمّ لي الكشف ثمّ بيّلة بها هبط التنزيل للحق كاشفاً
على باب أجساد بني لي منزلاً كركن شامٍ بالصفا متواصفاً^(١)
وأشفق في إتمامه من تلاده ثقيات وزر في البلاد خفاثا
ولم يكن غريباً أن يقول في قصيدة أخرى^(٢) :

زارت وراء دين الحق زاراً وقد نبعت كلاب الفربي
ومن يفضب لدين الله يجمع مرضيه إلى الأجر الثني
وليس الجبر والتشبيه إلا بقية إرث دين جاهلي
فقم بالعدل والتوحيد فيه تقيم يابن النبي هدى النبي
وحيث يدو أنه الطمان وهذا ، وصور فرحته في قوله^(٣) :

أنا الجار جار الله ، مكة مركزى ومضرب أوتادى وممعد أطنابى
وما كان إلا زورة نهضتى إلى بلاد بها أوطان رهطى وأحابى
فلما قضت نفسى - والله درها - لبانة دار زندها غير خياب
صكرت إلى بطحاء مكة راجعاً كأنى أبو شبلين كركاً إلى النساب
فنّ يلقى في بعض القرىات رحله فأم القرى ملقى رحالى ومنتابى
ومن كان في بعض المحارب راکماً فللكعبة البيت المحرم محرابى

ولكن هذا الرحالة الثقلة اشتاق إلى وطنه ثانية ، فسافر إلى خوارزم ،
وعرج على بغداد سنة ٥٣٣ هـ .

(١) شام : جبل

(٢) ديوان الزمخمرى ١١٦

(٣) الديوان ٥

ثم أقام بخوارزم إلى أن حم القضاء ليلة عرفة سنة ٥٣٨ هـ (١١٤٣ م)
بجرجانية - قصبة خوارزم على شاطئ نهر جيحون -- بعد رجوعه من مكة^(١).
وقد زار ابن بطوطة خوارزم في أوائل القرن الثامن الهجري ، وقال :
« بخارج خوارزم قبر الإمام العلامة أبي القاسم محمود بن عمر الزنجشري ، وعليه
قبة^(٢) » .

(١) وفيات الأعيان ٢٥٩/٤ ، وشذرات الذهب ١٢١/٤ ، وإنباء الرواة ٢٦٨/٣
وهو يسمى جرجانية ، كركاج . ونارخ أبي الفداء ١٦/٣ :
(٢) مذهب رحلة ابن بطوطة ٢٩٨/١ .

الفصل الثاني

أَسَانِيدُهُ

استقى الزمخشري من بنايح كثير من العلماء الذين عاصره ، كما نهل من مؤلفات سابقيه .

ولعل أعظم أساتذته آثاراً في نفسه أبو مضر محمود بن جرير الضبي الأصفهاني المتوفى سنة ٥٠٧ هـ ، كان يلقب بفريد العصر ، ووحيد الدهر في علم اللغة والنحو ، ويضرب به المثل في أنواع الفضائل . وقد درس عليه الزمخشري النحو والأدب .

أقام في خوارزم مدة ، فانتفع الناس بعلومه ومكارم أخلاقه ، وأخذوا عنه علماً كثيراً ، وتخرج عليه جماعة من الأكابر في النحو واللغة ، وهو الذي أدخل على خوارزم مذهب المعتزلة ، ونشره بها ، فاجتمع عليه الخلق لجلالته ، وتمذهبوا بمذهبه ، ومنهم أبو القاسم الزمخشري ^(١) وقد توسم أبو مضر في تلميذه الذكاء والجد والجدارة بأن يخلفه ، فتعهد به علمه ، ورعاه بماله ، يدل على هذا قول الزمخشري لنظام الملك ^(٢) :

إليك نظام الملك شكواي فاستمع إلى بث مخذوذ المعاش ضحكها
ولولم يل الضبي عنى عراقها لنالت يد البلوى أدبي بقر كها
وكان الزمخشري محباً لأستاذه أبي مضر ، وفيأله ، فلما مات سنة ٥٠٧ هـ رثاه بقوله ^(٣) :

(١) معجم الأدباء ٢٢/١٩ وشدرات الذهب ١١٩/٤ ، ووفيات الأعيان ٢٥٤/٤

وبقية الوعاة ٣٨٨ . (٢) الديوان ٩١ . (٣) الديوان ٩٤ .

فقلت لطبي هات كل ذخيرة فمن أجله ما زلت أدخِرُ الذخرا
وأبرز كريمات القسوافي وغرّها فمنه استفدنا العلم والنظم والنثرا
ورثاه بقوله^(١) :

وقائلة ما هذه الدرر التي تساقط من عينيك سَمَطَيْنِ سَمَطَيْنِ
فقلت لها : الدر الذي كان قد حشا أبو مُضَرٍّ أذني تساقط من عيني
وعلق عليهما اليافى بقوله : هذا مثل قول القاضي أبي بكر الأراجاني :

ولم يكنى إلا حديث فراقهم لما أسرته إلى أدمعى
هو ذلك الدر الذي أودعته في مسمعى أجريته من مدمعى
ولا يدري أيهما أخذ من الآخر ، لأنهما كانا متعاصرين^(٢) .

ثم رحل إلى بخارى ليستزيد من مناهل علمائها^(٣) ، وكانت مازال
تابعة للدولة السامانية ، ولها صيت ذائع في العلم ، حتى إن الثعالبي يقول : إنها
كعبة طلاب العلم ، ومطلع نجوم أدباء الأرض^(٤) .

كذلك سمع الحديث من شيخ الإسلام أبي منصور نصر الحارثي ، ومن أبي
سعد الشافعي^(٥) ، ومن أبي الخطاب بن أبي البطر^(٦) .

(١) الديوان ٥٧ ، ووفيات الأعيان ٢٥٨/٤ ، ومعجم الأدباء ١٢٤/١٩ مع بعض
تغيير ، وشذرات الذهب ١٢٠/٤ ، ومرآة الجنان ٢٧٠/٣ ، وإنباء الرواة ٢٦٧/٣ .

(٢) مرآة الجنان ٢٧٠/٣

(٣) وفيات الأعيان ١٠٧/٢ ، ومعجم الأدباء ١٢٧/١٩

(٤) يتيمة الدهر ١٠١/٤

(٥) معجم الأدباء ١٩ / ١٢٧ وبنية الرواة ٣٨٨

لم أعثر على ترجمة للحارثي في كتب الطبقات والتراجم ، وأما الشافعي ففتح العين على
المشهور وبكسرهما على الصحيح فلم أحد فيمن يعرف بهذه النسبة من يكنى بأبياسد أو أبياسيد ،
بل وجدت من المشهورين بالحديث أبا الفضل العباس بن الشيخ أبي العباس أحمد بن محمد بن
الشافعي الحسنوي من أهل نيسابور ، كان فقها محدثاً أنفق عمره في الكتابة ، وسمع الحديث ،
وحجة الأكاير ، ولزوم المجالس ، والطواف على المشايخ ، وإفادة الصبيان والشان ، وكان أبوه
من أفذاذ أئمة الأصول . توفي أبو الفضل سنة ٥٠٦ هـ (الأنساب للشماعاني ورقة ٣٣٦)

(٦) طبقات المفسرين ٤١ : لم أعثر له على ترجمة في كتب التراجم والطبقات

(م ٤ - الزمخشري)

وقد أخذ الأدب عن أبي علي الحسن بن المظفر النيسابوري^(١)

ونجد في تاريخه أنه اجتمع في بغداد بالفقيه الحنفى الدامغانى^(٢) وبالشرىف ابن الشجرى^(٣) . وقال القفطى^(٤) إن الزمخشرى قدم علينا ببغداد سنة ٥٣٣هـ ، ورأيت مرتين عند شيخنا أبى منصور بن الجوالقى^(٥) قارئاً عليه بعض كتب اللغة من فوائدها ومستجيزاً لها .

كذلك نجد في تاريخه أنه قرأ في مكة كتاب سيبويه على عبد الله بن طلحة اليبارى^(٦) . فإذا صحت رواية القفطى أن الزمخشرى قرأ على الجوالقى بعض

(١) معجم الأدباء ١٩/١٢٧ . وكان الأصل (عن أبى الحسن على بن المظفر) ولكن صوته من المعجم نفسه ٩/١٩١ . والحسن هذا كاتب شاعر مؤلف . كان في عصره مؤدب أهل خوارزم ومخرجهم وشاعرهم ومقدمهم ، وهو شيخ الزمخشرى قبل أبى مضر ، وله مؤلفات منها : تهذيب ديوان الأدب ، وتهذيب إصلاح النطق ، ومحاسن من اسمه الحسن (وهذا يؤكد أن اسمه الحسن) وزيادات أخبار خوارزم ، وديوان شعر ، وديوان رسائل (معجم الأدباء ٩/١٩٠)
(٢) وفيات الأعيان ٢/٢٥٥ . الدامغانى بفتح الميم بلد من بلاد قومس ، من علمائها في الحديث قاضى القضاة أبو عبد الله محمد بن على الدامغانى ، ولى قضاء بغداد مدة ، وكان إليه القضاء والرياسة والتقدم ، وكان فقيهاً فاضلاً ، تولى ببغداد سنة ٤٩٨هـ (الأنساب ورقة ٢١٩) وكان حنفى المذهب ، وقد ناظر الشيرازى [طبقات الشافعية ٣/١٠٠] .

(٣) نزهة الألبا ٤٧٠ . ابن الشجرى هو هبة الله بن على أبو السعادات ينتهى نسبه إلى على ابن أبى طالب ، كان فرد زمانه في العلوم العربية ، وعلم النحو سبعين سنة ، تولى سنة ٥٤٢هـ ، وله من المؤلفات : الأمل ، والانتصار على ابن الحشاش ، والحماسة ضامى به حماسة بن تمام ، وشرح البص لابن جنى ، وكتاب ما اتفق لفظه واختلف معناه ، وشرح التصريف للوكى ، وغيره [معجم الأدباء ١٩/٢٨٢] .

(٤) إنباء الرواة ٣/٢٧٠ .

(٥) هو موهوب بن أبى طاهر أحد الجوالقى ، كان إماماً في فنون الأدب ، وهو من مفاخر بغداد ، درس الأدب في المدرسة النظامية بعد الخطيب التبريزى ، وكان في اللغة أشل منه في النحو ، وكان متواضعا من أهل السنة ، وله حسن التصانيف المفيدة التى انتشرت عنه ، مثل شرح أدب الكاتب ، والعرب من الكلام الأنجمى ، والشككة فيما يلحن فيه العامة ، أكل به درة الفواص للحريرى ، وله سنة ٤٤٦هـ وتولى ببغداد سنة ٥٣٩هـ (وفيات الأعيان ٤/٤٢٤) ومعجم الأدباء ١٩/٢٠٥ ونبذة الوعاة ٤٠١) .

(٦) نبذة الوعاة ٢٨٤ وطبقات المفسرين ٣١ . هو نحوى أصولى فقيه تولى سنة ٥١٨هـ [نبذة الوعاة ٢٨٤] .

كتب اللغة سنة ٥٣٣ هـ ليستجيزه كانت دليلاً على أنه وهو في السادسة والستين من عمره ، وقبل أن يودع الحياة بخمس سنوات ، لم يأنف أن يجلس جلسة الطالب المستزيد ، مع أنه بعد مرضه سنة ٥١٢ هـ زار بغداد وناظر بها^(١) ، وألف كثيراً من كتبه .

الفصل الثالث تلاميذه

كان الزمخشري صاديا إلى الثقافة يتردد على مناهلها ، ويرتوى من رجالها ، ثم كان له تلاميذ عطاش إلى منهل ، يسرعون إليه في كل بلد حله ، فيستقون منه ، ويجرون ما استقوه جداول تنقع غلة الناس .

يذكر القفطي^(١) أنه دخل خراسان ، وورد العراق ، وما دخل بلدا إلا اجتمع الناس عليه ، وتلمذوا له ، واستفادوا منه . ويقول إنه أقام بخوارزم تضرب إليه أكباد الإبل ، وتحط بفنائه رجال الرجال ، وتحمد باسمه مطايا الآمال . ويذكر ياقوت أنه قدم بغداد ، في طريقه إلى الحج فاجتمع الناس حوله لیسمعوا منه^(٢) .

وهؤلاء التلاميذ كثير ، منهم زمخشري أبو عمرو عامر بن الحسن السمار ، وبطبرستان أبو المحاسن إسماعيل بن عبد الله الطويل ، وبأبيورد أبو المحاسن عبد الرحيم بن عبد الله البزاز ، وبسمرقند أبو سعد أحمد بن محمود الشاذلي ، وغيرهم^(٣) . ومنهم بخوارزم أبو طاهر سامان بن عبد الملك الفقيه ، وال موفق بن أحمد بن أبي سعيد المعروف بأخطب خوارزم ، كان متسكنا في العربية غزير العلم فقيها أدبيا شاعرا^(٤) ، ومنهم علي بن محمد القمرائي الخوارزمي ،

(١) إنباء الرواة ٢٦٦/٣

(٢) معجم الأدباء ١٢٨/١٩

(٣) الأنساب للسماعي ٢٧٨

(٤) بنية الرواة ٤٠١ والأنساب ٢٧٨

أبو الحسن الأديب ، الملقب بحجة الأفاضل ونفخ المشايخ ، التوفى حوالى سنة ٥٦٦ هـ ، قرأ الأدب على الزمخشري فصار أكبر أصحابه وأوفرهم حظا من غرائب آدابه ، وجعل أيامه فى آخر عمره مقصورة على نشر العلم ، وفزع الناس إليه فى حل المشكلات وشرح المضلات ، وكان مولعا بالسماع كتبها ، وهو مع علمه الغزير وفضله الكثير علم فى الدين والصلاح ، وكان يذهب مذهب المعتزلة ، وله تصانيف حسان منها : كتاب المواضع والبلدان ، وكتاب تفسير القرآن ، وكتاب اشتقاق الأسماء ^(١) .

وتَلَمَّذَ له محمد بن أبى القاسم بايجوك ، أبو الفضل يقالى الخوارزمى الآدمى الملقب زين المشايخ (٥٦٢ هـ) النحوى الأديب ، كان إماما فى الأدب ، وحجة فى لسان العرب ، أخذ اللغة وعلم الإعراب عن أبى القاسم الزمخشري ، وجلس بعده مكانه ، والحديث منه ومن غيره ، وله من التصانيف : مفتاح التنزيل ، وتقويم اللسان فى نحو ، والإعجاب فى الإعراب ، والبداية فى المعانى والبيان ، وكتاب منازل العرب ، وشرح أسماء الله الحسنى ، وغير ذلك ^(٢) .

وتَلَمَّذَ له أبو يوسف يعقوب بن على بن محمد بن جعفر البلخى ، أحد الأئمة فى النحو والأدب ، أخذ عنه ولزمه ^(٣) .

ومن تلاميذه على بن عيسى بن حمزة بن وهّاس ، من ولد سليمان بن حسن ابن على بن أبى طالب ، كان شريفا جليلا هماما من أهل مكة وشرقاها وأمرائها ، وكان ذا فضل غزير ، وله تصانيف مفيدة ، وقرينة فى النظم والنثر مجيدة ، قرأ على الزمخشري بمكة ، وبرّز عليه ، وصُرِفَت أَعْنَةُ طلب العلم إليه ،

(١) معجم الأدباء ١٥ / ٦١ وبضية الوعاة ٢٥٠

(٢) معجم الأدباء ١٩ / ٥

(٣) معجم الأدباء ٢٠ / ٥٥

(توفى سنة نيف وخمسين وخمسة) ^(١) وهو الذى مدحه بأبيات منها :

وكم للامام الفرد عندى من يد وهاتيك بما قد اطلب وأكثرا ^(٢)

ومنهم زينب بنت الشعرى التى أجازت ابن خلكان ^(٣) .

ومن استجازوه محمد بن عبد الملك البلخى الذى ينهى نسبه إلى عمر بن الخطاب المعروف برشيد الدين الوطواط، كان أبرع معاصريه فى النظم والنثر، وكان ينشئ فى وقت واحد بيتا بالعربية من بحر وبيتا بالفارسية من بحر آخر، ويعلمهما معا، وكان شاعر البلاط وكتب الإنشاء فى عهد السلطان الخوارزمى أنسز وفى عهد إيل أرسلان وابنه علاء الدين تكش، وله مصنفات منها حداثق السحر فى دقائق الشعر ^(٤) .

وحينما كان بمكة مجاورا كتب إليه الحافظ أبو الطاهر أحمد بن محمد السلفى من الإسكندرية يستجيزه فى مسموعاته ومصنفاته ، فرد عليه بما لا يشفى القليل ، فلما كان العام الثانى كتب إليه رسالة أخرى مع الحجاج يستجيزه ، قال فى آخرها : « ولا يحوج — أدام الله توفيقه — إلى المراجعة ، فالمسافة بعيدة ، وقد كاتبته فى السنة الماضية ، فلم يجب بما يشفى القليل ، وله فى ذلك الأجر الجزيل » . فرد عليه الزمخشري فى تواضع وتهرب من الإجازة ، وقد ذكر ابن خلكان أكثر رسالة الزمخشري ، وعقب عليها بقوله : ما أعلم هل أجازته ، بعد ذلك أو لا ^(٥) ؟ .

وليس من شك فى أن تلاميذ كتبه كانوا كثرة ، وأن قراء مؤلفاته كانوا يقدرون علمه ، لأنه كان فى عصره كما قال القفطى علامة الأدب ، ونسابة

(١) معجم الأدباء ٨٥/١٤ ، وإنباه الرواة ٣/٢٦٨

(٢) معجم الأدباء ٤/٤٠٠

(٣) وفيات الأعيان ٢٥٧/٤

(٤) معجم الأدباء ١٠٣/١ ، ٢٩/١٩

(٥) وفيات الأعيان ٢٥٦/٤ ، وشذرات الذهب ١٢٠/٤ ، ونبية الوعاة ٣٨٨ ،

ومعجم الأدباء ١٣٢/١٩

العرب ، وكان أعلم فضلاء المعجم بالعربية في زمانه ، وأكثروا أنسا واطلاعا على كتبها ، وبه ختم فضلاؤهم^(١) . من هؤلاء الأمير شبل الدولة أبو الهيجاء مقبل بن عطية البكري ، ختن نظام الملك ، فقد أرسل إليه هذه الأبيات :

هذا أديب فاضل مثل الدرلوى دُرَّة
زغخشرى فاضل * أنجبه زغخشره
كالبحر إن لم أره فقد أتاني خبره
فرد عليه الزغخشرى بقوله :

شعره أمطر شغبي طرفاً فاعتلى منه نبات الجسد
كيف لا يستأسد النبات إذا بات مستقياً بنوء الأسد^(٢)
ومنهم منتجب الملك أبو جعفر محمد أحد كبراء دولة السلطان السلجوقي سنجر ، فقد بعث إليه رسالة وقصيدة وهو في مكة ، من قصيدته قوله^(٣) :

إليك يهزني الحب المطاعُ ويسكرني لرؤيتك النزاعُ
فهل لك يا شقيق النفس علم بما أنباتُ عنه واطلاع
وأنت لكل منقبةٍ معانٍ ومن دَرِّ العلوم لك ارتضاع
ولما كنتَ جار الله صارت تسير بك الأماكن والبِقاع
نضى بملك الدنيا فيضحي له في كل ناحية شعاع

(١) إنباه الرواة ٣/٢٦٦ ، ٢٧٠ .

(٢) إنباه الرواة ٣/٢٧١ .

(٣) إنباه الرواة ٣/٢٧٢ .

الفصل الرابع

مؤلفاته

نشأ في خوارزم ، وهي إقليم إسلامي كان جيرانه يتطلعون إلى امتلاكه ، ويودون أن يبدل أهله دينهم ، فهو يقول : « إن خوارزم تفر من ثغور الإسلام ، قد اكتنفه أهل الشرك ، وأطافت به قبائل الترك ، ففزو أهله معهم دائم ، والقتال بينهم قائم ، قد أخلصوا في ذلك نياتهم ، وأحصوا عن طوياتهم ، وقد تكفل الله بنصرهم في عامة الأوقات ، ومنحهم الغلبة في كافة الوقعات ، ثم حصنه الله بيجون ، بواد عسير المعبر ، بعيد المسالك ، غزير الماء ، كبير المهالك ، فلا يتوغل متوغل إلا خاطر بمهجته ، ولا سلك منافذه سالك إلا كان على يأس من سلامته »^(١) .

وقد كان لهذا أثر عميق في حماسة السكان وحماسة الزمخشري للإسلام ، فهم يغارون على دينهم أن يمسه أذى أو عدوان ، وهم أبقاوا للدفاع عنه ، ولهذا جرد الزمخشري قلمه للتأليف في ميدان اللغة العربية والشريعة الإسلامية .

وكانت النهضة العلمية والأدبية التي بلغت أوجها في القرن الرابع ما تزال قوية الدفع ، بعيدة الآثار ، وكانت الدول التي انفصلت من الحكم العربي كالدولة السامانية والدولة السلجوقية والدولة الخوارزمية تجد في الازدهار

العلمى والأدبى حياة لها وقوة وشهرة بحسن الأحدثوة بين الناس ، فقربت إليها العلماء ، وشجعت على التأليف والتعليم كما سبق فى تصوير الحياة الثقافية .

وكان الزمخشري منذ صباه مشغولاً بالدرس والبحث ، وقد امتزج بالعلوم العربية والإسلامية امتزاجاً شغل قلبه ، وامتلك نفسه وكان أعزب لاتصرفه عن التأليف شواغل الآباء بالأسرة والأبناء .

لهذا كله فرغ للعلم ، فانهمرت عليه سحائب العلم ، ومنح الثقافة جهده ، فجادت عليه الثقافة بأوفر نصيب ، وحبس على التأليف نشاطه فكثر مؤلفاته وتنوعت ، وخلد كثير منها إلى اليوم .

ويتضح من كلامه أنه كان يختص مؤلفاته بإعرازه وجهه ، حتى لقد اتخذ منها أبناء البررة ، واستعاض بها عن النسل ، وفضلها على البنين والبنات ، لأنها مبرأة من العقوق والمشاكسة ، فقال^(١) :

بني فاعلم بنات فكري	حصانهم أمة الدراسة ^(٢)
أبناء صدق لم نفوس	وصفن بالفضل والنفاة
محمدة عرضي محصنوه	في كنف الصون والحراسه
بر صريح بلا عقوق	خلق صحيح بلا شكاسه
مانسل قلبي كنسل صلبى	من قاس رد له قياسه
كم بين ذى مسلك طهور	وسالك مسلك الخساسه
من ساس أبناء فإنا	لهؤلاء البنين ساسه

(١) ديوان الزمخشري ٢٦ .

(٢) يريد أن أهمم الفيفة هي الدراسة .

وقد ذكر مؤلفاته أكثر الذين ترجموا له^(١)، وسأذكرها مسلوكة في مجموعات، متناسقة ثم أعرض لها بالتحليل فيما بعد :

(١)

في العلوم الدينية ورجالها

١ — الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل .
طبع أول مرة بالمطبعة البهية المصرية بالقاهرة سنة ١٣٤٣ هـ في مجلدين ،
وبهامشه كتاب (الاتصاف من الكشف) لناصر الدين أحمد
ابن محمد بن منصور الإسكندري المالكي المشهور بابن المنير، ثم طبع بعد ذلك .

٢ — رموز المسائل (في الفقه) غير معروف .

٣ — معجم الحدود (في الفقه) غير معروف .

٤ — المنهاج (في الأصول) غير معروف .

٥ — ضالة الناشد والرائض في علم الفرائض . غير معروف .

٦ — مختصر الموافقة بين أهل البيت والصحابة . (الأصل لأبي سعيد
الرازي إسماعيل . غير معروف) .

٧ — شقائق النعمان في حقائق النعمان (في مناقب أبي حنيفة) . غير
معروف .

٨ — شافي المي (أو المي) من كلام الشافعي . غير معروف .

(١) وفيات الأعيان ٢٥٤/٤ ، ومعجم الأدباء ١٣٤/١٩ ، وغذرات الذهب ١١٩/٤
ونبذة الوعاة ٣٨٨ ، وإنباء الرواة ٢٦٦/٣ ، ولسان الميزان ٤/٦ . وتاريخ آداب اللغة العربية
لجرجي زيدان ٤٨٣ .

٩ — رسالة في حكمة الشهادة ، وأخرى في نص العشرة ، ذكرهما جرجى زيدان ، وقال إنهما مخطوطان في برلين .

(٢)

في اللغة

١٠ — أساس البلاغة .

طبع في مجلدين بمطبعة دار الكتب بالقاهرة سنة ١٣٤١ هـ - ١٩٢٢ م .

١١ — الفائق في غريب الحديث .

طبع في حيدر آباد في مجلدين سنة ١٣١٤ ، وطبع في ثلاثة مجلدات بمطبعة عيسى البابي الحلبي بالقاهرة ، بتحقيق الأستاذين على البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم من سنة ١٣٦٤ هـ - ١٣٦٧ هـ (١٩٤٥ - ١٩٤٨ م) .

١٢ — الجبال والأمكنة والمياه .

طبع في ليدن سنة ١٨٨٥ م في مجلد واحد عدد صفحاته ١٦٩ . مضافاً إليها فهرس في ٣٢ صفحة وترجمة إلى اللاتينية في ٣٢ صفحة .

١٣ — أعجب العجب في شرح لامية العرب .

طبع الطبعة الأولى بمطبعة الجوائب بالقسطنطينية

وطبع الطبعة الثانية بالقاهرة سنة ١٣٢٤ هـ في ٦٦ صفحة من القطع المتوسط .

١٤ — شرح مقامات الزمخشري .

طبع الطبعة الأولى بالقاهرة سنة ١٣١٢ هـ ، والطبعة الثانية بمطبعة التوفيق

بالقاهرة سنة ١٣٢٥ هـ في ٢٣٨ صفحة من القطع المتوسط .

١٥ — المستقصى في أمثال العرب .

يحتوي على ٣٤٦١ مثلاً ، طبع الطبعة الأولى بمطبعة دائرة المعارف العثمانية

بحيدر آباد الدكن الهند سنة ١٣٨١ هـ ١٩٦٢ م في مجلدين كبيرين .

- ١٦ - جواهر اللغة . غير معروف .
وجاء في أسماء مؤلفاته كتاب الأسماء ، وأرجح أنه جزء من مقدمة الأدب ،
لأن القسم الأول في الأسماء ، والقسم الرابع في تصريف الأسماء .
١٧ - متشابه أسامي الرواة . غير معروف . ولعله المقصود بقول ابن حجر
المسقلاني رأيت له مصنفًا في المشتبه في مجلد واحد ، وفيه فوائد جلية .
١٨ - صميم العربية . غير معروف .
١٩ - معجم عربي فارسي . نشره قز شتاین . ليبرز سنة ١٨٤٣ (١) .

(٣)

٢٠ - الفصل . في النحو .

ترجم إلى الألمانية وطبع سنة ١٨٧٣ ، وطبع في كريستيانا سنة ١٨٧٩ م ،
وطبع مع شرح موفق الدين بعيش بن علي بن بعيش في ليبسيك سنة ١٨٨٢ م ،
وبإدارة الطباعة النيرية بالقاهرة في عشرة أجزاء .

٢١ - الأتمودج .

وهو مقتضب من الفصل ، طبع أول مرة بمطبعة الجوانب بالقسطنطينية
سنة ١٢٩٨ هـ في ٢٣ صفحة ملحقًا بكتاب (نزهة الطرف في علم الصرف)
لأبي الفضل أحمد بن محمد الميداني ، وبعده كتاب (قواعد الإعراب) لجمال الدين
أبي محمد عبد الله بن يوسف بن هشام ، وطبع بمصر سنة ١٢٩٨ هـ .

٢٢ - شرح أبيات كتاب سيبويه .

غير معروف . وليس شرحًا لكتاب سيبويه كما في بعض المراجع ، لأن
الزحمرى نفسه ذكر اسم كتابه كذلك (٢) .

٢٣ - الحاجة بالمسائل النحوية أو الأحاجي النحوية .

(١) تاريخ الأدب في إيران ٤٥٩ .

(٢) ديوان الزحمرى ٢٣ .

مخطوط بدار الكتب تحت رقم ٢٨ ش نحو، ١١٦ مجاميع، وهو في ٢٧ ورقة في مخطوطة الشنقيطى و ٢٥ في المجاميع.

وهذا الكتاب ألفاز ومسائل نحوية يقصد بها المعاياة والأفا كيه .

٢٤ — مقدمة الأدب .

أكثره في النحو ، طبع القسم الأول والثانى منه في مجلد واحد في مدينة ليسيك سنة ١٨٤٣ م وطبع الباقي سنة ١٨٥٠ م ، و بدار الكتب القسم الثانى والثالث والرابع والخامس في مخطوط ٢٧٢ لغة في ٢٢٠ ورقة (٤٤٠ صفحة) وبين سطور القسمين الأول والثانى ترجمة فارسية للكتاب .

٢٥ — نكت الأعراب في غريب الإعراب (في غريب إعراب القرآن)

غير معروف .

٢٦ — الأمالى في النحو . غير معروف .

٢٧ — المفرد والمركب أو والمؤلف . غير معروف .

٢٨ — شرح بعض مشكلات المفصل . غير معروف .

(٤)

في العروض

٢٩ — القسطاس . ذكر جرجى زيدان أنه مخطوط في برلين وليدن .

(٥)

في الأدب

٣٠ — نوايح الكلم .

حكم قصار متواليه ، طبعت الطبعة الأولى بمصر سنة ١٣٣٢ هـ (١٩١٤ م)

في ٥٠ صفحة من القطع الصغير ، وطبعت طبعة أخرى بمصر سنة ١٩٢٧ م

وطبعت في باريس مع ترجمة إلى الفرنسية سنة ١٨٧٦ م بتحقيق س. كاربيير

مينارد ، وطبعت في إستانبول وبيروت .

٣١ — مقامات الزمخشري .

خسون مقامة في النصيح والإرشاد ، موجهة كلها إلى نفسه ، ولكل منها عنوان . وقد شرحها بقلمه ، وطبعت مع شرحه لها [رقم ١٤ في مؤلفاته]

٣٢ — أطواق الذهب .

مئة مقالة في المواعظ والنصائح والحكم ومكارم الأخلاق ، كل منها في بضعة أسطر ، وليست معنونة . ترجم إلى الألمانية ، وطبع مع الأصل في فينا سنة ١٨٣٥م وفي سنتجارت سنة ١٨٦٣ م ، وترجم إلى الفرنسية وطبع في باريس سنة ١٨٧٦ م ، وطبع بشرح الشيخ يوسف أفندي الأسير ، الطبعة الثالثة ببيروت سنة ١٣١٤ هـ في ١١٢ صفحة من القطع المتوسط ، وطبع بشرح الميرزا يوسف خان بن اعتصام الملك بعنوان (قلائد الأدب في شرح أطواق الذهب) بمطبعة التمدن بمصر في ١٥٤ صفحة من القطع المتوسط سنة ١٣٢١ هـ

٣٣ — ديوان الزمخشري .

مخطوط بدار الكتب رقم ٥٢٩ أدب في ١١٩ ورقة (٢٣٨ صفحة) من القطع الكبير .

٣٤ — القصيدة البعوضية وأخرى في مسائل الغزالي . مخطوط في برلين .

٣٥ — ربيع الأبرار ونصوص الأخيار .

مختارات شتى من الأدب والتاريخ والعلوم ، مخطوط بدار الكتب رقم ١٥٥ أدب في ٤٠٢ ورقة (٨٠٤ صفحة) ، وله مختصرات كثيرة ، وطبع بالقاهرة .

٣٦ — النصائح الصغار والبوالغ الكبار .

ذكر بعض مؤرخى الزمخشري أن له كتابين أحدهما النصائح الكبار، وقال جرجى زيدان إنه مطبوع بالقاهرة، والآخر النصائح الصغار، وقال جرجى زيدان إنه مخطوط فى برلين وفى المتحف البريطانى .

ولكنى وجدت الكتاب بهذا الاسم (النصائح الصغار والبوالغ الكبار) مخطوطاً بدار الكتب بالقاهرة برقم ٢٣٤٧٨ ز مع نوابغ الكلم ، فى ١٦ ورقة ، وفى نهاية الكتاب فصل به مئة حكمة للإمام على بن أبى طالب .

٣٧ — نزهة المستأنس . مخطوط فى أيا صوفيا .

٣٨ — ديوان الرسائل . غير معروف

٣٩ — ديوان خطب . غير معروف

٤٠ — ديوان التمثيل . غير معروف

٤١ — تسليية الضريير . غير معروف

٤٢ — رسالة الأسرار . غير معروف

٤٣ — الرسالة الناصحة . غير معروف

٤٤ — سوائر الأمثال . غير معروف

٤٥ — رسالة المسأمة غير معروف

(٦)

٤٦ — عقل الكل . غير معروف

٤٧ — كتاب الأجناس . غير معروف

وربما كان الكتابان الأخيران فى المنطق .

معالم شخصية

تطلق الشخصية على مجموعة الصفات الجنسية والعقلية والخلقية التي يتصف بها الإنسان ، سواء أ كانت حسنة أم قبيحة .

وكثيرا ما يتميز إنسان من غيره بالطابع العام لهذه الصفات .

وهذه الشخصية لها مصدران : الفطرة ، والتربية ، فهي إذن موهوبة ومكتسبة ، ولكن الفطرة أقوى .

وليس معنى هذا أن نفرض من أثر التربية ، لأننا لو اعتمدنا على الهبات الفطرية وحدها لصرنا ضحايا الظروف ، ولفقدت التربية آثارها في بناء العظماء من رجال العلم والأدب والدين والفن .

ولهذه الشخصية عناصر أساسية تقوم عليها : منها الذكاء ، والجاذبية ، والمشاركة الوجدانية ، والشجاعة ، والحكمة ، والتفاؤل ، والتواضع ، وقوة البيان ، والثقة بالنفس والاعتماد عليها ، واعتدال المزاج ، والمظهر العام للجسم وحسن الهندام (١) .

فهل نستطيع تصوير الرجل على حقيقته ، ونكشف عن معالم شخصيته ، فيقبن منها الحمود وغير الحمود ؟ لأنه إنسان تغلب قوته ضعفه آنا ، ويغلب ضعفه قوته آنا آخر ، ولأنه من الخطأ أن يتكلف مؤرخ لشخص أن يضيق

(١) راجع في علم النفس ٣ / ٣٧٠ .

عليه حالة من الجلال والكمال ، فإذا اعترضه عيب تفاضى عنه ، أو تلس له دفاعا قائما على العمل ومحافة الحق ، فإن هذا نهج متعيز ينكره البحث العلمى النصف .

فلنتقل الآن إلى إبراز العالم العامة التى نعرفها من شخصية الزمخشري .

(١)

صفاته الجسدية

لم أجد فيما كتب عنه شيئا يمت إلى صفاته الجسدية من قرب ولا من بعد ، لأن كتاب التراجم القدماء كانوا كثيرا ما يتجاوزون هذه الأوصاف ، إذ كانت فى نظرهم غير وثيقة الصلة بالشخصية التى يترجون لها .

والشئ الوحيد الذى عرض له كثير من مؤرخيه أنه كان أعرج يمشى فى رجل من خشب ، لأن رجله قطعت فى سفرة من أسفاره كما سيجى . ولعله قصد نفسه بقوله « كم رأيت من أعرج ، فى درج المعالى أعرج ، ومن صحيح القدم ، ليس له فى الخير قدم »^(١) .

(٢)

شغفه بالثقافة

كان الزمخشري ذكيا ومشغوبا بالثقافة ، تبشر تخيله بمستقبل واعد ، حتى لقد أعجب أستاذه أبو مضر بذكائه وجده ، فتعهد برعايته وتوجيهه ، وساعده بماله مؤملا أن يخلفه .

وكانت بيئته الخاصة والعامة مذكية لهذا الشغف ، فدرس فى زمخشري أول مدارس ، ثم شمس إلى بخارى لينهل من مناهلها ، ثم زار بغداد والشام ومكة ،

(١) نوابغ الكلم ١٤ أعرج الثانية : أرق وأمسد .

وسمع من بعض العلماء ؛ وقرأ كثيرا من الكتب ، وبلغ من كلفه بالثقافة أنه وهو في السادسة والستين - كما ذكر القفطي ^(١) - قرأ بعض كتب اللغة على أبي منصور الجواليقي مستجيزاً لها .

ومن السهل أن نعرف من أسماء أساتذته ومن مؤلفاته أنه درس اللغة ، والنحو ، والمروء ، والأدب ، والبلاغة ، والتفسير ، والقراءات ، والحديث ، والفقه ، وعلم الكلام ، والنطق ، دراسة المتذوق للتعق ، ولهذا اعتز بدراساته ومؤلفاته ، وافتخر بها في قوله ^(٢) :

تراني في علم النزل عالماً	وما أنا في علم الأحاديث راسفاً
فالشئنة البيضاء في مناجح	ويبغي كتاب الله مني المعارفاً
وما أنا من علم الديانات عاطلاً	فأحسن حلي لم يزل لي شاففاً
وما للغات العرب مثلي مقوم	أبى كل نذب متقن أن يخالفنا
وبى يستفيد النحو من أن يسوسه	كهي لم يجدها الذائقون حصافاً
وعلم المعاني والبيان كلاهما	أزف إلى الخطاب منه وصايفاً
وعلم القوافي والأعاريض شاهد	بفسحة خطوى فيه إذ كنت زاحفاً
أقرت بي الآداب أصلاً لها ومن	رأى مشرفيات جعدن المشارفاً
وديوان منظومي يربك بدائماً	وديوان منشوري يربك طرائفاً

ويظهر من مؤلفاته أنه لم يستوعب أكثر ثقافة عصره فحسب ، بل سام في حقولها بشجرات شبيهات الثمرات ، وقد سبقت هذه المؤلفات التي نستطيع منها تقسيم ثقافته إلى عدة مناج : فإحاطة دينية تتمثل في تفسيره (الكشاف) بما

(١) إنباء الرواة ٣/٢٧٠ .

(٢) ديوان الزعفراني ٧٨ .

تضمن من مسائل شتى، منها علم الكلام ، والفقه ، وتمثل في مؤلفاته التسعة ، وجانب لغوى تمثله مؤلفاته العشرة ، وأتجاه أدبى ينضح في كتبه السبعة عشر ، وإحاطة بالنحو تنبئ عنها تسعة كتب ، ومساهمة في العروض بكتاب واحد ، وكتابان لم يصلإ إلينا ، ولم أستطع معرفة موضوعهما ، لعلهما أولل أحدهما في المنطق .

على أنه كان يتقن اللغة الفارسية ، فقد ألف معجما بالفارسية والعربية طبع في ليزج سنة ١٨٤٣ م كما أن القسم الأول والثانى من كتابه (مقدمة الأدب) وهما فى الأسماء والأفعال باللغة العربية واللغة الفارسية

وهذه الكتب السبعة والأربعون التى منها الكبير ومنها الصغير خير شاهد بالصدق على أن الزمخشري كان متنوع الثقافة ، وأنه وهب الدين والعلم واللغة والأدب جهوده وحياته ، هبة الباذل الكلف الراغب فى مضاعفة البذل والسخاء .

على أنه لم يكن مثل بعض المؤلفين جماعا للمعارف ، لاجهد له إلا التنسيق أو الاختيار ، بل كان حر الفكر ، وكان صاحب كثير من الآراء البتكرة ، كما سيتجلى من تحليل كتبه .

وكان إلى ذكائه وسعة اطلاعه قوى الحجة ، فديرا على استنباط المعانى ، بارعا فى الجدل ، حتى لقد طبق تفسيره وتأويله للقرآن الكريم على مذهب المعتزلة تطبيقا لم يسبق إليه على هذه الصورة الكاملة ، ولم يحى بعده من صنع صنعه .

(٣)

اعتزاله

كانت خوارزم — كما سبق — تموج بالاعتزال ، وتمج بالمعتزلة ، وقد ولد الزمخشري بها ، ونشأ فى ربوعها ، ودرس دراسته الأولى على علمائها ، وكان

« أبو مضر » أحبَّ أساتذته إلى قلبه ، وأعظمهم تأثيراً في عقله ، وهو معتزلي كما تقدم .

وكان الزمخشري بطبعه كلفاً بحرية الرأي ، ميلاً إلى عمق الفكر وتقليب وجهات النظر ، وإلى المناقشة والجدل ، فهو يقول ^(١) :

« لاتنفع بالرواية عن فلان وفلان ، وامش في دينك تحت راية السلطان ^(٢) ،
لما الأسد المحتجب في عرينه أعزَّ من الرجل المحتج على قرينه ، وما العنز الجرباء
تحت الشَّمال البليل أذل من المقلد بين يدي صاحب الدليل ، وجامع الروايات
المحوية ، ولا حجة عنده مقوية ، أو قر ظهره بالخطب ، واعتقل زَنده بلا سبب .
لم أرفسني رهان مثل الحق والبرهان ، لله درُّهما متخاصمين ، ولا عِدَّتُهما
متناصرين . . من شدَّ يَدَيَّ بفرزهما فقد اعتزَّ بعزمهما ، ومن زلَّ عنهما فهو من
الذلة أذل ، ومن القلة أقل » ^(٣) .

لهذا دان الزمخشري بالاعتزال ، ونافع عنه ، وطبق على مذهب المعتزلة
تأويله للقرآن الكريم — كاسيحي — وكان يجد راحة نفسه في إعلان مذهبه ،
حتى نقل عنه أنه إذا قصد صاحباً له واستأذن عليه في الدخول قال لمن يأخذ له
الإذن : قل له : أبو القاسم المعتزلي بالباب ^(٤)

وذكر ابن خلكان أن الزمخشري لما كتب التفسير قال في افتتاح الخطبة
« الحمد لله الذي خلق القرآن » فقيل له : إن تركته على هذه الهيئة هجره الناس ،
ولم يرغب فيه أحد ، فغيره بقوله : « الحمد لله الذي جعل القرآن » لأن جعل

(١) أطواق الذهب ٧١ .

(٢) السلطان : المراد المقل

(٣) فلائد الأدب في شرح أطواق الذهب ٧١ .

(٤) وفيات الأعيان ٢٥٥/٤ ، وشذرات الذهب ٢٢٠/٤ .

عند المعتزلة بمعنى خلق . ورأيت كثيراً من النسخ فيها « الحمد لله الذى أنزل القرآن » وهذا إصلاح الناس لا إصلاح المصنف ^(١) .

والنسخ المطبوعة تبدأ بهذا التعبير الذى ذكر ابن حلكان أنه من إصلاح الناس « الحمد لله الذى أنزل القرآن كلاماً مؤلفاً منظماً ، ونزله بحسب المصالح مُنَجِّهاً ، وجمله بالتحميد مفتتحاً ، وبالأستعاذة مختتماً » ^(٢) .

وأرجح أن هذه دعوى لا صحة لها ، لأن الزخشرى لم يكن ليفر من التعبير بأنزل وهو يعلم أن القرآن الكريم يردد هذا التعبير فى كثير من سورته ، مثل قوله تعالى : « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آياتٌ مُحْكَمَاتٌ » ^(٣) . وقوله : « وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم » ^(٤) . وقوله : « قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس » ^(٥) .

وقد نفى الفيروزابادى صاحب القاموس المحيط هذه الدعوى فقال فيما كتبه على خطبة الكشف : قال بعض الطلبة ، وأثبتت بعض المعتنن بالكشاف فى تعليق له عليه : إنه كان فى الأصل كتب (خلق) مكان (أنزل) ، وأخيراً غيره المصنف أو غيره حذراً عن الشناعة الواضحة .

وهذا قول ساقط جداً ، وقد عرضته على أستاذى فأنكره غاية الإنكار ، وأشار إلى أن هذا القول يعمزل عن الصواب لوجهين :

-
- (١) وفيات الأعيان ٢٥٥/٤ .
 - (٢) الكشف ٢/١ .
 - (٣) سورة آل عمران : ٧ .
 - (٤) سورة النساء ١١٣ .
 - (٥) سورة الأنعام ٩١ .

أحدهما : أن الزمخشري لم يكن أهلاً لأن تفوته اللطائف المذكورة في أنزل
وفي نزل في مفتتح كلامه ، ووضع كلمة خالية من ذلك .

والثاني : أنه لم يكن يأنف من انتائه إلى الاعتزال ، وإما كان يفخر
بذلك ، وأيضاً أتى عُقْبَهُ بما هو صريح في المعنى - إذ قال : أنشأ كتاباً ساطعاً
بنيانه^(١) - ولم يبال بأنه قبيح .

وقد رأيت النسخة التي بخط يده بمدينة السلام مخبئة في تربة الإمام أبي
حنيفة ، خالية من أثر كشط وإصلاح^(٢) .

(٤)

عزة نفسه

لقد كان إلى تقواه وتواضعه أبي النفس ، يأنف من الضيم ، ويؤثر الغربة
على الإقامة في وطنه إن لم يتبوأ المكان اللائق به ، فيرحل إلى حيث يستمتع
بالتكريم ، ويشعر بالاعتزاز .

وقد سبق في حياته أنه مدح نظام الملك وشكا إليه ، ونوه بعلمه وأدبه ،
وجعلهما قرابة وشيجة بينه وبين الوزير الكبير ، ولم يكتف بهذا ، بل عرض
بتقصير الوزير في رعايته ، وختم القصيدة بالاعتداد المقرون بتحدى نظام الملك
أن يجد له نظيراً في جميع من يرى ، ثم هدده بالرحيل عن خوارزم كلها إذا لم
يسعفه بما يريد ، ولامه على أنه ضيع آماله ، على حين أزعج من همونه ظفروا
بما لم يظفر به :

وما حق مثلي أن يكون مُضَيِّعاً وقد عظمت عند الوزير وسائل

(١) في المقدمة : أنشأ كتاباً ساطعاً بنيانه ، ساطعاً برمانه .

(٢) كشف الظنون ٣١٥/٢ .

وأعظمها أنى نسيب نصابه إذا عُرِضَتْ أنساب هذى القبائل
فكل أمرىء آماله عدد الحصا وهات نظيرى فى جميع المحافل
لئن كان أمرى فى خوارزم ما أرى فإن رحالى فى ظهور الرّواحل^(١)

فلما صوح أمله اعتزم الرحيل من خوارزم على كره منه ؛ لأن البلد الذى
مكفل له الكرامة والتقدير خير له من وطنه الجاحد :

أحب بلاد الله شرقاً ومغرباً إلى التى فيها نُغذيتُ وليدأ
ولكن تواسى بالكرامة غيرها وهذى أرى فيها الهوان عتيداً^(٢)

ولم يلبث بعد تطوافه بخراسان وأصفهان أن مرض مرضاً سماه ناهكاً ومنذراً،
فعاهد الله أنه إن برى فلن يتصل بسلطان ولا بتابع من أتباع سلطان ، وأن
يهب العلم والتأليف جهده ووقته .

وهنا قد يخطر هذا السؤال : كيف سولت الخشعى نفسه أن يمدح
السلطين والوزراء ويشكو حالته ، ويحجر بمطالبه ؟

وجواب ذلك أنه - كما صور حاله - فقير . وهو إلى فقره عالم أديب ذكى ،
غلب عليه فى شبابه الطموح إلى الشهرة ، والنزوع إلى الثراء ، والتطلع إلى الجاه ،
وكان يرى أنه أجدر بالرعاية ممن تستعين بهم الدولة ، وتكل إليهم شئونها ، أو
تثيبهم وترعاهم بوسائل شتى ، وبخاصة قبل أن تتقدم به السن ، ويغلب عليه
الزهد فى مباحج الحياة .

ولقد رأى المال فى عصره بأيدى المتسلطين والمنهزين ، وفى حوزة الذين

(١) ديوان الزمخشري ٩٠ .

(٢) الديوان ٣٧ .

واتام الحظ بالنصيب والسلطان ، ورأى الجاه حكمةً للمقربين إلى الحكماء ،
والتزلفين إلى ذوى الجاه .

وما من شك في أنه كان يوازن بين شقائه وسعادتهم ، وبين علمه وجهل
كثير منهم ، وبين كفايته وعجز الآخرين .

وهذه الموازنات شوقته إلى المال وإلى الجاه ، فطمع في هبات السلاطين
والوزراء على عادة كثير من العلماء والأدباء في ذلك العصر وفيما قبله وبعده .
وستأتى في دراسة شعره موازنة بينه وبين بعض الشعراء في الطلب الصراح .
على أن عزة نفسه كانت تتجلى في مدائحهم وشكواهم ، فلا يفتأ ينوه بعلمه ،
وَيُبدِلُ بكفايته ، ويعتد نفسه صاحب جهد يستحق التقدير ، وصاحب حق على
الدولة ينبغي أن تقوم به وترعاه .

وإنه ليمرر هذا ما سبق في التعريف بنظام الملك وزير السلاجقة من حذب
على العلماء ، وتشجيع للأكفاء .

ويبدو لي أن الزمخشري يشبه سلفه أياحيان التوحيدى (المتوفى سنة ٥١٤هـ)
في أن كليهما سبق عصره بما نسميه اليوم (منحة التفرغ) ، وهى فكرة كانت
بعيدة عن الأذهان في عصرهما ، ولم تعرف إلا منذ سنوات .

ذلك أن الدولة تكفل اليوم لكثير من أصحاب المواهب أرزاقهم زمنًا
معينًا ، ليفرغوا للعمل الأدبى أو الفنى أو العلمى ، لأنه ليس أقتل للشغف بالإنتاج
من زحمة الوقت بالعمل لكسب الرزق .

والدولة إذ تختص اليوم أناسًا بمنحة التفرغ لا تتوخى إلا ما يعود على الوطن
كله بالخيرات ، لأن هؤلاء المتفرغين لا يختصون فرداً أو جماعة بما تجود به
قرائهم من ثمرات .

(٥)

بين الطموح والقناعة

١ - مازال الزمخشري إلى الخامسة والأربعين من عمره تواقاً إلى المنصب، مشتاقاً إلى المال، متعلقاً بالشهرة، يعتقد أن علمه وأدبه وكفايته هي الوسائل إلى ظفره بما يأمل

وأغلب الظن أن مرد هذا إلى المنافسات التي علاذوها بين علماء العصر وأدبائه، فكل منهم يُزْهِى بما نال من جاه وأحرز من منصب، وإلى أن الزمخشري كان في هذه السن يستجيب لآماله ولا يكبحها، وكان يبتغي من الوظيفة والمال والجاه الطمأنينة التي تكفل له التفرغ إلى العلم والأدب، إذ كان فقيراً رعا به بماله أستاذه أبو مضر، كما تحدث هو بذلك^(١)، وطالما شكوا الفقر في قصائده، وكاشف به نظام الملك مكاشفة المعتد بنفسه وبعلمه الذي لا يجد في الفقر عاباً، لأنه ليس من صنعه، كقوله لنظام الملك^(٢) :

غنى من الآداب لكنني إذا نظرت فما في الكف غير الأنامل
وقوله^(٣) :

أشكو الزمان ولا أرى لي مُشْكياً من يرى شِعْثِي وَرَقَةً حَالِي
يا جسر تان لي بصفقة راجح في متَجَرِّه والفضل رأس المال
يا ويح أهل العلم كيف تأخروا والسبق كل سبق للجهال
في ذمة الأيام لي دينه متى استَنْقِضِهِ لاقيت طول مطال
فإلى إلهي الشكوى وبصنعه دون الأنام منوطة آمالي

(١) الديوان ٩١

(٢) الديوان ٩٤

(٣) الديوان ٩٥

وكثيراً ما نوه بعله وفضله في مدائحهم وشكواؤه قبل أن تتخطى الخامسة والأربعين من عمره ، كقوله في قصيدة مدح بها نظام الملك ^(١) :

وما شجاني أن غُرَّ منافي
تغنى بها الركبان بين القوافل
وطارت إلى أقصى البلاد قصائدي
وسارت مسير النيرات رسائلي
ولي في دقيق النحو والنقد منطق
إذا قلته لم أبق قولاً لقائل

وقوله لجبر الدولة ^(٢) :

فن مبلغ عني الوزير بأنني
كفيل بفادٍ من ثناه ورائح
فليت رجالي ألقيت بفنائه
فأرتع في نعمائه غير نازح
ويقدح زناداً واريّاً من منافي
إذا صلّدت كل الزناد لهادح
وفي شرح أبيات الكتاب ^(٣) لبعض ما
يرى في صفاتي مجللاً أي شارح
وأتمودجاً ^(٤) أفذت منه يضمه
رجائي أرى فيه وجوه المناجح

ولعله اقتدى في نغره بالمتنبي حيث يقول ^(٥) :

وما الدهر إلا من رواة قصائدي
إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشداً
فسار به من لا يسير مشمراً
وغنى به من لا يغنى مفرداً

وحيث يقول ^(٦) :

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي
وأسمعت كلماتي من به صمم
أنام ملء جفوني عن شواردها
ويسهر الخلق جراًها ويختصم

(١) الديوان ٩٤

(٢) الديوان ٢٣

(٣) يقصد شرحه لكتاب سيوبه

(٤) يقصد كتابه الأتمودج في النحو

(٥) ديوان المتنبي ١/١٩٣

(٦) ديوان المتنبي ٢/٢٦١

والزنجشري يقرن فخاره هذا بسخريته من الحياة ، التي لم تنوله ما نولت
سواه ، وبسخطه على الزمن الذي قترَّ عليه ، وسخا على الذين هم دونه فضلاً
وعلماً وكفاية ، كقوله ^(١) :

خليلى هل تجدى على فضائلى إذا أنا لم أرفع على كل جاهل ؟
من الغبن ذو نقص يصيب فضائلاً أخو الفضل محقّق بتلك الفضائل
كذا الدهر كم شواء فى الخلى جيدها وكم جيد حسناء القلدر عاطل
فيا ليتنى أصبحت مستغنياً ولم أكن فخر خورزم ورأس الأفاضل
ويا ليتنى مرض صديقى ومسخط عدوى وأنى فى فهاهة باقل
فلست بفضلى بالغاً ولو اتى كقس إباد أو كسحبان وائل

وفى هذه المرحلة من حياته كان يُقرّع معاصريه ، ويقسو على مواطنيه ،
ويصفهم باللؤم والنباة والجهل ، كقوله فى مدح أحمد بن محمد بن على ^(٢) :

لولاك يا بن الفضل لم أك قاطناً فى بلدة جارت على أمشالى
فى أرض خورزم كريم واحد ودع اللثام فهم عديد رمال
وإذا وجدت الرّبع أصبح أهلاً بسوى الكرام فذاك ربع خالى
وقوله فى مدح نظام الملك ^(٣) :

لئن كان أمرى فى خوارزم ما أرى فإن رجالى فى ظهور الرواحل
وقوله فى قصيدة لصدر الملك الوزير ^(٤) يدافع عن نفسه ويبرر رحيله من خوارزم :
وترحالاً ليس اغتراباً وإنما إقامتها فى الناقصين اغترابها

(١) الديوان ٩٤

(٢) الديوان ٩٥

(٣) الديوان ٩٤

(٤) الديوان ١٢

ونستطيع أن نستشف من لومه نفسه بعد ذلك أنه كان يهش إلى الثناء ،
وذيوع الصيت ، ووصفه بالتفوق في اللغة والنحو والبلاغة والعروض والشعر
والنثر والعلوم الشرعية ، مثل قوله في مقامة العمل ^(١) :

« يا أبا القاسم لا تسمع لقولهم : فضل مبین ، وأدب متین ، واسم في
المهارة بهما شهير ، وصيت في إتقانها جدير ، وفتى طَيَّان ^(٢) من المناقص
والرذائل ، رَيَّانُ من المناقب والفضائل ، إن ذِكْرَ مَتْنِ اللغة لِحِلْسٍ من
أحلاس ^(٣) ، أو قياسها ^(٤) فسانس أفراسه ، أو النحوف هو سيبويه وكتابه ،
ينطق عنه تراجه وأبوابه ، فمن مساجله ومُسانيه ^(٥) ، ومزاوله ومعيانيه ، ومن
يفرغ على معان كميانيه ؟ أو نقدُ الكلام فالتَّقدَةُ إليه كأنهم النَّقدُ ^(٦) ، وقد
عاث فيه الذئب الأعقد ^(٧) ، أو العروض فابن بجدتها ^(٨) ، وطلاع أنجدتها ،
أو القوافي فأبداعه فيها يلقطك ثمرات الغراب ^(٩) ، وإغرابه فيها يحشو التراب
في وجوه أهل الإغراب ، أو الشعر فزياده ^(١٠) وحسانه ، وإحسانه كما دَجَّج
الروض نيسانه ^(١١) ، أو النثر . . . أو معرفة الكتابة والخط فقد لجج ^(١٢)

(١) المقامات ٩٨ .

(٢) طيان من الناقص : مجاز عن خلوه منها ونزاهته .

(٣) فارس من فرسانه من قولهم للمارف بركوب الخيل المعاود له هو من أحلاس الخيل .

شبه في ثباته على متن الفرس بالجلس الذي يجلس به .

(٤) أراد بقياس اللغة علم الاشتقاق ، ويسمى علم المغاييس والأبنية علم التصريف الذي

هو أدق شطرى النحو وأعوصهما ، وإلا فكان حقه أن يقدم ، لأن علم ذوات الكلم مقدم على
علم أصولها .

(٥) المساجل : المبارى في السق من السجل وهو الدلو . المسانى : مثله من البانية .

(٦) التَّقدُ : جنس قبيح من القم .

(٧) الأعقد : المتلوى الأدب .

(٨) يقال للدليل الماهر هو ابن بجدتها وهو من يجد بالمكان إذا أقام به .

(٩) ثمر الغراب مثل في الطيب المنتقى لأنه لا يأكل من الثمر إلا أعلاه وأينعه .

(١٠) زياد : النابتة الذياني .

(١١) بيسانه : المراد الريح .

(١٢) لجج : خاض اللج .

وترك الناس على الشط ، أو حفظ ما يحاضر به فصيّب^١ بفيض وبحر لا يفيض ، وليس بعريان كعمود النعم من ثمر علوم الشرع .

٢ - لكن الزمخشري يثس ، أو قاربه اليأس ، في الوقت الذي مرض فيه مرضاً ظنه قاضياً سنة ٥١٢ هـ ، فبصر بما لم يكن يبصر به من قبل ، وعلم أن المنصب حلية الخامل ، وأن المال ظل زائل ، فندم على ما أنفق من عمره في طلبهما ، وقصر على الإنتاج العلمي والأدبي جهوده ، وجعله وسيلته وغايته .

وحينئذ بدأت مرحلة القناعة والرضا ، وجعل الزمخشري يردد نصائح هي أقرب ما تكون إلى الزهد والتصوف ، حتى لقد سمى بعض مقاماته مقامة القناعة ، وسمى أخرى مقامة الزهد ، وسمى ثالثة مقامة العزلة ، وسمى رابعة مقامة الخمول ، وفي هذه المقامة يقول^(١) : « يا أبا القاسم ، يا أسنى كل ما أمضيت من عمرك ، في طلب أن يشاد بذكرك ، ويشار إليك بأصابع بني عصرك . عَنَيْتَ على ذلك طويلاً ، فما أغْنَيْتَ عنك فتيلاً^(٢) . وما أدراك يا غافل ما الكامل ؟ الكامل هو العامل الخامل ، الذي هو عند الناس منكور ، وهو عند الله مذكور » .

وقال في مقدمته : « اللهم إني أحمّدك ... فككت من رقّ التبعات عنّي ، ومننت بحل إساري وعِثْقِي ، ورقِيتني إلى رتبة القناعة وهي الرتبة العليا ، وزهدتني في الحرص على زخارف الدنيا »

وقال :^(٣) « آثر الخمول على النباهة ، واسحب الستر على الوجاهة ، تعش أنجى من أظفار الجبن ، وأنانى من إضمار الإحن ، وإن ذا الشرف محسود

(١) مقامات الزمخشري ١٧١ .

(٢) الفتل : ما فشق النواة مثل الشعرة .

(٣) فلتاد الأدب في شرح أطواق الذهب ٢١ ، وأطواق الذهب ١٤ .

أو حاسد ، محفود عليه أو حاقد . وتلك بلية تتقلقل تحتها الأحشاء ، ويفعل الله فيها ما يشاء »

وقال في مقامة القناعة^(١) :

« يا أبا القاسم اتق^(٢) من القناعة^(٣) لا من القنوع ، تستغن عن كل معطاء ومنوع ، لا تُخلِقْ أديم وجهك إلا عند من خلقه وخلقك ، ولا تسترزق إلا من رزقه وإن شاء رزقت . القناعة مملكة تحتها كل مملكة ، لا سبيل عليها لمملكة ، لا يتوقع صاحبها أن يقتصر بعد غنيته ، ولا يقع النفاق في كبره ومُنيتِه » .

(٦)

تدينه

هذا العلامة البصير بمظلمة الإسلام ، الخبير بخصائمه ، الضيور على حماه ، المعارع إلى إحباط ما قد يوجه إليه من أباطيل الكيد والشبهات ، لم يكن يصدر في هذا كله عن علمه وحده ، ولا عن عقله وحده ، بل كان يتخذ عدته من علمه وفكره ووجدانه العميق وتدينه الراسخ ، حتى إن بعض مؤرخيه لم يجدوا في تدينه مغمزا إلا الاعتزال ، فقال ابن حجر العسقلاني إنه صالح لكنه داعية إلى الاعتزال^(٤) .

ولاشك أن بيئته العامة وبيئته الخاصة كان لهما أثر عظيم في هذا التدين ، فأما البيئة العامة فتتمثلها مدارج الحديث الكثيرة التي أنشأها نظام الملك ،

(١) اللغات ٥٨ .

(٢) اتق يكون أمراً من قنع بمنع بمعنى رضى رضى وزناً ومعنى ، ويكون من قنع ينسج بمعنى سأل يسأل وزناً ومعنى .

(٣) القناعة : الرضى باليسير .

(٤) لسان اللزبان ٤/٦ .

ومثلها مجالسه التي كان يعمرها القراء والفقهاء وأهل الخير والصلاح ، وكان نظام الملك إذا دخل عليه الإمام أبو القاسم القشيري والإمام أبو المعالي الجويني يقوم لهما ، ويجلس في مكانه كما هو ، وإذا دخل عليه أبو علي الفارندي يقوم إليه ويجلس في مكانه ، ويجلس بين يديه ، ف قيل له في ذلك ، فقال : إن هذين وأمثالهما إذا دخلوا عليّ يقولون لي : أنت كذا وكذا يثنون علي بما ليس في ، فيزيدني كلامهم عجباً وتبها ، وهذا الشيخ يذكرني عيوب نفسي وما أنا فيه من الظلم ، فتتكسر نفسي لذلك ، وأرجع عن كثير مما أنا فيه ^(١) .

وأما البيئة الخاصة فإن الزمخشري ثمرة طيبة من شجرة طيبة ، فقد ساهم والداه في تربية عاطفته الدينية ، إذ كان أبوه عالماً ورعاً صواماً قواماً حريصاً على مكارم الأخلاق ، وقد أشاد الزمخشري بهذا ، وبتلوق أبيه للأدب في قوله يرثيه ^(٢) :

قدته فاضلاً فاضت مآثره العلم والأدب المأثور والورع
أخا طبعاً مصفاً مناسبة ماء السحابة ما في بعضها طبع
لم يأل ما عاش جداً في تقاه يرى أن الحريص على دنياه منخدع
صام النهار وقام الليل وهو شج من خشية الله كاني اللون ممتنع
قريب عهد بوخط الشيب عارضه إثر الشباب ووخف الليل متبع
من المروءة في علياء متسع صدرا وإن لم يكن في المال متسع

لم يذق الخمر ، ولم يذقها أبوه ، ولا أحد من أسرته ، والناس شهود على ذلك ، قال في وصف الخمر ^(٣) :

(١) الكامل لابن الأثير ١٠/٢٦ ، ٧١ ، وتاريخ آل سلجوق ٥٤ .

(٢) ديوان الزمخشري ٧٢ .

(٣) ديوان الزمخشري ٨٥ .

هات التي ظُلِمَا شَبَّهَتْ بِشَمْسٍ ضَحَا لَوْ عَارَضَتْهَا لَفَطَّهَا بِإِشْرَاقِ
أَسْتَفْغَرُ اللَّهَ أَنَّى قَدْ نَسَبْتُ بِهَا وَلَمْ أَكُنْ لِحَيَّاهَا بَنَوَّاقٍ
وَلَمْ يَذْفُقْهَا أَيْ كَلَا وَلَا أَحَدٌ مِنْ أَسْرَتِي، وَاتِّفَاقِ النَّاسِ مُصَدِّقٍ

كَذَلِكَ كَانَتْ أُمُّهُ مِتْدِينَةُ رَحِيمَةُ الْقَلْبِ ، بَلَغَ مِنْ تَأَمُّمِهَا وَعَظْفِهَا عَلَى الْعَصْفُورِ
أَنْ غَضِبَتْ مِنْ ابْنِهَا، وَاهْتَاجَتْ فَدَعَتْ عَلَيْهِ دَعْوَةَ خَطِيرَةٍ نَفَسَتْ بِهَا عَنْ مَوْجِدَتِهَا،
فَهُوَ يَقْصُ حَدِثًا مِنْ أَحْدَانِهِ فِي صَبَاحٍ فَيَقُولُ ^(١) : كُنْتُ فِي صَبَإٍ أُمَسَكْتُ
عَصْفُورًا ، وَرَبَطْتُهُ بِخَيْطٍ فِي رِجْلِهِ ، فَأَفْلَتَ مِنْ يَدِي ، فَأَدْرَكْتُهُ وَقَدْ دَخَلَ فِي خُرْقٍ ،
فَجَذَبْتُهُ ، فَأَنْقَطَعَتْ رِجْلُهُ فِي الْخَيْطِ ، فَتَأَلَّمْتُ وَالَّذِي لَدَيْكَ ، وَقَالَتْ : قَطَعَ اللَّهُ رِجْلَكَ
كَأَنَّكَ قَطَعْتَ رِجْلَهُ . فَلَمَّا وَصَلْتُ إِلَى سِنِّ الطَّلَبِ رَحَلْتُ إِلَى بَحَارِي لَطَلَبِ الْعِلْمِ ،
فَسَقَطْتُ مِنَ الدَّابَّةِ ، فَانْكَسَرَتْ رِجْلِي ، وَأَصَابَنِي أَلَمٌ أَوْجِبَ قَطْعَهَا .

وَيُظْهِرُ أَنَّ الْبَرْدَ الشَّدِيدَ أَثَّرَ فِي الْكَسْرِ فَاضْطُرَّ إِلَى قَطْعِ رِجْلِهِ ، لِأَنَّ الثَّلْجَ
وَالْبَرْدَ — كَمَا يَقُولُ ابْنُ خُلْكَانَ — كَثِيرًا مَا يُوْثِّرُ فِي الْأَطْرَافِ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ ،
فَنَسْقُطُ ، خُصُوصًا فِي خَوَارِزْمَ ، فَإِنَّهَا فِي غَايَةِ الْبَرْدِ ، وَلَقَدْ شَاهَدْتُ خُلُقًا كَثِيرًا مِنْ
سَقَطَتْ أَطْرَافُهُمْ بِهَذَا السَّبَبِ ، فَلَا يَسْتَجِدُّهُ مِنْ لَا يَمُرُّهُ ^(٢) .

وَمِنْ مَظَاهِرِ تَدْبِيرِهِ الْمُتَّصِلَةَ بِقَطْعِ رِجْلِهِ أَنَّهُ عَزَا قَطْعَهَا إِلَى دُعَاءِ وَالِدَتِهِ ، فَقَدْ
سَأَلَهُ الدَّامِغَانِيُّ الْفَقِيهَ الْحَنْفِيَّ الْمُتَكَلِّمَ عَنِ السَّبَبِ فَقَالَ : دُعَاءُ الْوَالِدَةِ ^(٣) .

وَيَذْكُرُ ابْنُ خُلْكَانَ أَنَّهُ لَمَّا سَقَطَتْ رِجْلُهُ أَشْهَدَ فِي مُحَضَّرِ خُلُقٍ كَثِيرًا
مِمَّنْ أَطْلَعُوا عَلَى حَقِيقَةِ ذَلِكَ ، خَوْفًا مِنْ أَنْ يَظُنَّ مَنْ لَمْ يَعْلَمْ الْحَقِيقَةَ أَنَّهَا قَطَعَتْ
لِرَبِيَّةٍ ، ثُمَّ اتَّخَذَ رِجْلًا مِنْ خَشَبٍ .

(١) وَفَيَاتُ الْأَعْيَانِ ٢٥٥/٤ ، وَمَعْجَمُ الْأَدْبَاءِ ١٢٧/١٩ .

(٢) وَفَيَاتُ الْأَعْيَانِ ٢٥٥/٤ .

(٣) وَفَيَاتُ الْأَعْيَانِ ٢٧٥/٤ ، وَمَعْجَمُ الْأَدْبَاءِ ١٢٧/١٩ ، وَشَذَوَاتُ الذَّمِّ ١١٩/٤ ،

وَمَرَأَةُ الْجَنَانِ ٢٦٩/٣ ، وَلِأَنبَاءِ الرِّوَاةِ ٢٦٨/٣ .

بدفع من هذا التدين حج مرات ، واعتزم أن يقيم بمكة لا يضي عنها حولا ، فلما غلبه الشوق إلى وطنه غادرها تلتفت إليها عينه ، حتى توارت معالمها تلتفت قلبه ، ثم لم يلبث أن اشتاق إليها أشد الشوق ، وحن إليها أعظم الحنين ، وقرع نفسه على فراقها ، فسارع إليها مرة ثانية ، وأقام بها سنوات ، وسى نفسه في هذه المرة جارا لله :

أنا الجار جارا لله مكة مركزى ومضرب أوتادى ومُعَقْدُ أطنابى
فمن يُبَلِّغُ في بعض القُرْبَيَاتِ رحله فأم القرى مُلْقَى رحالى ومُتَنَابِى
ومن كان في بعض المحاربِ براكما فللكعبة البيت المحرم محرابى
ولا يخلو كتاب من كتبه من دلائل تقواه ، وحضه على الطاعة والعبادة نفسه وسواه ، وكلفه بالحكمة والموعظة التى تهذب الأخلاق وتسمو بالنفوس .
لهذا قال في مقدمة المقامات ^(١) : « وأنا أقدم قبل الخوض في ذلك تنبيهك على ألا تطالع هذه النصائح إلا ملقيا فكرك إلى معانيها ، مُحْضِرًا ذهنك لأوامرها ونواهيها . حتى يكون اقتباسك منها في أخلاقك وأفعالك أوفر من استفادتك لبلاغتها وبراعتها ، فقد علمت ببعض ما فيها مما يهذب النفس ، ويطهر القلب » .
ثم قال إنه عاهد نفسه ألا يُدْرَس من العلوم إلا ما هو مُهِيبٌ بدارسه إلى الهدى ، رادع له عن مشايعة الهوى ، ومُجَدِّدٌ عليه في علوم القراءات والحديث وأبواب الشرع ، من ^(٢) عرف منه أنه يقصد بارتياده وجه الله تعالى ، ويرى به الغرض الراجع إلى الدين ، ضاربا صفحا عن يطلبه ليتخذة أهبة للمباهاة ، وآلة للمنافسة ، ووسيلة إلى الخطوة عند الخائضين في غمرات الدنيا ، والتسمى بين ظهرانيهم بالفاضل والتلقب بالبارع » .

(١) مقامات الزمخشري ٨

(٢) من عرف : مفعول يدرس ، ودرس متعد للفاعل .

وخاطب نفسه بقوله ^(١) : « يا أبا القاسم ، العمر قصير ، وإلى الله المصير ،
فما هذا التقصير ؟ إن زبرج الدنيا قد أضلك ، وشيطان الهوى قد استزلك ^(٢) ،
ألا إن الأحبى بك أن تلوذ بالركن الأقوى ، ولا ركن أقوى من ركن التقوى » .

ونهى نفسه في مقامة العمل عن الاغترار بالثناء عليه ، ووصفه بالبراعة في
العلوم والأدب ، وعقب على هذا بأن الأديب هو الداعية إلى الفضائل ، المبرأ من
الميوب ، والمائل هو الذى يبتغى من أعماله أن يكون عند الله وجيها ، لأن العلم
بلا عمل كالقوس بلا وتر : « لعمر الله ليس بأديب ولا أريب ، كل مُعربٍ وحافظ
غريب . الأديب من أخذ نفسه بأداب الله فهدبها ، ونفح أخلاقه من العقد
الشائنة فشدبها . والأديب الفاضل من لم يكن له أرب ولا وطر ، إلا أن يكون
له عند الله فضل وخطر ، ماغناء من قوى علمه وعمله قد فتر ؟ إن علما بلا عمل
كقوس بلا وتر ، حاملها حيران مرتبك في العماية ، لا يهتدى وإن كان ابن تقن ^(٣)
إلى وجه الرماية واعلم أن العلم إنما يُتَعَلَّم ، لأنه إلى العمل سُلَّمٌ ، كما أن العمل
إلى ما عند الله ذريعة ، ولولاها ما علم علم ولا شرعت شريعة » ^(٤) .

وقال في مقدمة (أطواق الذهب) وهى مواعظ أنشأها في مكة :

« أسألك أن تفيض على هذه المقالات من البركة والقبول ، وأن تحفظ
فيها ما وجب للجار ، من حق الذمام والذمار ، لأنها وُجِدَتْ في حرمك المطهر ،
وولدت في حجر بيتك المستر » .

وذكر يوسف الإشتياني شارحها أنه كان يطوف ببيت الله ، فإذا فرع من

(١) المقامات ١٥

(٢) استزلك : جرك إلى الزلل .

(٣) ابن تقن : اسمه عمرو بن تقن من فاد ضربت به العرب المثل في جودة الرى .

(٤) المقامات ١٠١

للطواف ألف مقالة، ثم يقوم ويطوف وينشئ مقالة، وما زال على ذلك إلى أن بلغت مئة كاملة^(١).

وذكر ابن خلكان^(٢) أنه سمع من بعض فضلاء حلب أن الزمخشري أنشده هذه الأبيات، وأوصى أن تكتب على لوح قبره، وهي الأبيات التي استشهد بها عند تفسير قوله تعالى: «إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بموضة فما فوقها»^(٣).

يا من يرى مدّة البعوض جناحها في ظلمة الليل البهيم الأليل
ويرى عروق نياطها في نحرها والمخ في تلك المظام الثحل
اغفر لعبد تاب من فرطاته ما كان منه في الزمان الأول
وعلى هدى من تدينه وتقواه اتخذ لنفسه دستوراً لا يتعداه، وتبرم بمعاصريه،
وآثر الوحدة على مخالطتهم، لأنهم أهل غيبة وانحراف عن الدين ومعاون
على الآثام.

قال في مقامة المزة^(٤): «قاتل الله بنى هذه الأيام، فإنهم طلائع الشرور
والآثام، حواريهم غوار، ونقالمهم نقار»^(٥)، ووفاقهم نفاق، تسلق بالسنهم
الأعراض، كما ترشق بسهامهم الأغراض. تجمع الندوة كبارهم فلا يتواصون
بالصبر، بل يتناصون على الصدر^(٦).

إن آنسوك حدث الوحشة، وإن جالسوك وددت الوحدة، بينا أنت في

(١) فلانة الادب في شرح أطواق الذهب ٩.

(٢) وفيات الأعيان ٢٥٩/٤.

(٣) سورة البقرة ٢٦.

(٤) اللغات ٧٢.

(٥) نقالمهم: منافقهم الكلام. نقار: منافرة ينفر بعضهم بعضاً بالنسب. ول نوايح
الكلم (لن يسود النصارى ما أسود القار).

(٦) يتناصون: يأخذ بعضهم بناصية بعض على صدر المجلس.

خلواتك وانفرادك ، مكبا على أحزابك^(١) وأورادك إذ فوجئت بمثاقفة^(٢) بعضهم ، من الذين أخذك الله ببغضهم ، فضرب بينك وبين ما كنت فيه بأسداد ، ورمك بأمور من تلك الأول بأضداد ، ملقيا أسباب الفتن بين يدي اختنانه ، مخلفا للأدب والسنن وراء استنانه ، لا يدفع في صدره من حياء دافع ، ولا يزرعه من دين حقّ وازع .

فإذا أنشأ يأكل لحم أخيه بالنقيصة والقلب ، ويبلغ في دمه الحرام ولوغ الكلب ، ويصوب ويصمد في تمزيق فروته ، ويقوم ويقعد في قرع مروتته^(٣) ويخلط ذلك باستهزاء متتابع ، واستغراب متدافع ، لم يملك حينئذ عناه ، ولم يثبّط عن استهزائه جنانه^(٤) .

فإن لم تقبل عليه بوجهك وصفك بالكبرياء ، وإن لم ترعه سمعك نسبك إلى الرياء ، وإن أعطيته من نفسك ما يريد ، فكلا كما والشيطان المرید :

الإنس مشتق من الأنس والأنس أز تنأي عن الإنس
نيابهم ملس ولكنهم على ذئاب منهم طلس^(٥)

(٧)

تواضعه

وهو مع إباطه وعزّة نفسه متواضع ، لطيف المعاملة ، ظريف الجمالة .

(١) الحزب : الورد يقال : قرأت حزبي من القرآن .

(٢) المثاقفة : المجالسة وقال الليثاني ثاقفه : لازمه ولم يبارحه .

(٣) المروة : الحجرة الصلبة ، والمراد هنا الأصل .

(٤) الخنان : جمع جان .

(٥) طلس : جمع أطلس وهو الدّيب في لونه غبرة إلى سواد .

قدم إلى بغداد في طريقه إلى مكة ثانياً مرة ، فزاره كثير من الناس لتكريمه
والسمع منه ، وكان فيهم الشريف أبو السعادات هبة الله بن الشجري ، فلما جلس
إليه بهره الزمخشري علماً وأخلاقاً ، فأنشد ابن الشجري ممثلاً :

كانت مسالة الركبان تخبرني عن أحمد بن دُواد أطيّب الخبر
حتى التقينا فلا والله ما سمعتُ أذنًى بأحسن مما قد رأى بصري
وأنشده أيضاً :

وأستكبر الأخبارَ قبل لقائه فلما التقينا صغّرَ الخبرَ الخبرُ
ثم أخذ يفتي عليه . فلما فرغ من كلامه شكر الزمخشري له ، وعظمه ، وتصاغره ،
وقال إن زيد الخليل دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما بصّر بالنبي
رفع صوته بالشهادتين ، فقال له النبي : يا زيد الخليل ، كل رجل وصف لي وجدته
دون الصفة إلا أنت ، فإنك فوق ما وصفت ، وكذلك سيدنا الشريف . ثم
دعاه وأثنى عليه ^(١) .

وكتب إليه الحافظ أبو الطاهر أحمد بن محمد السلفي من الإسكندرية - وهو
مجاور بمكة - يستجيزه في مسموعاته ومصنفاته ، فرد جوابه بما لا يشفي الغليل .
فلما كان العام الثاني كتب إليه أيضاً مع الحجاج استجازة أخرى اقترح فيها مقصوده ،
وقال في آخرها : ولا يحوج - أدام الله توفيقه - إلى المراجعة ، فالسافة بعيدة ،
وقد كاتبته في السنة الماضية فلم يجب بما يشفي الغليل ، وله في ذلك الأجر الجزيل .
فرد عليه الزمخشري رداً حافلاً بالتواضع والسلامة من الفرور ومن التعالي
والتعالم ، صور فيه نفسه بين العلماء صغير القدر ، ضحل المعرفة ، وذكر أن حظه
من الدراية نزر ، ونصيبه من الرواية قليل ، وتنصل من ثناء الناس عليه ، وعلل

له بأنه اغترار منهم بالظاهر الملموء، ثم التمس لهم العذر، لأنهم ربما أعجبوا بنصحه
للسلمين، وبترفعه عن حطام الدنيا وسفاسفها، وختم الرسالة بتوكيده أنه صادق
فيما يقول :

من رسالته قوله : مامثل مع أعلام العلماء ، إلا كمثل الشها^(١) مع مصايح
السماء ، والجهم^(٢) الصفر^(٣) مع الرّهام^(٤) ، ومع النوادي الغامرة للقيعان والآكام ،
والسكيت^(٥) الخلف مع خيل السباق ، والبيث^(٦) مع الطير العتاق .

وما التقيب بالعلامة ، إلا شبه الرقم بالعلامة ، والعلم مدينة أحد بابيها
الدراية ، والثاني الرواية ، وأنا في كلا البابين ذو بضاعة مزجاة^(٧) ، ظلّ فيها
أقلص من ظل حصاة .

أما الرواية فحديثه الميلاذ ، قريبة الإسناد ، لم تستند إلى علماء نحارير^(٨) ،
ولا إلى أعلام مشاهير .

وأما الدراية فتقدم^(٩) لا يبلغ أفواها ، وكجرض^(١٠) ما يبل شفاها .

ثم قال : لا يفرنكم قول فلان في ولاقول فلان . وعدد جماعة من الشعراء
والفضلاء مدحوه بمقاطيع من الشعر ، وأوردها كلها .

(١) الشها : كوكب خفي في بنات نض الصغرى .

(٢) الجهم : السحاب لا ماء فيه .

(٣) الصفر : الخالي .

(٤) الرّهام : جمع رهمة وهي المطر الضيف الدائم .

(٥) السكيت : آخر خيل الحلبة .

(٦) البيث : أضف الطير .

(٧) مزجاة : قليلة .

(٨) نحارير : جمع نحير وهو الخاذق الفطن الحبير .

(٩) التمد : الماء القليل .

(١٠) برض : قليل .

ثم قال : فإن ذلك اغترار منهم بالظاهر الموه ، وجهل بالباطن المشوه . ولعل الذى غرهم منى مارأوا من حسن النصح للمسلمين ، وتبليغ الشفقة على المستفيدين ، وقطع المطامع عنهم ، وإفادة المبارك والصنائع عليهم ، وعزة النفس ، والرب ، بها عن السفاسف الدنيات ، والإقبال على خو يصبى ، والإعراض عما لا يفيتنى ، فجلت في عيونهم ، وغلغلوا في ، ونسبوني إلى مالت منه في قبيل ولا دبير^(١) .

وما أنا فيما أقول بها ضم لنفسي ، كما قال الحسن البصري رحمه الله تعالى في قول أبي بكر الصديق رضوان الله عليه : « وَلَيْتُكُمْ وَلَسْتُ بَخِيرِكُمْ » إن المؤمن ليضم نفسه ، وإنما صدقت الفاحص عنى ، وعن كنه روايتى ودرايتى ، ومن لقيت وأخذت عنه ، وما بلغ على وقصارى فضلى ، وأطلمته طلع أمرى ، وأفضيت إليه بحبيته سرى ، وألقيت إليه هجرى ومجرى^(٢) ، وأعلمته نجى وشجرى^(٣) وقال ابن خلكان : ما أعلم هل أجازه بعد ذلك أولا^(٤) .

وقال في مقامة العمل مخاطب نفسه : « نعم يا أبا القاسم إن سمعهم يقولون : ما أكثر فضلك فقل إن فضولى أكثر ، وما أغزر أدبك فقل إن قلة أدبى أغزر »^(٥) .

ولم ينس أن يشيد بخلق التواضع في استنباطه بعض الأخلاق من تفسيره

(١) فلان ما يعرف قبيل من دبير أى ما يعرف الشاة القابلة من المدابرة ، أو ما يعرف من يقبل عليه من يدبر عنه ، أو ما يعرف نسب أمه من نسب أبيه (القاموس المحيط مادة قبل) وأصله من قتل الحبل إذا مسح اليمين على اليسار علواً فهو قبيل وإذا مسحها عليها سفلاً فهم دبير (أساس البلاغة مادة قبل) .

(٢) المراد أطلمته على عبوى ، وأصل المجر العروق المتعقدة الناتئة ، والبحر ما تعقد منها على البطن خاصة (أساس البلاغة مادة يجر) .

(٣) النجم ما نجم من الثبات على غير ساق .

(٤) وفيات الأعيان ٢٥٦/٤ ومجمع الأدباء ١٣٢/١٩

(٥) مقامات الزمخشرى ١٠١

قوله تعالى : ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالوا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين» (١)

قال في الآية دليل على شرف العلم، وإنافة محله، وتقدم حملته وأهله، وأن نعمة العلم من أجل النعم ، وأجرزل القسم ، وأن من أوتيته فقد أوتي فضلا على كثير من عباد الله ، كما قال تعالى : « يرفعُ الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلمَ درجات » (٢).

وماسمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورثة الأنبياء إلا لمداناتهم لهم في الشرف والمنزلة ، لأنهم القوام بما بعثوا من أجله .

وفيها أنه يلزمهم لهذه النعمة الفاضلة لوازم ، منها أن يحمداوا الله على ما أوتوه من فضلهم على غيرهم ، وفيها التذكير بالتواضع ، وأن يعتد العالم أنه وإن فضل على كثير فقد فضل عليه مثلهم، وما أحسن قول عمر: كل الناس أقره من عمر (٣).

(٨)

حبه للعرب والعربية

كانت العصبية الجنسية قد بلغت أشدها في ذلك العصر الذي عاش فيه الزمخشري ، وكان كثير من الأعاجم قد انتهبوا ضعف الخلافة العباسية ، وتفرق العرب ، وقيام دويلات غير عربية ، فجعلوا يتعالون على العرب ، وينتقصون من قدرهم ، ويتهمون على تاريخهم ، وأخلاقهم ، ويحاولون أن يحيا لغاتهم القومية ، ويستعصوا بها عن العربية .

(١) سورة النمل ١٥

(٢) سورة المجادلة ١١

(٣) الكشاف ١٣٩/٢

ولكن الزمخشري العالم اللغوي الأديب وقف في تيار الشعوبية يصدّه ما استطاع ، لأنه كان يصل ما بين العروبة والإسلام ، ويصل ما بين اللغة العربية والثقافة الإسلامية ، قال في مقدمة كتابه (الفصل) :

« الله أحد على أن جعلني من علماء العربية ، وجعلني على الغضب للعرب والعصية ، وأبى لي أن أفرد عن صميم أنصارهم وأمتاز ، وأنضوي إلى لفيف الشعوبية وأنحاز ، وعصمتي من مذهبهم الذي لم يُجدّ عليهم إلا الرشق ^(١) بالسنة اللاعنين ، والمشق ^(٢) بأسنة الطاعنين .

ولعل الذين يفضون من العربية ويضعون من قدرها ، ويريدون أن يخفضوا مارفع الله من منارها - حيث لم يجعل خيرة رسله وخير كتبه في عجم خلقه ، ولكن في عرب - لا يبعدون عن الشعوبية منابذة للحق الأبلج ، وزيفاً عن سواء المنهج ، ثم سفههم وعجب من دعاوهم وهم لا يدرسون إلا بالعربية « والذي يقضى منه العجب حال هؤلاء في قلة إنصافهم ، وفرط جورهم واعتسافهم ، وذلك أنهم لا يجدون علماً من العلوم الإسلامية فقها وكلامها وعلى تفسيرها وأخبارها إلا وافقاره إلى العربية بئس لا يدفع ، ومكشوف لا يتقنع » ^(٣) .

وقد جهر بتفضيل العرب في قوله : ^(٤)

العرب نبع صلب المعاجم ، والقرب مثل للأعاجم ^(٥) .

وفي قوله : ^(٦)

فرقك بين الرطب والمعجم ^(٧) ، هو الفرق بين العرب والمعجم .

(١) الرشق : الإصابة بالمكروه . الشق : سرعة الطعن .

(٢) شرح الفصل ٣/١ - ١٦ .

(٣) نوابيع الكلم ٧ .

(٤) النبع : شجر صلب تتخذ منه القسي . القرب : شجر ضعيف رخو .

(٥) نوابيع الكلم ٣٨ . (٧) المعجم : نواة الثمر .

ولهج بالعرب وبأخلاقهم ، وسخر بالشعوبية في قوله^(١) :

وقل هل فشا في الأرض غير لسانهم لسان فُشو الضوء واليوم شامس ؟
به عج في أمصارها كل منبر وطئت به في الخافقين المدارس
على ظهرها لم يخلق الله أمة تناسبهم في خصلة أو تلابس
تقاييس بين الناس حتى إذا انتهى إلى العرب المقياس طاح المقاييس
أجل رسول منهم وبُليستهم أجل كتاب فاعتبر يا منافس
وقل للشعوبيين إن حديثكم أضاليل من شيطانكم ووساوس
لكم مذهب فسل يُغر بئله أشاب حتى لا الرجال الأكاييس

وردد في كثير من كتبه إعجابه باللغة العربية وإثارة إيها ، وثناؤه على بلغاتها ، فقال في مقدمة كتابه (الفائق في غريب الحديث) إنها أفصح اللغات ، وبلاغتها أتم البلاغات ، وأثنى على عدنان وأبنائه ، وقحطان وأحيائه ، وعلى شعرائهم وخطبائهم الذين سحروا الناس ببلاغتهم .

وقال في كتابه (مقدمة الأدب) : « الحمد لله الذي فضل على جميع الألسنة لسان العرب ، كما فضل الكتاب المنزل به على جميع الكتب » .

لهذا كان براون محقا في قوله^(٢) : إن الزمخشري من أقوى المعارضين لمذهب الشعوبية ، وهو المذهب الذي يفضل المعجم على العرب في كل شيء .

(١) ديوان الزمخشري ٦١

(٢) تاريخ الأدب في إيران ٤٥٩

(٩)

قسوته على مخالفيه

كان للزنجشري مخالفون في مذهبه أهمهم ثلاث طوائف، وله مع كل منها موقف. أما الأولون فهم الشافعية والمالكية والحنابلة، لأنه كان حنفى المذهب^(١)، وقد باهى بحنفيته في قوله^(٢) :

وَأُسْنَدُ دِينِي وَاعْتِقَادِي وَمَذْهَبِي إِلَى حُنَفَاءِ أَخْتَارِهِمْ وَحُنَاتِقَا حَنِيفِيَةِ أَدْيَانِهِمْ حَنْفِيَّةٌ مِزَاجُهُمْ لَا يَبْتَغُونَ الزَّعَانِفَا وَقَالَ^(٣) : رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْعُلَمَاءِ الْخَاشِعِينَ مِنْ اللَّهِ وَحَسَابِهِ ، جَعَمُوا إِلَى الدِّينِ الْحَنِيفِيِّ الْعِلْمَ الْحَنِيفِي .

ولكنه على الرغم مما كان بين أتباع هذه المذاهب من خصومة في كثير من الأوقات والجهات لم يتمصب للحنفية، ولم يجرَّح مخالفهم، بل كان يورد الآراء المختلفة بغير تعليق تارة، وبترجيح مذهب على آخر تارة، وقد يختار مذهب الشافعية، كما نجد في تفسيره للآية الكريمة : « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْحِمِضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعَزَّلُوا النِّسَاءَ فِي الْحِمِضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَبْطُحُنَّ^(٤) » وكافي تفسيره للآية الكريمة : « وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنَصَفُ مَا فَرَضْتُمْ^(٥) » .

وأما الفريق الثانى فهم السنية، وقد قسا عليهم مرات، وسفه آراءهم، وضعف دينهم، ومن الإنصاف أن نذكر أن أهل السنة طالما خاصموا المعتزلة،

(١) تاريخ أبي الفدا ١٦/٣

(٢) ديوان الأدب ٧٨

(٣) أطوار الذهب ٥٢

(٤) سورة البقرة ٢٢٢ والكشاف ١٠٣/١

(٥) سورة البقرة ٢٣٧ والكشاف ١١٤/١

وحرصوا عليهم ، وكفروهم ، ولا شك أن الزمخشري كان يعلم هذا ، وكان يجد من السنية المعاصرين له تنكرا ومخاصمة ، فلقبهم بمثل ما يلقونه به .

من قسوته على السنية ما ذكره عند تفسير قوله تعالى : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم »^(١) فقال : « العزيز الحكيم » صفتان مقررتان لما وصف الله به ذاته من الوحدانية والعدل . فإن قلت : ما المراد بأولى العلم الذين عظمهم هذا التعظيم ، حيث جمعهم معه ومع الملائكة في الشهادة على وحدانيته وعدله ؟ قلت : هم الذين يثبتون وحدانيته وعدله بالحجج الساطعة ، والبراهين القاطعة ، وهم علماء العدل والتوحيد — يقصد المعتزلة — .

وقوله (إن الدين عند الله الإسلام) جملة مستأنفة مؤكدة للجملة الأولى ، لأن قوله (لا إله إلا هو) توحيد ، وقوله (قائماً بالقسط) تعديل ، فإذا أردفه قوله (إن الدين عند الله الإسلام) فقد أذن أن الإسلام هو العدل والتوحيد ، وهو الدين عند الله ، وما عداه فليس عنده في شيء من الدين . وفيه أن من ذهب إلى تشبيه أو ما يؤدي إليه كإجازة الرؤية ، أو ذهب إلى الجبر الذي هو محض الجور ، لم يكن على دين الله الذي هو الإسلام .

وقد عقب ابن المنير على هذا بما يماثله في القسوة والتجريح^(٢) .

وأما الفريق الثالث فهم المتصوفة ، ولا عجب في مخاصمتهم لهم ، لأن بين المعتزلة والمتصوفة اختلافا جسيما .

ذلك بأن المتصوفة دانوا بالجبر صراحة ، فقد روى عن أبي عبد الله أحمد ابن يحيى الجلاء قوله : « من استوى عنده المدح والذم فهو زاهد ، ومن حافظ

(١) سورة آل عمران ١٨ — ١٩

(٢) الكشف وهاشم ١٣٧/١

على القرائض في أول موافقتها فهو عابد ، ومن رأى الأفعال كلها من الله عز وجل فهو موحد لا يرى إلا واحدا^(١) » ، على حين أن المعتزلة يدينون بالحرية والاختيار .

والمتصوفة غالوا في تقدير النبي عليه الصلاة والسلام مغالاة لم يعرفها المسلمون الأولون ، ولم يقرها المعتزلة .

والمتصوفة يمتدنون في الولاية والأولياء اعتقادا خاصا ، فالأولياء في نظرهم أنواع وطبقات^(٢) ، ولهم كرامات^(٣) ، أما المعتزلة فلا يعترفون بالولاية على هذا النحو ، لأن المسلمين الطائعين في نظرهم أولياء الله وأحباؤه .

وقد اشتهر بعض المتصوفة في القرنين الرابع والخامس بمعاشرة الخالفين ، ورفقة النساء ، وصحبة الأحداث ، وإيثار العزوبة ، على الرغم من أن أكثر الصوفية القدماء كانوا متزوجين^(٤) ، وفي هذا يقول الحنجوري في القرن الخامس : إن شيوخ التصوفة متفقون على أن العزوبة هي اللاتقة بالتصوف ، لتكون قلوبهم خالية من المشاغل ، وطباعهم مبرأة من الشهوات والمعصية ، وأساس التصوف هو العزوبة ، أما الزواج فلغيرهم^(٥) .

والمتصوفة يتخذون وجدانهم وإلهامهم وسيلة للمعرفة ، على حين أن المعتزلة يجعلون وسيلتهم ما يفهمونه من القرآن والسنة وما يستنبطون منها بمقولههم . والمتصوفة يولون نفوسهم وأرواحهم عنايتهم ، والفقهاء والمعتزلة يهتمون بالعناية أعمالهم وظواهرهم .

(١) الرسالة القشيرية ٢٠ .

(٢) طبقات الشافعية للسبكي ٢/٢٣٧ وكشف المحجوب .

(٣) الرسالة القشيرية . باب الكرامات .

(٤) الرسالة القشيرية ٢٢ .

(٥) كشف المحجوب (النص الفارسي) .

والتصوفة يهيمون بالحب الإلهي غير متعلقين برغبة في ثواب أو رهبة من عقاب ، ولكن المتكلمين والفقهاء يعتمدون على العبادات ، أملا في الثواب وخوفا من العقاب .

وقد سَفَّه الزمخشري التصوفة ، فمن تسفيهه لهم وسخريته بهم ماذكره في سير قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ يَرْتَدُّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِيَ اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ، أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، أَمْزِجُهُ عَلَى الْكَافِرِينَ ، يَجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَأْمٍ » ^(١) . فقال : محبة العباد لربهم طاعته وابتغاء مرضاته ، وألا يفعلوا ما يوجب سخطه وعقابه ، ومحبة الله لعباده أن ينسبهم أحسن الثواب على طاعتهم ، ويمظلمهم ، ويثنى عليهم ، ويرضى عنهم ، وأما ما يعتقده أجهل الناس وأعداهم للعلم وأهله ، وأمتهم للشرع ، وأسوؤهم لطريقة - وإن كانت طريقتهم عند أمثالهم من الجهالة والسفهاء شيئا - وهم الفرقة المقتلة المتفائلة من الصوف - يقصد التصوفة - وما يدنون به من المحبة والعشق ، والتفنى على كراسيهم خربها الله ، وفي مراقصهم عطلها الله ، بأبيات الغزل المقولة في المزدان الذين يسمونهم شهداء ، وصعقاتهم التي أين منها صفة موسى عند ذلك الطور ، فتعالى الله عنه علوا كبيرا . ومن كلماتهم : كما أنه بذاته يحبهم كذلك يحبون ذاته ، فإن الماء راجعة إلى الذات دون النعوت والصفات . ومنها : الحب شرطه أن تلحقه سكرات المحبة ، فإذا لم يكن كذلك ، لم تكن فيه حقيقة ^(٢) .

وعَلَّقَ ابن النير بقوله : لاشك أن تفسير محبة المبدل لله بطاعته على خلاف الظاهر ، وهو من المجاز الذي يسمى فيه المسببُ باسم السبب ، والمجاز الذي لا يمدل إليه عن الحقيقة إلا بعد تعذرهما ، فليمتحن حقيقة المحبة لغة لينظر أهى ثابتة

(١) سورة المائدة ٥٤

(٢) الكشف ١/٢٦١

للعبد متعلقة بالله تعالى أم لا ؟ إذ المحبة لغة ميل المتصف بها إلى أمر لازمة ، واللذات المحبوبة منقسمة إلى مدرك بالحس كلكزة الذوق في الطعام . ولذة النظر وإلى لذة تدرك بالعقل كلكزة الجاه والرياسة والعلوم ، ثم تتفاوت المحبة بحسب تفاوت البواعث عليها ... وليس معلوم أكل ولا أجل من العبود الحق ، فاللذة الحاصلة في معرفته تعالى ومعرفة جلاله تكون أعظم ، والمحبة المنبعثة عنها تكون أمكن ، وإذا حصلت هذه المحبة بعثت على الطاعات والموافقات .

ومعنى هذا أن محبة العبد لربه ممكنة بل واقعة من كل مؤمن ، فهي من لوازم الإيمان وشروطه . والناس فيها متفاوتون بحسب تفاوت إيمانهم ، وإذا كان كذلك وجب تفسير محبة العبد لله بمعناها الحقيقية لغة ، وكانت الطاعات كالسبب عنها والغاير لها . ألا ترى إلى الأعرابي الذي سأل عن الساعة فقال له النبي عليه الصلاة والسلام : ما أعددت لها ؟ قال : ما أعددت لها كبير عمل ، ولكن حب الله ورسوله ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أنت مع من أحببت . فهذا الحديث ناطق بأن المفهوم من المحبة غير الأعمال والتزام الطاعات ، لأن الأعرابي نفاه ، وأثبت الحب ، وأقره النبي على ذلك .

ثم إذا ثبت إجراء محبة العبد لله تعالى على حقيقتها لغة ، فالمحبة في اللغة إذا أكدت سميت عشقا ، فمن تأكدت محبته لله تعالى ظهرت آثارها عليه ، من استيعاب الأوقات في ذكره وطاعته ، فلا يمنع أن تسمى محبته عشقا ، إذا العشق ليس إلا المحبة البالغة . وما أردت بهذا الفصل إلا تخليص الحق والاتصاف لأحباب الله عز وجل من الزمخشري ، فإنه خلط في كلامه الفث بالسمين ، فأطلق القول بالقدح الفاحش في المتصوفة من غير أن يتحرى ، ونسب إليهم ما لا يعبأ بمرتكبه ، ولا يعد في البهائم فضلا عن خواص البشر .

ولا يلزم من تسمى طائفة بهذا الاسم غاصبين له من أهله ، ثم ارتكابهم ما نقل عنهم مما ينافي حال السمين به حقيقة ، أن يؤاخذ الصالح بالطالح ، ولا تنزر وازرة وزر أخرى .

كما أن علماء الدين قد انتسب إليهم قوم سمو أنفسهم بأهل العدل والتوحيد، ثم خلعوا الرتبة فجحدوا صفات الله تعالى وقضاه وقدره ، وقالوا : إن الأمر أنف ، وجعلوا أنفسهم شريكة في المخلوقات . فلا يسوغ لنا أن نقدح في علماء أصول الدين مطلقاً ، لأنهم قد انتسب إليهم من لا حيلة لهم في نفيه عن التسمي بنعتهم ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها .

ولا شك أن في الناس من أنكر تصور محبة العبد لله إلا بمعنى طاعته له لا غير ، وهو الذي انحاز إليه الزمخشري ... قال الغزالي : والمحبون لله يقولون لمن أنكر عليهم ذلك « إن تسخروا منا فإننا نسخر منكم كما تسخرون » ^(١) .

ومن سخريته بهم قوله في تفسير الآية الكريمة : « هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً ، ويُنبِئُ السحاب الثقال ، ويُسَبِّحُ الرعدُ بحمده والملائكة من خيفته ، ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء » ^(٢) . قال : ويسبح سامع الرعد من العباد الراجلين للمطر ، ومن يدع المتصوفة أن الرعد صعقات للملائكة ، والبرق زفرات أفئدتهم ، والمطر بكاؤهم ^(٣) .

(١٠)

عزوبته

عاش الزمخشري أعزب كما عاش بعض سابقيه من العلماء والأدباء ، مثل محمد ابن جرير الطبري ^(٤) ، وأبي حيان التوحيدي ^(٥) ، وإذا كان سابقوه لم يبرروا إيتارهم للعزوبة ، ولم يغلوا لها ، فإنه قد بررها ، وغلل لها ، ولكن تعليله غريب .

(١) هامش الكشف ٢٦١/١

(٢) سورة الرعد ١٣

(٣) الكشف ٤٩٠/١

(٤) الطبري للمؤلف ٤٩

(٥) أبو حيان التوحيدي للمؤلف ١٨٥

فهو مرة يشفق على الآباء الذين يجهدون في تربية أبنائهم ، مؤملين لهم الخير والعلاء ، ومتشوقين إلى أن يسمعوا بهم ، وتقر أعينهم ، ولكن هؤلاء الأبناء يصيرون أذلة ، لا يحققون شيئا مما أمله آباؤهم ، وهو لهذا آثر العزوبة التي شبهها بالرهبة في المسيحية ، وارتضاها لنفسه ، واستراح إليها ، فقال ^(١) :

تصفحت أولاد الرجال فلم أكد أصادف من لايفضح الأم والآبا
رأيت أبا يشقى لتربية ابنه ويسى لى يدعى مكيساً ومنجبا
أراد به النش الأغر فما درى أبوليه خجراً أم يُعَنِّيهِ منكبا
أخو شقوة مازال مركب طفله فأصبح ذاك الطفل للناس مركبا
لذلك تركت النسل واخترت سيرة مسيحية أحسن بذلك مذهبا

ولا شك أن هذه محاولة للتبرير ، ولكنها أبداً ما تكون عن الإقناع ، وأرجح أنه هو نفسه لم يكن مقتنعا بها ، ولعله ساقها مساق المغالطة والمجادلة ، لأن الأبوة والأمومة ميل في الفطرة أصيل ، ولأن أكثر الأبناء لا ينطبق عليهم تشاؤمه . ثم إن الإسلام لا يرتضى هذه الرهبة من قادر على الزواج .

والمعجب أنه دافع عن العزوبة مرة أخرى ^(٢) بأن الابن إذا ارتكب جرماً فاضحا كانت فضيحة الأب أشنع ، وإذا كان الأبناء مجلبة للضرر فإن ترك النسل أصوب ، وأدعى إلى الطمأنينة وسلامة المرض :

كانكم لم تسموا أن من له عيال شقى دهره ليس يفلح
قيح بمشلى والبنون كما أرى جنود فساد ليس في الألف مصلح
إذا ارتكب الابن الخليع فضيحة فذاك لعمر الله للأب أفضح

(١) الديوان ٨

(٢) الديوان ٢٦

وكل صنيع ليس للنفع جالبا وجراً والضرر فالترك أروح^(١)
وقد سبق في مؤلفاته أنه تبنّاها وامتزجت بها نفسه ، فأثرها على الأبناء ، وهو
يكسر هذا ، ويشفع إلى مؤلفاته تلاميذه وقراء كتبه ، ورواة علمه في قوله^(٢) :

وحسبي تصانيفي وحسبي رواياتي بنين بهم سيقت إلى مطالبي
إذا الأب لم يأمن من ابن عقوقه ولا أن يعق الإبن بغض النواذب
فإني منهم آمن وعليهم وأعقابهم أرجوهم للموقب
وهو في مرة ثالثة يتهيب الحياة الزوجية ، ويقرنها بالسباحة في البحر
الهائج ، فيقول^(٣) : ما أدرى أيهما أشقى : أمن يعوم في الأمواج ، أم من يقوم
على الأزواج ؟



(١) أروح : أكثر راحة .

(٢) الدعوان ٨ .

(٣) نوافل الكلام ٣٦ .

الفصل المتأخر

في رِجَابِ التفسير والتأويل

لمحة إلى التفسير قبل الزمخشري

التفسير الإبانة والتوضيح، وهو التأويل بمعنى واحد في رأى، وفي رأى آخر أن التفسير كشف المراد عن المشكل، والتأويل رد أحد المحتملين إلى ما يوافق الظاهر

١ — عاش المسلمون ردحا من الزمن متخرجين من تفسير القرآن الكريم بآرائهم، مكثفين بالنقل عن الرسول صلى الله عليه وسلم، أو بالأخذ عن الصحابة، أو بفهم ما عليه اللغة ويقتضيه التعبير وروح الشريعة.

فلما تقدم الزمن، وتقدمت الثقافة، وتطور التفكير، واحتدم الخلاف السياسي والمذهبي خطا المفسرون من طور الاعتماد على النقل إلى طور الاجتهاد والاعتماد على العقل، فلم يتخرجوا من تفسير القرآن حسب آرائهم؛ لأنهم رأوا في التخرج عدولا عن التفكير والنظر واستنباط الأحكام، ولوصح ما ذهب إليه المتخرجون لم يستطع أحد أن يستنبط شيئا، بل لم يفهم كثيرا مما تضمنه كتاب الله.

ورأى هؤلاء أن الحديث الذي ينهى عن التفسير بالرأى — على فرض صحته — مراد به الرأى الذي لا يعتمد على أصل ثابت، ولا يستند إلى روح الشريعة، بل يذهب مع الهوى، ولهذا اجتهد كثير من العلماء في تفسير القرآن الكريم، واعتمدوا على آرائهم، لأنهم مستكملون للعدة التي يجب أن تتوفر

للمفسر ، وجعل التفسير منذ القرن الثالى يتأثر باتجاهات المفسرين ، وبصطيف
بثقافتهم .

فالنحاة — كالزجاج والواحدى وأبى حبان — يهتمون بالمسائل النحوية
وتحريجها ، ويعربون القرآن إعرابا يساعد على تفسيره ، وبعنون بالمشكلات
النحوية فى مثل قوله تعالى : « هذان خصمان اختصموا فى ربهم » وقوله
تعالى : « إن هذان لساحران » .

واللغويون — كأبى عبيدة وقطرب — يؤلفون كتباً فى غريب القرآن ،
ويهتمون بالمشكلات اللغوية .

وهؤلاء وأولئك لم كتب تسمى معانى القرآن .

وآخرون اتجهوا إلى المجازات فى نحو قوله تعالى : « فبشرهم بمذاب أليم »
والفقهاء عنوا بآيات الأحكام ، وألفوا كتباً مثل كتاب أحكام القرآن
على مذهب مالك ، وكتاب أحكام القرآن على مذهب أهل العراق لأنى بكر
الرازى ، وكتاب أحكام القرآن للشافعى .

والمشتغلون بالعلوم العقلية حشدوا آراء الفلاسفة والحكماء فى تفسير بعض
الآيات ، مثل الفخر الرازى ، والمتصوفة لونوا تفسيرهم بأرثهم كابن عربى الأندلسى .
وعلماء الكلام أولوا بعض الآيات تعزيز المذهبهم ، مثل الزمخشرى ^(١) .

٢ — وكان لابد للمفسر أن يكون موهوباً وعالماً باللغة والنحو والصرف
والاشتقاق والمعانى والبيان والبديع والقراءات والأصول وأسباب النزول
والناسخ والمنسوخ والحديث والفقه .

ويذكر الزمخشرى أن المفسر يجب أن يكون على معرفة بالعلوم كلها ،

(١) ضحا الإسلام ١٤٦/٢ والطبرى ٩٩ - ١٠٧ للمؤلف .

وأن يكون خفيفاً قلادة لما يقرأ ولما يسمع ، وأن يتمرس بحفظ النصوص البليغة ، ويتبلى بالنظر في الأساليب « ثم إن أملاً العلوم بما يضر القرائح ، وأنهبها بما يبهز الألباب القوارح ، من غرائب نكت يلفظ مَسْلُكُهَا ، ومستودعات أسرار يدق سِلْكُهَا ، علم التفسير الذي لا يتم لتعاطيه وإجالة النظر فيه كل ذي علم — كما ذكر الجاحظ في كتاب نظم القرآن — فالفقيه وإن برز على الأقران في علم الفتاوى والأحكام، والمتكلم وإن برز أهل الدين في صناعة الكلام، وحافظ القصص والأخبار وإن كان من ابن القرية أحفظ ، والواعظ وإن كان من الحسن البصري أوعظ ، والتحوي وإن كان أنحى من سيبويه ، والفقوى وإن ملك اللغات بقوة لَحْنِيهِ ، لا يتصدى منهم أحد لسوك تلك الطرائق ، ولا يفوص على شيء من تلك الحقائق ، إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن ، وهما علم المعاني وعلم البيان ، وعمل في ارتيادها آونة ، وتعبد في التنقيب عنها أزمنة ، وبعثته على تتبع مظانها مهمة في معرفة لطائف حجة الله ، وحرص على استيضاح معجزة رسول الله ، بعد أن يكون آخذاً من سائر العلوم بحظ ، جامعاً بين أمرين : تحقيق وحفظ ، كثير المطالعات ، طويل المراجعات ، قد رجع زماناً ورجع إليه ، وردَّ وردَّ عليه ، فارساً في علم الإعراب ، مقدماً في جملة الكتاب ، وكان مع ذلك مسترسل الطبيعة متقادها ، مشتمل القرينة وقادها ، يقظان النفس ، دَرَّ اكاً لللمحة وإن لطف شأنها ، منتبها على الرزمة وإن خفي مكانها ، لا كزَّ اجاسيا، ولا غليظا جافيا، متصرفا ذا دراية بأساليب النظم والنثر ، قد علم كيف يرتب الكلام ويُؤلف ، وكيف ينظم ويُرَصِّف ، طالما دفع إلى مضايقه ، ووقع في مداخضه ومزالقه » (١) .

ويكرر التنبيه على التدقيق والخبرة بعلمى المعاني والبيان ، ويعمل لهذا بأن

القرآن معجز بنظمه لا بالصرفة ، فالنظم هو أم إعجازه ، والقانون الذي وقع عليه التحدى ، ومراعاته أم ما يجب على المفسر ^(١) .

ويبدو من كلامه هذا أنه تأثر بما رده عبد القاهر الجرجاني في كتابيه أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز ، واطمأن إلى ما دعا إليه الجرجاني من أن الحكم بالجمال لا قيمة له إذا لم يؤيد بالكشف عن سر هذا الجمال « إن من الآفة من زعم أن لاسبيل إلى معرفة العلة في قليل ما تعرف المزية في كثيره ، وأن ليس إلا أن تعلم أن هذا التقديم وهذا التفكير أو هذا العطف أو هذا الفصل حسن ، وأن له موقعا من النفس وحظا من القبول . فأمّا أن تعلم : لم كان كذلك ؟ وما السبب ؟ فما لاسبيل إليه ، ولا مطمع في الاطلاع عليه ، فهو بتوانيه والكسل فيه في حكم من قال ذلك .

واعلم أنه ليس إذا لم يمكن معرفة الكل وجب ترك النظر في الكل ، وأن تعرف العلة والسبب فيما يمكنك معرفة ذلك فيه وإن قل ، فتجعله شاهدا فيما لم تعرف أخرى من أن تسد باب المعرفة على نفسك ، وتأخذها عن الفهم والتفهم ، وتعودها الكسل والهويناء .

قال الجاحظ : وكلام كثير قد جرى على ألسنة الناس ، وله مضرة شديدة وثمرة مرة ، فمن أضر ذلك قولهم : لم يدع الأول للآخر شيئا . فلو أن علماء كل عصر مذكرت هذه الكلمة في أسماعهم تركوا الاستنباط لما لم ينته إليهم عن قبلهم لرأيت العلم مختلا .

واعلم أن العلم إنما هو معدن ، فكما أنه لا يمكنك أن ترى ألف وقر — حل — قد أخرجت من معدن تتر أن تطلب فيه ، وأن تأخذ ما تجد ولو كقدر تومة — لؤلؤة — كذلك ينبغي أن يكون ذلك في طلب العلم ^(٢) .

(١) الكشف ٢٤/٢

(٢) دلائل الإعجاز ٢٢٦

« إنك لن تعلم في شيء من الصناعات علما يَمُرُّ فيه وتُجلى حق تكون ممن يعرف الخطأ فيها من الصواب، ويفصل بين الإساءة والإحسان، بل حق تفاضل بين الإحسان والإحسان، وتعرف طبقات المحسنين.

وإذا كان هذا هكذا علمت أنه لا يكفي في علم الفصاحة أن تنصب لها قياسا، وأن تصنفها وصفا مجملا، وتقول فيها قولاً مرسلاً، بل لا تكون من معرفتها في شيء حتى تُفصل القول وتُحصّل، وتضع اليد على الخصائص التي تعرض في نظم الكلم، وتمدها واحدة واحدة، وتسنيها شيئاً شيئاً، وتكون معرفتك معرفة الصنم الحاذق الذي يعلم علم كل خيط من الإبريسم الذي في الدياج، كل قطعة من القطع المنجورة في الباب المقطّع، وكل آجرة من الأجر الذي في البناء البديع^(١). وقد طبق الجرجاني نظريته في كتابيه الدلائل والأسرار على كثير من الآيات القرآنية والنصوص الأدبية.

ثم جاء الزمخشري فعنى بالكشف عن الإعجاز الكامن في نظم القرآن الكريم
٣ — عني بعض سابقيه بالتفسير اللغوي البلاغي، مثل أبي عبيدة معمر بن المثنى (المتوفى سنة ٢١١ هـ) ولكن جهده يتضاءل إذا قيس بمجهود الزمخشري.
٤ — وسبقه إلى التأويل على مذهب المعتزلة كثير من علمائهم، وإن لم يصل إلينا من إنتاجهم إلا القليل، فقد أقبلوا على تفسير القرآن الكريم وتأويله إقبالا، فظهر منهم عشرات منذ ألف وأصل بن عطاء (المتوفى سنة ١٣١ هـ) كتابه معاني القرآن^(٢) وألف قطرب—محمد بن المستنير— (٢٠٦ هـ) خمسة كتب في الدراسات القرآنية هي: معاني القرآن، والرد على الملحدين في متشابه القرآن، وإعراب القرآن، ومتشابه القرآن، ومجاز القرآن^(٣). وتتابع مفسروهم كآبي

(١) المرجع السابق ٣٠.

(٢) معجم الأدباء ١٩ / ٢٤٧.

(٣) معجم الأدباء ١٩ / ٥٣.

بكر عبد الرحمن الأصم (٢٤٠) ^(١) وأبي علي محمد الجبائي (٣٠٣) ^(٢) وأبي القاسم عبد الله البلخي الكوفي (٣١٩) ^(٣) وأبي هاشم عبد السلام الجبائي (٣٢١) ^(٤) وأبي مسلم محمد بن بحر الأصفهاني (٣٢٢) ^(٥) وأبي الحسن علي الرماني (٣٨٤) ^(٦) وأبي القاسم عبيد الله الأسدي (٣٨٧) ^(٧) .

ثم جاء القاضي عبد الجبار (٤١٥) فآلف كتابه (تنزيه القرآن عن المطاعن) ، وبعده الشريف المرتضى (٤٣٦) فتناول كثيرا من آراء المعتزلة ، وطبق الآيات القرآنية عليها في أماليه (غرر الفوائد ودرر القلائد) وهي مطبوعة ، وبعدها أبو يوسف القزويني (٤٨٣) الذي آلف تفسيراً كبيراً بث فيه آراء المعتزلة ، ومزجه بمعتقداتهم ، وهو ضخيم في ثلاثمائة مجلد ، منها سبعة مجلدات في الفاتحة وحدها ^(٨) .

وليس أدل على كثرة مفسري المعتزلة من أن الذين بين واصل بن عطاء وأبي يوسف القزويني أكثر من ثلاثين معزلياً ، لهم في التفسير وما يتصل به مؤلفات تبلغ نحو المئة ، ولكن أكثرها مفقود ^(٩) .
ومن حق القاضي عبد الجبار على من يدرس الزمخشري أن يدرس آراءه ،

(١) الفهرست ٥١

(٢) طبقات المفسرين ٢٣ والفهرست ٥٠

(٣) الفهرست ٥١

(٤) طبقات المفسر ٣٣

(٥) الفهرست ٥٠ وبنية الرواة ٢٣

(٦) طبقات المفسرين ٢٤

(٧) طبقات المفسرين ١٩

(٨) طبقات المفسرين ١٩

(٩) تجد أسماءهم ومؤلفاتهم في الفهرست لابن النديم وطبقات المفسرين وبنية الرواة للسيوطي ولإبواب الرواة للقفطي ومعجم الأدباء لياقوت والمنية والأمل للمرتضى ووفيات الأعيان لابن خلكان وكشف الظنون لحاجي خليفة .

لأنّ بينها وبين تفسير الزمخشري كثيراً من المشابهة في الفكرة وفي الطريقة ، ولكن كتابنا هذا لا يتسع للدراسة المفصلة ، فلنم بها إلامة سريعة .

أما القاضي عبد الجبار فهو قاضي القضاة أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد ابن عبد الجبار الهمداني الأسد باذي الشافعي ، كان في عصره شيخ المعتزلة ، وقد استدعاه صاحب بن عباد إلى الري وولاه ، قضاءها ، وبقي بها يدرس إلى أن مات ، وكان صاحب يثني عليه ، ويصفه بأنه أعلم أهل الأرض .

وله مؤلفات كثيرة في علم الكلام والأصول والفقه والتفسير^(١) .
وأما كتابه (تزيه القرآن عن المطاعن)^(٢) فليس تفسيراً كاملاً يستوعب القرآن كله ، لأن مؤلفه لم يقصد إلى هذا ، بل قصد إلى الآيات المتشابهة لبيان خطأ بعض الناس في فهمها وفي تأويلها ، ويكشف عما يراه ، متبعاً بناء الكتاب على المسائل التي تعنيه من كل سورة ، سواء أكانت راجعة إلى الأسلوب أم إلى العقيدة .
فيقول مثلاً في تفسير قوله تعالى : « ذلك الكتاب لا ريب فيه »^(٣) .

مسألة : متى قيل : لماذا قال تعالى (ذلك الكتاب) ولم يقل هذا الكتاب؟
فجوابنا : أنه عز وجل وعد رسوله إزال كتاب عليه لا يمحوه الماء ، فلما أنزل ذلك قال (ذلك الكتاب) والمراد ما وعدتك ، ولو قال هذا الكتاب لم يفد هذا الغائب^(٤) .

مسألة : قالوا : ما معنى لا ريب فيه ؟ وقد علمت أن خلقا يشكون في ذلك ، فكيف يصح ذلك ؟ وإن أراد لا ريب فيه عندي وعند من يعلم فلا فائدة في ذلك .

(١) خبرات الذهب ٣ / ٢٠٢ وطبقات المفسرين ١٦ .

(٢) مطبوع في مجلد واحد

(٣) سورة البقرة ٢

(٤) ذكر الزمخشري رأيين في استعمال (ذلك) هنا ، أحدهما ما ذكره عبد الجبار

(الكشاف ١ / ١٤)

فجوابنا : أن المراد أنه حق يجب ألا يرتاب فيه ، وهذا كما يبين المرء الشيء
لخصمه ، فيحسن منه بعد البيان أن يقول : هذا كالشمس واضح ، وهذا لا يشك
فيه أحد ، وهذا كما يقال عند إظهار الشهادتين إن ذلك حق وصدق ، وإن
كان في الناس من يكذب بذلك ^(١) .

ويقول في تفسير قوله تعالى : « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم
غشاوة » ، ولهم عذاب عظيم ^(٢) .

مسألة : قالوا : فقد قال تعالى (ختم ...) وهذا يدل على أنه ممنهم من
الإيمان ، ومذهبكم بخلافه ، وكيف تأويل الآية ؟ :

وجوابنا : أن للعلماء في ذلك جوابين : أحدهما أنه شبه حالهم بحال المتنوع
الذي على بصره غشاوة ، من حيث أزاح كل عليهم فلم يقبلوا ، كما قد تمين للواحد
الحق ، فتوضحه ، فإذا لم يقبل صح أن تقول حمار طبع الله على قلبه ، وربما تقول
إنه ميت ، وقد قال تعالى للرسول : « إنك لاتسمع الموتى » ^(٣) وكانوا أحياء ،
فلما لم يقبلوا شبههم بالموتى ، وهو كقول الشاعر .

لقد أستمعت لو ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تُنادى

وبين ذلك أنه تعالى ذمهم ، ولو كان هو المانع لهم لما ذمهم ، وأنه ذكر
في جملة ذلك الغشاوة على سمعهم وبصرهم ، وذلك لو كان ثابتاً لم يؤثر في كونهم
عقلاء مكلفين .

والجواب الثاني : أن الختم علامة يفعلها تعالى في قلوبهم ، لتعرف الملائكة
كفرهم ، وأنهم لا يؤمنون ، فتجتمع على ذمهم ، ويكون ذلك لطفاً لهم ، ولطفاً لمن

(١) تنزيه القرآن عن الطاعن ٦ وفي الكشف ما يشبه هذا ١ / ١٥

(٢) سورة البقرة ٧

(٣) سورة النمل ٨٠

يعرف ذلك من الكفار أو يظنه ، فيكون أقرب إلى أن يقلع عن الكفر .
وهذا جواب الحسن رحمه الله ، ولهذا قال تعالى « ولهم عذاب عظيم » ^(١) .

وينفي وقوع رؤية الخلق لله في الآخرة ، فيقول في تفسير قوله تعالى :
« وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة » ^(٢) : ربما قيل إنه أقوى دليل على أن
الله تعالى يرى في الآخرة

وجوابنا : أن من تعلق بذلك إن كان ممن يقول بأن الله تعالى جسم ، فإننا
لا ننازعه في أن يرى ، بل في أن يصافح ويعانق ويلبس ، تعالى الله عن ذلك ،
وإما نكلمه في أنه ليس بجسم .

وإن كان ممن ينفي التشبيه عن الله فلا بد من أن يعترف بأن النظر إلى
الله تعالى لا يصح ، لأن النظر هو قلب العين الصحيحة نحو الشيء طلباً لرؤيته ،
وذلك لا يصح إلا في الأجسام .

فيجب أن يتأول على ما يصح النظر إليه وهو الثواب (يريد : إلى ثواب
ربها ناظرة) كقوله تعالى : « واسأل القرية » ^(٣) فإننا تأولناه على أهل القرية
لصحة المسألة منهم ^(٤) .

وعلى مثل هذا النهج يسير القاضي عبد الجبار في تأييد آراء المعتزلة والدفاع
عنها ، متذرعاً بالفكر ، وبالتحليل البلاغي ، وحمل الكلام في كثير من الآيات
على التشبيه والمجاز .

(١) تنزيه القرآن عن المطام ٩ وفي الكشاف حصة أوجه في هذه الآية (الكشاف
٢١/١) .

(٢) سورة القيامة ٢٢ ، ٢٣

(٣) سورة يوسف ٨٢

(٤) تنزيه القرآن عن المطام ٣٥٨ وفي الكشاف (٢ / ٥٠٩) أن المعنى وجوه
يومئذ إلى نعمة الله وكرامته راجية

الكشاف

الباعث على تأليفه

١ — السبب الأول في تأليفه أن جماعة من المعتزلة كانوا يرجعون إليه في تفسير بعض الآيات، فيبرز لهم حقائقها، فيفيضون في الاستحسان والتعجب، ويستطربون شوقاً إلى مصنف يضم أطرافاً من ذلك، ثم اجتمعوا إليه مقترحين أن يملى عليهم الكشف (أو الكشاف) عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، فاستفاهم، فأبوا إلا المراجعة، والاستشفاع بعظماء الدين وعلماء العدل والتوحيد، فأملى عليهم مسألة في فوائح السور، وطائفة من الكلام في حقائق سورة البقرة، في كلام مبسوط كثير السؤال والجواب.

٢ — فلما توجه إلى مكة وجد في البلاد التي اجتازها شوقاً إلى ما أملاه على بعض المعتزلة، وحرصاً على اقتباسه، فتحرك نشاطه إلى إكماله.

٣ — وحينما بلغ مكة وجد أميرها أبا الحسن علي بن حمزة بن وهّاس أشد الناس شوقاً إلى هذا التفسير، حتى إنه كان يحدث نفسه في مدة غياب الزمخشري عن الحجاز — مع كثرة مشاغله — بالوفادة عليه بخوارزم.

وحينئذ لم يجد الزمخشري بدا من النهوض بتفسير القرآن كله، وهو يختم حديثه عن هذا بقوله: « فقلت قد ضاقت على المستعنى الحيل، وعيّت به العلل، ورأيتني قد أخذت منى السن، وتقعقع السن، وناهرت العشر التي سمتها العرب دَقَاقَةَ الرقاب ^(١)، فأخذت في طريقة أخصر من الأولى، مع ضمان التكثير من الفوائد، والفحص عن السرائر.

ووفق الله وسدد ، ففرغت منه في مقدار مدة خلافة أبي بكر الصديق ، وكان يقدر تمامه في أكثر من ثلاثين سنة «^(١)

وإذ كان الفراغ من تأليفه يوم الاثنين الثالث والعشرين من ربيع الآخر سنة ٥٢٨ هـ تجاه الكعبة في جناح داره السليمانية التي على باب أجياد، الموسومة بمدرسة العلامة ^(٢) ، وقد ألفه في سنتين ، فإن الذي يفهم من هذا أنه بدأ يؤلفه سنة ٥٢٦ هـ ، وهو في التاسعة والخمسين أو في أول الستين من عمره ، قبل أن يؤلف أساس البلاغة ، بدليل ما ذكره في ماله (حفر) بالأساس .

بعض من نقل عنهم

قرأ الزمخشري تفاسير سابقه من معتزلة وغير معتزلة ، ونقل عن هؤلاء وهؤلاء . فمن نقل عنهم القاضي عبد الجبار كما سبق ، ومجاهد (المتوفى سنة ١٠٤ هـ) كما نجد في تفسيره لقوله تعالى : « وقال ربكم ادعوني أستجب لكم »^(٣) .

فقال : إن المعنى اعبدوني ، والدعاء بمعنى العبادة كثير في القرآن ، وبدل عليه قوله تعالى : « إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين »^(٤) ، والاستجابة الإثابة ، وفي تفسير مجاهد : اعبدوني أثبكم^(٥) .

ومنهم عمرو بن عبيد المنزلي (١٤٤ هـ) فهو ينقل عنه كثيراً ، وكتابه لم يصل إلينا ، كما نجد في تفسيره للآية الكريمة « فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً »^(٦) فإنه قال : قرأ الحسن جان على لغة من يجد في الهرب من التقاء

(١) مقدمه الكشف ٢ / ١

(٢) خاتمة الكشف بخط المؤلف ٥٧٠ / ٢

(٣) سورة غافر ٦٠

(٤) تكملة الآية السابقة

(٥) الكشف ٢ / ٢٢٠ ونقل عنه أيضاً في ٢ / ٤٦٥

(٦) سورة النمل ١٠

ساكنين ، فيقول شابة ودابة ، ومنها قراءة عمرو بن عبيد « ولا الضالين »^(١)
ومنها أبو بكر الأصم المتزلى (٥٢٤) وتفسيره لم يصل إلينا .
ومنها الزجاج (٣١١) ، كما في تفسيره لقوله تعالى : « هيهات هيهات
لما توعدون »^(٢) فإنه عقب بقوله : فإن قلت « ما توعدون » هو المستبعد ،
ومن حقه أن يرتفع في هيهات كما ارتفع في قول الشاعر : فيهيات هيهات العقيق
وأهله ، فما هذه اللام ؟

قلت : قال الزجاج في تفسيره : البعد لما توعدون ، أو بُعِدَ لما توعدون ،
فيمى نون ، فنزل منزلة المصدر ، وفيه وجه آخر وهو أن تكون اللام لبيان
المستبعد ما هو بعد التصويت بكلمة الاستبعاد ، كما جاءت اللام في (هيت لك)^(٣)
لبيان المهيب به^(٤) . كذلك نقل عنه تفرقه بين الشروق والإشراق ، لأن
الزجاج ذكر في كتابه (معاني القرآن) عند تفسير قوله تعالى « إننا سنخرن الجبال
معه يُسْبَحْنَ بالمشى والإشراق »^(٥) أن الإشراق طلوع الشمس وإضاءتها ،
يقال شرقت الشمس إذا طلعت ، وأشرقت إذا أضاءت ، وقيل إنهما
معنى واحد .

وقال الزمخشري إن الإشراق هو حين تشرق الشمس أى تضيء . ويصفون
شعاعها ، وهو وقت الضحى ، وإنما شروقها فطلوعها ، يقال شرقت ولما
تُشرق^(٦) .

(١) الكشاف ٢ / ١٣٨

(٢) سورة المؤمن ٣٦

(٣) سورة يوسف ٢٣

(٤) الكشاف ٢ / ٧٣

(٥) سورة مريم ١٨

(٦) الكشاف ٢ / ٢٧٨

وقال مثل هذا في أساس البلاغة ^(١) .

ومنهم الرماني المعتزلي (٣٨٤ هـ) صاحب التفسير الذي لم يبق منه إلا جزء عم ، فقد نقل ما ذكره في تفسير قوله تعالى : « يوم ينظر المرء ما قدمت يداه » أن المرء هنا هو الكافر ، لقوله تعالى « إنا أنذرناكم عذابا قريبا ، يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر ياليتني كنت ترابا » والكافر ظاهر وضع موضع الضمير لزيادة الذم ، وقيل للمرء عام وخصص منه الكافر ، وعن قتادة هو المؤمن ^(٢) .

ومنهم عبد الله بن درستويه ، فقد نقل من كتابه (الكتاب للنسم في الخط والمجاه) ^(٣) .

وكذلك نقل من غير هؤلاء ، مثل سيويوه ^(٤) (صاحب الكتاب) ، وأبي على مؤلف (الحجة) ^(٥) ، والجاحظ فقد أحال إلى كتاب (الحيوان) لمعرفة غرائز الإنسان ^(٦) ، والواقدي فقد نقل عنه تعيين الحديبية بأنها طرف الحرم على تسعة أميال من مكة ^(٧) .

على أننا نجد في تفسيره ترديدا لأسماء مثاث من القراء واللغويين والنحاة والفقهاء والمفسرين ، مثل الحسن بن علي ، وعبد الله بن عباس ، و قتادة ، وعلي بن الحسين ، وعبد الله بن عمرو ، وعروة بن الزبير ، وسعد بن المسيب ، ومقاتل ، ومجاهد ، وعكرمة وعائشة ، وأبي ذر ، والثووي ، وسفيان بن عيينة ، والضحاك ، وسعيد بن جبير ، والشعبي

(١) مادة شرق

(٢) سورة البأ ٤٠ وتفسير جز عم للرماني ورقة ٢٨ والكشاف ٢ / ٢٠٥

(٣) الكشاف ١ / ١٢

(٤) الكشاف ١ / ١٢

(٥) الكشاف ١ / ١٠

(٦) الكشاف ٢ / ١٤٢

(٧) الكشاف ١ / ٩٣

وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلى بن أبي طالب، وأبي هريرة، وأبي حنيفة،
وسعيد بن جبير، والشافعي، وإبراهيم النخعي، وعبد الله بن مسعود، والأوزاعي،
والزهري، والزجاج، والكسائي، وأبي عبيدة، وابن سيرين .

وقد حفل الكشف بكثير من المسائل والقضايا ، جديرة بأن يفرد لكل
منها مبحث خاص ، لأنها تناول آراء المعتزلة ، ومسائل كثيرة في اللغة والنحو
والبلاغة ، وتمحيص بعض الآراء والتعليل لبعضها ، وهذه كلمة في كل منها .

أولاً - في خِصْمِ الإِعْتِزَالِ

لمحة إلى المعتزلة

المعتزلة فرقة دينية نشأت في العراق ، ثم ذاعت آراؤها بالعراق ومأحوله .
وهي في نشأتها امتداد لفرقة المرجئة ، لأن الفرقتين تتشابهان في التوقف
عن الحكم على كلا الحزبين من أصحاب الجمل وأصحاب صفين ، وفي وصف
مرتكب الكبيرة بأنه ليس كافراً ، وفي القول بحرية العبد واختياره ، إذ أن
بعض المرجئة مثل معبد الجهني وغيلان الدمشقي والجعد بن درهم سبقوا المعتزلة
إلى القول بالحرية والاختيار ، ودان بهذا الرأي وأصل بن عطاء وعمر بن
عبيد ، وهما المؤسسان لفرقة المعتزلة .

ثم إنها في تطورها متأثرة بالتقافات الأجنبية ولاسيما الفلسفة اليونانية ،
إذ كانت ذات سلطان على الفكر الراق في الشرق منذ زمن بعيد قبل أن يستهل
الإسلام ، وبخاصة فلسفة أفلاطون (٢٠٥ — ٢٧٠ م وهو الذي يطلق العرب
على فلسفة مذهب الإسكندرانيين ، ويسميه الشهرستاني الشيخ اليوناني ، وقد

وقد تنوع مذهبه وتفرع بالإسكندرية والشام وأثينا، ثم ازدادت للفلسفة اليونانية انتشاراً ونفوذاً منذ عهد كسرى أنوشروان (٥٣١ - ٥٧٩ م) لأن جوستينيان ناصر المسيحية، وأغلق مدارس الفلسفة في أثينا، واضطهد الفلاسفة، ففر بعضهم إلى فارس، حيث رحب بهم كسرى أنوشروان، وأسس لهم مدرسة فلسفية بجنديسابور، فعملوا بها الفلسفة والرياضة والطب ومنطق أرسطو^(١)، ثم تنصر بعضهم، وصيغ نصرانيته بفلسفته.

وفي هذا الوقت ألف بولس برسا المسيحي مختصراً لمنطق أرسطو باللغة السريانية، ليقرأه كسرى « غرض فيه الآراء المختلفة الخاصة بالله والعالم على هذا النحو: لقد وجد من يعتقدون في إله واحد، ويدعي آخرون أنه ليس بواحد، ويقول آخرون إن له صفات متعددة، وينفي آخرون عنه الصفات، وبعضهم يقول إنه قادر على كل شيء، وبعضهم يقول إن قدرته لا تشمل كل شيء، وبعضهم يقول إنه خلق الدنيا وكل ما فيها، وآخرون يقولون إنه ليس خالق كل شيء، وهناك من يقول إن العالم محدث، وآخرون يقولون إنه عالم قديم». وقد عقب (كاسارتلي) على هذا بأن المؤلف وصف الآراء الشائعة في صلب الديانة الإيرانية نفسها في الوقت الذي عاشت فيه^(٢).

وكان السريان يساهمون في نشر الأفلاطونية الحديثة بالعراق وما حوله، إذ كانت لهم مراكز علمية بالرها ونصيبين وحران وجنديسابور، وكانوا يترجمون من اليونانية إلى السريانية، ثم ترجموا من السريانية إلى العربية، واستمر جهدهم هذا من القرن الرابع إلى العاشر الميلادي^(٣).

(١) تاريخ الفلسفة في الإسلام ١٨ - ٢١ دي بور

(٢) إيران في عهد الساسانيين ٤١١ كريستنسن

(٣) تاريخ الفلسفة في الإسلام ١٩ دي بور

ومن أشهر رجالهم (ابن ديسان إبار ديسان المتوفى سنة ٢٢٢ م) الذى كان ينسكرك بعث الأجسام ، ويعقوب الرهاوى (٢٠ — ٩٠ هـ / ٦٤٠ — ٧٠٨ م) الذى أباح لرجال الدين أن يعلموا أبناء المسلمين . ومعنى هذا أن بعض المسلمين كانوا يشتاقون إلى دراسة الفلسفة على أساتذة من السريان ، وأن هؤلاء كانوا يترددون فى تعليمهم ولا يقبلون عليه .

وكانت طوائف النصارى فى الأقاليم التى فتحها المسلمون تتجادل فى طبيعة المسيح ، وتتجادل فى رجسته ، وتختلف فى البعث أ يكون بالأجسام والأرواح معاً أم بالأرواح وحدها ؟ وتتنازع فى صفات الله تعالى أهى ذاته أم زائدة على ذاته ؟ وتختلف فى أعمال الناس أجبرية أم اختيارية ؟ وفى خضم هذا الجدل كانت الفلسفة اليونانية تموج ، ويقوى بها المجادلون ، إذ كان كثير من رجال المسيحية فلاسفة أو دارسين للفلسفة مثل الأب أوغسطينيوس (٢٥٤ — ٣٤٠ م) وكانت الإسكندرية ملاذ النصرانية الفلسفة أو الفلسفة المنصرة .

ثم احتدم الجدل بين المسلمين والنصارى ، فألف يحيى الدمشقي النصراني (توفى سنة ١٣١ هـ / ٧٤٨ م) رسالة فى الرد على المسلمين تجرى على هذا النهج : إذا قال لك العربى كذا فأجبه بكذا .

وأغلب الظن أن كثيراً من آرائه فى هذا الحوار ، وفى مذهبه فى القضاء والقدر ، وحرية الإرادة ، قد تسربت إلى المسلمين ، لأن بعض مناقشاته كانت تدور فى مجلس الخليفة .

وكان من أثر هذا كله أن تطور الفكر العربى ، فظهرت ألوان جديدة من الثقافة يمازج بعضها بعضاً ، وكانت ينباع هذه الثقافة عربية وإسلامية ودخيلة ، وصار بعض المسلمين الذين حملوا ألوية التفكير على صلوة وثيقة وشبه وثيقة بهذه الثقافات ، واستعانوا بها فى مجادلاتهم لليهود والنصارى وغيرهم ، وكان المعتزلة أقدر المسلمين على هذه المجادلات ، لأنهم فى طليعة الدارسين

للفلسفة وللعلوم المختلفة ، شغفًا بالمعرفة ، ورغبة في الإحاطة بما يعلمه خصومهم ، وليستطيعوا محاجتهم ومناظرتهم ، وليؤيدوا أصول الإسلام بأدلة ليست من القرآن والحديث يضطر أعداء الإسلام إلى التسليم بها .

لهذا قال الجاحظ ^(١) : « لا يكون التكلم جامعاً لأقطار الكلام ، متمكناً في الصناعة ، يصلح للرياسة ، حتى يكون الذي يحسن من كلام الدين في وزن الذي يحسن من كلام الفلسفة ، والعالم عندنا هو الذي يجمعهما » .

وذكر المقرئ أن المأمون بعث إلى بلاد الروم من عربوا له كتب الفلاسفة ، فقرأها المعتزلة ، وأقبلوا على تصفحها والنظر فيها ، فاشتد ساعدهم بها ^(٢) .

وجاء في وصف المرتضى لواصل بن عطاء أنه ليس أحد أعلم بكلام الشيعة ومارقة الخوارج والذهرية والمرجئة وسائر المخالفين والرد عليهم من واصل ^(٣) ، وقوله إن جعفر البرمكي ذكر أرسططاليس ، فقال النظام قد نقصت عليه كتابه ، فقال جعفر : كيف وأنت لا تحسن أن تقرأه ؟ فقال أيما أحب إليك ؟ أن أقرأه من أوله إلى آخره أم من آخره إلى أوله ؟ ثم اندفع يذكر منه شيئاً فشيئاً ، وينقصه عليه ، فعجب منه جعفر ^(٤) .

وذكر الشهرستاني عند قول المعتزلة بنفي الصفات القديمة أن هذه المقالة كانت في مبدأ الأمر غير نضيجة ، وكان واصل بن عطاء يذهب إلى أن من أثبت معنى وصفة قديمة فقد أثبت إلهين ، وإنما شرعت أصحابه فيها بعد مطالعة كتب الفلاسفة ، وأنهى نظرم إلى رد جميع الصفات إلى كونه عالماً قادراً ، ثم الحكم بأنهما صفتان ذاتيتان ، أو حالان ، ومال أبو الحسن البصري إلى ردهما

(١) الحيوان ١٣٤/٢

(٢) المخطوط ١٨٣/٤

(٣) التلخيص والأمل ١٨

(٤) للرجع السابق ٢٦

إلى صفة واحدة وهي العالمية ، وذلك عين مذهب الفلاسفة ^(١).

ومعنى هذا أن تيارات عدة من النصرانية المفلّسة ، ومن الفلسفة للنصرة ، ومن اليهودية وغيرها ، تسربت إلى المسلمين الباحثين ، وإلى المسلمين الذين يدافعون عن الإسلام ، أو من رأى من الآراء المذهبية .

وهذا في رأى كريم هو التعليل الذى يجب أن يفسر به التشابه البين الذى نلاحظه فى مظاهر المسيحية البيزنطية والتعاليم الإسلامية .

إن البحث فى كنهه الله وصفاته هو أول شيء له للقام الأول فى مؤلفات آباء الكنيسة الإغريق وأقدم علماء الدين المسلمين ، وهؤلاء المسلمون شغلوا أنفسهم إلى حد كبير بالأبحاث التى تدور حول القضاء والقدر والإرادة ، مثلهم فى هذا مثل آباء الكنيسة الشرقية . ثم يفصل فون كريم رأيه بعد ذلك فى الصلات وللشابهات التى بين الكنيسة الشرقية والإغريقية فى الشام وبين المرجنة والقدرية ^(٢).

أما فى العراق فإن التشابه قوى بين آراء المعتزلة التى غرس الحسن البصرى غراسها الأول وبين آراء النساطرة الدينية للتأثرة بالفلسفة الإغريقية ، ولهذا يقول دى بور : « هناك دلائل متفرقة على أن طائفة من المسلمين الأولين الذين قالوا بالاختيار تعلموا الأساندة مسيحيين » ^(٣).

وقد يميز هذا ما قيل من أن أول من تكلم فى القدر نصراني من العراق أسلم ، ثم عاد إلى نصرانيته ، وأخذ عنه معبد الجهنى وعيلان الدمشقي القدرى ، وما من للرجنة ^(٤).

(١) اللل النحل ١ / ٥٦

(٢) الحضرة الإسلامية ومعنى قدرها بالمؤثرات الأجنبية ٦٦ فون كريم .

(٣) تاريخ الفلسفة فى الإسلام ١٦٦ دى بور

(٤) صرح اليهود ١٢٦٥ لا بد بانه وصحيح مسلم كتاب الإيمان

ويروى أن الجعد بن درهم أول من تكلم في خلق القرآن بدمشق ، ثم طلب
فهرب حتى نزل الكوفة ، فتعلم منه الجهم بن صفوان ، ويقال إن الجعد أخذ
آراءه عن أبان بن معمر ، وأبان كان تلميذا لطلوت ، وطلوت كان تلميذا لحنيفة
ليبيد بن الأعصم اليهودي ، وكان طلوت يقول بخلق التوراة وكان زنديقا^(١) ،
وهو أول من صنف في ذلك ، ثم أظهر الجعد بن درهم هذه الآراء ، فقتله خالد
القسري بالكوفة في عهد هشام بن عبد الملك ، كما قتل في عهده غيلان الهمشي
لأنه كان قدريا^(٢) ، وقد كان الجعد من المرجئة وهم - كما سبق - أصل المعتزلة .
ثم طالعت المعتزلة مثل أبي الهذيل العلاف والنظام ومعتز بن عباد والجاحظ
كتب الفلاسفة في زمن المأمون ، واستخرجوا منها ما خلطوه بأوضاع الشرع ،
وتشعبت مباحثهم ، وتنوعت آراؤهم ، فسميت بمحورهم بعلم الكلام^(٣) .
وقد أكد دي بور أن مذاهب المتكلمين تأثرت بموامل مسيحية أبلغ التأثير ،
فأثرت العقائد الإسلامية في تكونها بمذاهب المللكانية واليعاقبة في دمشق ،
كما تأثرت في البصرة وبغداد بالمذاهب النسطورية والنفوسطية ، ولم يخلص إلينا
إلا القليل من الآثار المكتوبة المتعلقة بتلك الحركة في أوائل نشاطها ، غير أننا
لا نخطئ الصواب إذا قلنا إن اختلاط المسلمين بالمسيحيين وتلقيهم العلم عنهم في
المدارس كان له عظيم الأثر في ذلك .

ونحن نجد بين مذاهب المتكلمين الأولى في الإسلام وبين العقائد المسيحية
شبهات قويا لا يستطيع أحد معه أن ينكر أن بينهم اتصالا مباشرا ، وأول مسألة
قام حولها الجدل بين علماء المسلمين هي مسألة الاختيار ، وكان للمسيحيون الشرقيون
يكادون جميعا يقولون بالاختيار^(٤) .

(١) ابن الأثير ٧ / ٢٦

(٢) سرح الميون ١٦٨ وابن الأثير ٥ / ١٩٦

(٣) الفرق بين الفرق ١٠٩ وقد العلم والعلماء ١٠٢

(٤) تاريخ الفلسفة في الإسلام ٤٨

ولكن للمعتزلة مع هذا كله كانوا يسندون أصول آرائهم إلى النبي عليه الصلاة والسلام ، لأنهم يستقون من واصل بن عطاء ومن عمرو بن عبيد ، وهذان أخذوا عن محمد بن علي بن أبي طالب وابنه أبي هاشم عبد الله ، وقد أخذ محمد عن أبيه علي ، وأخذ علي عن رسول الله ، ويقولون إن محمد بن علي هو الذي روى واصل بن عطاء وعلمه وخرجه ، كما رووا أخباراً شتى تعزز مذهبهم ، منسوبة إلى أبي بكر وعمر وهشام والحسن وابن عباس ^(١) .

كما أنهم أولوا الآيات القرآنية تأويلاً يوافق مذهبهم ، ويؤيدهم في الرد على مخالفيهم ، وفي نقض الشبه التي أثارها خصوم الإسلام ، لأن القرآن هو القانون الذي تستند إليه السنة والإجماع والقياس بعد أدلة العقل ^(٢) .

أما دفاع المعتزلة عن الإسلام فقد بدأ من عهد مبكر ، منذ رد واصل بن عطاء على مخالف مذهب ، وهو في الثلاثين من عمره ، وذكر عمرو الباهلي أنه قرأ الجزء الأول من كتاب ألف مسألة في الرد على المانوية من تأليف واصل ، وأحصى في ذلك الجزء ثيافاً وثمانين مسألة . وذكر مناظرات أبي المذيل العلاف مع المجوس والثنوية وغيرهم طويلة مفصلة ، ويقال إنه أسلم على يده أكثر من ثلاثة آلاف رجل ^(٣) .

وللجاحظ في هذا الميدان بلاء عظيم ، فله رسالة في الرد على النصراني ^(٤) ، وله كتاب في الرد على الرافضة ^(٥) ، وله ردود ومناقشات شتى في كتاب

(١) اللبنة والأمل ٤

(٢) الكفاف ١ / ٤٨٨

(٣) اللبنة والأمل ٢١

(٤) ضمن مجموعة (ثلاث رسائل للجاحظ) نقرأها بوضع فنكل

(٥) ذكره الجاحظ في رسالة بيان مذاهب الشيعة ١٨١ من مجموعة رسائل الجاحظ

الحيوان ، كرده على الجحوش في إنكار عذاب النار^(١) ، ورده على زرادشت في تخويف أصحابه بالبرد والثلج^(٢) ، وإبطاله لإنكار الدهرية ملك سليمان وملكة سبا^(٣) .

وللمعتزلة بعامه جهد عظيم في بعض آراء الرافضة ، يمثل في المناظرة تارة ، وفي تأليف الرسائل والكتب تارة ، كما فعل ابن الخياط في كتابه الانتصار .

أصول المعتزلة وكيف أيدها

للمعتزلة أصول قام عليها مذهبهم^(٤) ، وقد أيدها الزمخشري بكل ما استطاع من فكر وبيان ، وأول الآيات القرآنية بما يفتق مع هذه الأصول ويؤكدها .

(١)

التوحيد

للمسلمون جميعا موحدون ، لا يشركون مع الله أحدا ، ولكن للمعتزلة وصلوا بتوحيدهم إلى حد التفلسف ، وبنوا عليه أمورا لم يكن أحد من المسلمين يعرض لها .

فقد وجدوا في القرآن الكريم آيات تنزه الله عن التشابه ، وآيات يدل ظاهرها على التجسيم ، ورأوا آيات تدل على أنه تعالى ليس في جهة أو مكان ، وآيات يذهبون من ظاهرها الجهة وللكان .

(١) الحيوان ٥ / ٦٩

(٢) الحيوان ٥ / ٦٨

(٣) الحيوان ٤ / ٨٥

(٤) النبوة والأمل ٦ والمثل والنحل ١ / ٤٩

وكان كثير من المسلمين ينزهون الله عن الماثلة، ويمسكون عن الكلام في الآيات التي يدل ظاهرها على الماثلة، مؤثرين البعد عن التأويل.

أما المعتزلة فلم يرتضوا هذا المسلك، وجعلوا يؤولون الآيات التي يفهم من ظاهرها التجسيم أو الحلول في جهة أو مكان تأويلاً يوفق وتنزيه الله سبحانه عن المشابهة، حتى روى أن النظام ناجى ربه بقوله وهو مختصر: اللهم إن كنت تعلم أني لم أقصر في نصر توحيدك، ولم أعتقد مذهبا من المذاهب اللطيفة — يريد الفلسفية — إلا لأشد به التوحيد، فما كان منها يخالف التوحيد فأنا منه بريء، اللهم فإن كنت تعلم أني كما وصفت فاغفر لي ذنوبي، وسهل علي سكرة الموت^(١).

وبنوا على هذا التوحيد كثيراً من المعتقدات.

١ — فنفوا عن الله الصفات المستقلة القديمة، وقالوا إنه عالم بذاته، قادر بذاته، حي بذاته، وليست الحياة والقدرة والعلم صفات غير ذاته، بل هي صفات قديمة ومعمان قائمة به، لأنها لو شاركت في القدم الذي هو أخص الوصف لشاركت في الألوهية، وهو سبحانه منزّه عن القيل، لأنه القديم الأزلي وماسواه محدث، فلا يصح أن تكون له صفات أزلية منفصلة عنه، لأن القول بها تعدد.

ولهذا سمو أنفسهم أهل التوحيد^(٢).

ويتصل بالتوحيد رد الصفات كلها إلى كونه عالماً قادراً، والحكم بأتهما صفتان ذاتيتان أو اعتباران للذات القديمة أو حالان^(٣).

(١) الانتصار للخطأ ٤١

(٢) الملل والنحل ١ / ٤٩

(٣) الملل والنحل ١ / ٥١

وذكر الشهرستاني من آراء أبي الهذيل الملاف — وهو من شيوخ
المعتزلة — أنه انفرد عن أصحابه بقواعد، منها أن الباري تعالى عالم بعم، وعلمه
ذاته، قادر بقدرة، وقدرته ذاته، حي بحياة، وحياته ذاته.

وعقب الشهرستاني بقوله : إنما اقتبس هذا الرأي من القلاسفة الذين
اعتقدوا أن ذاته واحدة لا كثرة فيها بوجه، وإنما الصفات ليست وراء الذات
معاني قائمة بذاته، بل هي ذاته ثم قال : وإذا ثبت أبو الهذيل هذه
الصفات وجوها للذات، فهي بعينها أقانيم النصارى أو أحوال أبي هاشم^(١).
٣ — ونفوا التشبيه عن الله سبحانه نفيًا تامًا من كل وجهة، مكانًا وجهة
وصورة وجسمًا وتميزًا وانتقالًا وتغيرًا، وأوجبوا تأويل الآيات للتشابهة،
وسموا هذا توحيداً^(٢).

وقد حرص الزمخشري على تأويل الآيات وفق هذه العقيدة فلم يدع شبهة
تعلق بها إلا محامها.

فقال في تفسير قوله تعالى : « ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب
أرني أنظر إليك، قال لن تراني »^(٣) :

كلمه ربه من غير واسطة كما يكلم الملك، وتكليمه أن يخلق الكلام
منطوقًا به في بعض الأجرام كما خلقه مخطوطًا في اللوح، وروى أن موسى عليه
السلام كان يسمع ذلك الكلام من كل جهة.

وعلق ابن المنير بقوله^(٤) : هذا تصريح منه بخلق الكلام، كما هو
معتقد للمعتزلة.

(١) الملل والنحل ١ / ٥٣. يريد أن أبا هاشم قال إن العلم والقدرة خلاق للذات
الإلهية.

(٢) الملل والنحل ١ / ٤٩.

(٣) سورة الأعراف ١٤٣.

(٤) سبأ في التعريف به في قيمة الكشف وآثره.

والذى يخص هذه الآية من وجوه الرد عليه أنها سبقت مساق الامتنان على موسى باصطفاء الله له وتخصيصه إياه بتكليمه ، وكذلك قال تعالى بعد آيات منها : « إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي ، فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين » فلو كان تكليم الله له بمعنى خلق الحروف والأصوات فى بعض الأجرام واستماع موسى لذلك لكان كل أحد يساوى موسى عليه السلام فى ذلك ، بل كان آحاد أصحاب النبو عليه الصلاة والسلام آثر بهذه المزية وأحق بالخصوصية من موسى ، لأنهم سمعوا للكلام على الوجه المذكور من أفضل الأجرام وأزكاها خلقا فى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت مزيته أظهر وخصوصيته أوفر ، ونحن نعلم ضرورةً من سياق هذه الآية تميز موسى بهذه المزية ، فلا يحمل لذلك إلا اعتقاد أنه سمع الكلام القديم القائم بذات الله سبحانه وتعالى بلا واسطة دليل عليه من حروف ولا غيرها ، وكما أجزنا من المعقول أن يرى ذات البارى وإن لم يكن جسما ، فكذلك نميز أن يُسمع كلامه وإن لم يكن حرفا ولا صوتا^(١).

وقال فى تفسير قوله تعالى : « ثم جعلناكم خلائف فى الأرض لننظر كيف تعملون^(٢) » : أى استخلفناكم فى الأرض بعد القرون التى أهلكنا ، لننظر أتعلمون خيرا أم شرا فنعاملكم على حسب عملكم .

فإن قلت : كيف جاز النظر على الله تعالى وفيه معنى المقابلة ؟

قلت : هو مستعار للعلم المحقق الذى هو العلم بالشئ موجودا أشبه بنظر الناظر وعيان الماين فى تحققه .

(١) الكشاف ومأخذه ١ / ٣٤٠

(٢) سورة يونس ١٤

وعلق ابن المنير بقوله :

كنت أحسب أن الزمخشري يقتصر على إنكار رؤية المبدأ لله تعالى، فضم
إلى ذلك إنكار رؤية الله ، والجمع بين هاتين النزعتين عقيدة طائفة من القدرية
يقولون إن الله لا يرى ولا يبرى ، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا^(١) .
وقال في تفسير قوله تعالى « والله الأسماء الحسنى فادعوه بها ، وذروا الذين
يُبَلِّغُونَ في أسمائه ، سَيَجْزَوْنَ ما كانوا يَمْتَلُونَ^(٢) » :

لله أحسن الأسماء ، لأنها تدل على معان حسنة من تمجيد وتقديس وغير ذلك ،
فسموه بتلك الأسماء ، وأتركوا تسمية الذين يميلون عن الحق والصواب فيها ،
فيسمونه بغير الأسماء الحسنى ، وذلك أن يسموه بما لا يجوز عليه ، أو بأبواب
تسميته ببعض أسمائه الحسنى .

ويجوز أن يراد والله الأوصاف الحسنى ، وهي الوصف بالعدل والخير والإحسان
وانتفاء شبه الخلق ، فصفوه بها ، وذروا الذين يبلغون أوصافه ، فيصفونه بمشينة
القبائح وخلق الفحشاء والمنكر وبما يدخل في التشبيه كالرؤية ونحوها .

وعقب ابن المنير على هذا بقوله :

لا بدع حشو العقائد الفاسدة في غير موضع ، فإن يكن المراد الأوصاف
فالحسنى منها وصف الله بمموم القدرة والافتراق بالخلوقات حتى لا يُشْرِكَ معه
عباده في خلق أفعالهم ، ويظم الله تعالى بأنه لا يسأل عما يفعل ، وأن كل قضائه
عدل ، وأنه لا يجب عليه رعاية ما يتوهمه الخلق مصلحة بمقولهم ، وأن وعده
الصدق وقوله الحق ، وقد وعد رؤيته فوجب وقوعها ، إلى غير ذلك من
أوصافه^(٣)

(١) الكشاف وحاشته ١ / ٤١٦

(٢) سورة الأعراف ١٨٠

(٣) الكشاف وحاشته ١ / ٣٥٨

وقال في تفسير قوله تعالى: «وما قدرُوا اللهَ حقَّ قدرِهِ»، والأرضُ جميعاً قبضته يومَ القيامةِ والسمواتُ مطوَّياتٌ بيمينه، سبحانه وتعالى عما يُشركون (١) : نبههم على عظمته وجلالة شأنه على طريقة التخييل ، فقال « والأرضُ جميعاً قبضته يومَ القيامةِ والسمواتُ مطوَّياتٌ بيمينه » .

والفرض من هذا الكلام إذا أخذته كما هو يحملته ومجموعه تصوير عظمته ، والتوقيف على كنهه جلالة لا غير ، من غير ذهاب بالتقصية ولا باليمين إلى جهة حقيقة أو جهة مجاز ، وكذلك حكم ما يروى أن جبريل جاء إلى رسول الله فقال : يا أبا القاسم إن الله يمسك السموات يوم القيامة على إصبع ، والأرضين على إصبع ، والجبال على إصبع ، والشجر على إصبع ، والثرى على إصبع ، وسائر الخلق على إصبع ، ثم يهزهن فيقول أنا الملك . فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم متعجباً مما قال ، ثم قرأ تصديقاً له «وما قدرُوا اللهَ حقَّ قدرِهِ إلى آخر الآية» وإنما ضحك أفصح العرب وتعجب ، لأنه لم يفهم منه إلا ما لا يفهمه إلا علماء البيان من غير تصور إمساك ولا إصبع ولا هز ولا شيء من ذلك ، ولكن فهمه وقع أول شيء وآخره على الزبدة والخلاصة التي هي الدلالة على القدرة الباهرة وأن الأفعال العظام التي تتحير فيها الأفهام والأذهان ولا تسكنتها الأوهام هينة عليه هو أن لا يوصل السامع إلى الوقوف عليه إلا بإجراء العبارة في مثل هذه الطريقة من التخييل ، ولا ترى باباً في غم البيان أدق ولا أرق ولا لطف من هذا الباب ، ولا أضع وأحون على تعاظم تأويل المشبهات من كلام الله تعالى في القرآن وسائر الكتب السماوية وكلام الأنبياء ، فإن أكثره تخيلات قدزلت فيها الأقدام قديماً ، وما أتى الزالون إلا من قلة عنايتهم بالبحث والتفتير ، حتى يعلموا أن في عداد العلوم الدقيقة علماً لو قدروه حق قدره لما خفي عليهم أن العلوم

كلها مفتقرة إليه وعيال عليه ، إذ لا يحمل عقدها المورثة ، ولا يفك قيودها المكرية إلا هو .

وكم آية من آيات التنزيل وحديث من أحاديث الرسول قد ضميم وسيم الخسف بالتأويلات الفتن والوجوه الرثة ، لأن من تأول ليس من هذا العلم في غير ولا نفير ، ولا يعرف قبيل له من دبير .

وعقب على هذا ابن المنير فقال :

إنما عني بما أجراه ها هنا من لفظ التخيل التمثيل ، وإنما العبارة موهمة منكرة في هذا المقام ، لا تليق به بوجه من الوجوه ^(١) .

وقال في تفسير قوله تعالى « الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى » ^(٢) :

لما كان الاستواء على العرش وهو سرير الملك مما يرادف الملك جعلوه كناية عن الملك ، فقالوا استوى فلان على العرش ، يريدون ملك وإن لم يقم على السرير البتة ، وقالوه أيضاً لشهرته في ذلك المعنى ومساواته ملك في مؤداه ، وإن كان أشرح وأبسط وأدل على صورة الأمر ، ونحوه قولك يد فلان مبسوطة ، ويد فلان مغلولة ، بمعنى أنه جواد أو بخيل ، لا فرق بين العبارتين إلا فيما قلت ، حتى إن من لم يبسط يده قط بالنوال ، أو لم تكن له يد ، قيل فيه يده مبسوطة ، لمساواته عندهم قولهم هو جواد . وفي قول الله عز وجل : « وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ » ^(٣) « أي هو بخيل » بل يدها مبسوطتان ^(٤) « أي هو جواد من غير تصور يد ولا غل ولا بسط ، والتفسير بالنعمة ، والتمحل للتثنية من ضيق

(١) الكشاف وحاشيته ٢ / ٣٠٥

(٢) سورة طه ٥

(٣) سورة الأئدة ٦٤

(٤) سورة المائدة ٦٤

العطن ، والبعد عن علم البيان مسيرة أعوام ^(١) .

ولم يعلق ابن النير على هذا بشيء .

وقال في تفسير قوله تعالى : « إِنْ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ، يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ » ^(٢) :

أكد للبايعة على طريق التخييل فقال (يد الله فوق أيديهم) يريد أن يد رسول الله التي تلو أيدي المبايعين هي يد الله ، والله تعالى منزّه عن الجوارح ، وعن صفات الأجسام ، وإنما المعنى تقرير عقد الميثاق مع الرسول كعقده مع الله من غير تفاوت بينهما ، كقوله تعالى : « مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ » ^(٣) . والمراد بيعة الرضوان ^(٤) .

وقال في تفسير قوله تعالى : « وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ » ^(٥) . القرب هنا مجاز ، والمراد قرب علمه منه ، وأنه يتعلق بمعلومه منه ومن أحواله تعلقا لا يخفى عليه شيء من خفياته ، فكان ذاته قريبة منه ، كما يقال الله في كل مكان ، وقد جل عن الأمكنة ^(٦) .

وقال في تفسير قوله تعالى : « وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ » ^(٧) : وجه ربك : ذاته ، والوجه يعبر به عن الجلة والذات ، ومساكين مكة يقولون : أين وجه عربي كريم يتقذى من الهوان .

(١) - الكشاف ٢٠/٢

(٢) - سورة الفتح ١٠

(٣) - سورة النساء ٨٠

(٤) - الكشاف ٣٨٣/٢

(٥) - سورة ق ١٦

(٦) - الكشاف ٤٠٢/٢

(٧) - سورة الرحمن ٢٧

وقرأ عبد الله (ذی الجلال) على صفة ربك، ومعناه : الذى يُجِئُ الموحدون عن التشبيه بخلقهم وعن أفعالهم ، أو الذى يقال له ما أجلك وأكرمك ، أو من عنده الجلال والإكرام للمخلصين من عباده .

وعلق ابن النير بقوله :

المتزلة يتكرون الصفات الإلهية التى دل عليها العقل ، فكيف بالصفات السمعية ؟ على أن من الأشعرية من حمل الوجه واليدنين والعينين على نحو ما ذكره ، ولم ير أنها صفات سمعية ^(١) .

٣ — وأنكروا رؤية العباد لله بأبصارهم فى الآخرة ^(٢) ، لأن الجسمية إذا انتفت انتفت الجهة ، وإذا انتفت الجهة انتفت الرؤية ، وبهذا أولوا الآيات والأحاديث ، ونفوا بعض الأحاديث ، لأنها أخبار آحاد .

ولزم مخشري فى نفي الرؤية حديث طويل ، منه ما ذكره عند تفسير قوله تعالى : « ولما جاء موسى وكله ربه ، قال رب أرني أنظر إليك » ، قال لن تراني ولكن أنظر إلى الجبل ، فإن استقر مكانه فسوف تراني ، فلما تجلّى ربه للجبل جعله دكا ، وخّر موسى صمعا ، فلما أفاق قال : سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين » ^(٣) :

أرني نفسك أنظر إليك ، والرؤية عين النظر ، فكيف قال أرني أنظر إليك ؟ أى اجعلنى متمكنا من رؤيتك بأن تتجلى لى فأنظر إليك وأراك .

ولما كانت الطلّبة هى الرؤية لا النظر الذى لا إدراك معه ، قال تعالى (لن تراني) ولم يقل لن تنظر إلى .

(١) الكشاف وحاشيته ٢/٢٥٠

(٢) اللؤلؤ والنحل ١/٤٩

(٣) سورة الامران ١٤٣

فإن قلت : كيف طلب موسى عليه السلام ذلك ، وهو من أعلم الناس بالله وصفاته ، وما يجوز عليه وما لا يجوز ، وبتعالیه عن الرؤية التي هي إدراك ببعض الحواس ، وذلك إنما يصح فيما كان في جهة ، وما ليس بجسم ولا عرض فمحال أن يكون في جهة ، ومنع المجبرة إحالته في القول غير لازم ، لأنها ليست بأول مكابرتهم وارتكابهم ، وكيف يكون طالبه وقد جاء في السورة نفسها : « واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا ، فلما أخذتهم الرجفة قال : رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي ، أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ؟ إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء ، وتهدي من تشاء ، أنت ولينا ، فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين » ^(١) فتبرأ من فعلهم ، ودعاهم سفهاء وضلالاً ؟

قلت : ما كان طلب الرؤية إلا ليبيكت هؤلاء الذين دعاهم سفهاء وضلالاً وتبرأ من فعلهم ، وليلقنهم الحجر ، وذلك أنهم حين طلبوا الرؤية أنكر عليهم وأعلمهم الخطأ ، ونبههم على الحق ، فلجوا وتمادوا في لجاهم ، وقالوا لا بد ، ولن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ، فأراد أن يسمعوا النص من عند الله باستحالة ذلك ، ليقتبنوا ، ويتزاح عنهم ما دخلهم من الشبهة ، فلذلك قال رب أرني أنظر إليك ، وإذا كان في هذا الرد زجر لموسى عما طلب ، وإنكار عليه في نبوته واختصاصه وزلفته عند الله تعالى كانوا هم أولى بالإنكار .

وجاء النفي بلن لنا كيد النفي في المستقبل كقوله تعالى « إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له » ^(٢) ، وقوله « لا تدركه الأبصار » ^(٣) . نفي الرؤية فيما يستقبل ، (ولن ترآني) تأكيد وبيان ، لأن النفي مضاف لصفاته . فإن قلت : كيف اتصل الإدراك في قوله (ولكن انظر إلى الجبل) بما قبله ؟

(١) سورة الأعراف ١٥٥

(٢) سورة الحج ٧٣

(٣) سورة الأنعام ١٠٣

قلت : اتصل به على معنى أن النظر إلى محال فلا تطلبه ، ولكن عليك بنظر آخر ، وهو أن تنظر إلى الجبل الذى يرجف بك وعن طلبت الرؤية لأجلهم كيف أفعل به ، وكيف أجعله دكاً بسبب طلبك الرؤية ، لتعظم ما أقدمت عليه بما أريك من عظم أثره ، فإنه عز وعلا حقق عند طلبك الرؤية مأمثله عند نسبه الولد إليه في قوله : « وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا أَنْ دَعَوْا الرَّحْمَنَ وَلَدًا ^(١) »

وقد علق وجود الرؤية بوجود ما لا يكون من استقرار الجبل مكانه حين يذكه ويسويه بالأرض

وهذا كلام مدمج بعضه في بعض وارد على أسلوب عجيب ونمط بديع ، ألا ترى كيف تخلص من النظر إلى النظر بكلمة الاستدراك ، ثم كيف بنى الوعيد بالرجفة الكائنة بسبب طلب النظر على الشريطة في وجود الرؤية ، أعنى قوله « فإن استقر مكانه فسوف تراه » فلما تجلى ربه للجبل ، وظهر له اقتداره ، وتصدى له أمره وإرادته ، جعله مذكوكا ، وخر موسى مفشيا عليه من هول ما رأى ، فلما أفاق من صمقته قال : سبحانك أنزهك عما لا يحوز عليك من الرؤية وغيرها ، ثبتت من طلب الرؤية ، وأنا أول المؤمنين بأنك لست بمرئى ولا مدرك بشيء من الخواص .

فانظر إلى إعظام الله تعالى أمر الرؤية في هذه الآية ، وكيف أرجف الجبل بطالبيها ، وجعله دكا ، وكيف أصعقهم ، ولم يخل كلمه موسى من نفيان ذلك مبالغة في إعظام الأمر ، وكيف سبج ربه ملتجئا إليه ، وتاب من إجراء تلك الكلمة على لسانه ، وقال أنا أول المؤمنين .

ثم تعجب من التسمين بالإسلام المتسمين بأهل السنة والجماعة كيف

اتخذوا هذه العظيمة مذهبا ، ولا يفرنك تسترهم بالبلسكة^(١) ، فإنه من منصوبات أشياخهم ، والقول ما قال بعض العدلية فيهم :

لجاعة سموا هوام سنة وجماعة حُرّ لمرى موكفة
ولقد شبهوه بخلقه وتخوفوا شنع الورى فستروا بالبلسكة^(٢)
ولم يرتض أهل السنة هذا الرأى ، فردوا عليه .

قال أبو زكريا يحيى بن عصام - من تلمسان - في رده على هذين البيتين :

قل للذى تسمى الهداة أولى النهى تحمرا لأن سلب الهدى والمعرفة
فقد أُرْجِحَ الاعتزالَ جهالةً ويروقه زور الضلال وزُخْرُفه
سَوِّغْتَ ذمَّ جماعةٍ سئيةٍ قد أحرزوا من كل فضل أشرفه
هم شيعة الحق الذى ما بعده إلا مهاوى فى الضلالة مثله

وقال القاضى أبو حفص بن عمر فى هذا أيضاً :

أجهلتم صفة الإله وفعله ونسبتموه لغيره بالزخرفه
وأردتم تنزيهه فدفعتم فى الشرك والإلحاد والأمر السفه
خالفتم سنن النبى وحجبه وتبعتم فى الزيف أهل الفلسفة^(٣)

وعلق ابن النير بقوله :

ما أشد ما اضطرب كلامه فى هذه الآية ، لأن غرضه أن يدحض الحق بالضلالة ، ويشين بكفه وجه الفزالة . هيهات ، قد تبين الصبح لذى عينين ، فالحق أبلج لا يمازجه ريب إلا عند ذى رين .

(١) البلسكة : يريد أنهم يقولون إن الله يرى بلا كيفية

(٢) الكشاف ١/٣٤٦

(٣) الرحلة المغربية ٢٠

أما حظ المقول من إجازة رؤية الله تعالى فوظيفة علم الكلام ، وأخصر وجه في إجازة ذلك أن الوجود مصحح الرؤية ، بدليل أن جواز الرؤية حكم يستدعي مصححا ، وقد شمل الجواز والجوهر ولا جامع بينهما يمكن جملة مصححا سوى الوجود ، وإذا كان الوجود هو المصحح فقد صحت رؤيته تعالى لوجوده .

وأما استبعاد أن يرى ما ليس في جهة فامر وهي مثله عرض للمعطلة ، فصيت أبصارهم حتى أنكروا موجودا إلا في جهة ، ومن اتبع الأوهام اغتسق مهامه الضلال وهام ، ولو كانت الرؤية تتوقف على جهة الرئي لكانت المعرفة تتوقف على جهة للمعروف ، ولا خلاف أنه سبحانه يُمرّف لا في جهة ، فكذلك يُرَى لا في جهة ، فالحق أن موسى عليه السلام إنما طلب الرؤية لنفسه ، لعله بجواز ذلك على الله تعالى .

والقدرية يجرّهم الطمع حتى يروموا أن يحطوا موسى عليه السلام . كان على معتقدهم ، ومأم حينئذ إلا من آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيبا .

وأما قول موسى : « أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الشُّفَهَاءُ مِنَّا ؟ » تبرؤا من أفاعيلهم ، وتسفيها لهم وتضليلا لرأيهم ، فلا راحة للقدرية في الاستشهاد به على إنكار موسى لجواز الرؤية ، فإن الذي كان الإهلاك بسببه إنما هو عبادة المعجل في قول أكثر المفسرين .

ثم إن كان السبب طلبهم الرؤية فليس لأنها غير جائزة على الله ، ولكن لأن الله تعالى أخبر أنها لا تقع في دار الدنيا . والخبر صدق ، وذلك بعد سؤال موسى للرؤية ، فما سألوا وقد سمعوا الخبر بعدم وقوعها كان طلبهم خلاف

المعلوم تكذيباً للخبر ، فمن ثم سفهم موسى وتبرأ من طلب ما أخبر الله أنه لا يقع .

ولو كان سؤالهم عن الرؤية قبل إخبار الله تعالى بعدم وقوعها فإنما سفهم موسى عليه السلام لاقتراحهم على الله هذه الآية الخاصة وتوقيفهم الإيمان عليها حيث قالوا لن نؤمن لك حتى ترى الله جبهة ، ألا ترى أن قولهم : « لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً »^(١) إنما سألوا فيه جائزاً ، ومع ذلك قرعوا به لاقتراحهم على الله ما لا يتوقف وجوب الإيمان عليه .

فهذه المباحث الثلاثة توضح لك سوء نظر الزمخشري بعين الهوى ، وعمايته عن سبيل الهدى . وأما زعمه أن موسى طلب الرؤية لهم ، فإنه مردود بأنه لو كان طلب الرؤية لهم حتى إذا سمعوا منع الله تعالى لها أيقنوا أنها ممنوعة لكان طلبها عبثاً غير مفيد ، لأن هؤلاء لا يخلو أمرهم إما أن يكونوا مؤمنين بموسى أو كفاراً به ، فإن كانوا مؤمنين به فإخباره بإيham بأن الله تعالى لا يرى ولا يجوز عليه ذلك كاف في حصول المقصود من غير حاجة إلى أن يسأل موسى عليه السلام من الله أن يريه ذاته على علم بأن ذلك محال ، وإن كانوا كفاراً بموسى فلا يحصل الغرض من ذلك أيضاً ، لأن الله إذا منعه مسئوله فإنما يثبت ذلك لهم بقول موسى عن الله تعالى إنه منعه ذلك ، وهم كفار بموسى ، فكيف يفيدهم غيره عن الله بامتناع ذلك ؟

فهذا أوضح مصداق لأن موسى عليه السلام إنما طلب الرؤية لنفسه اعتقاداً بجوازها ، فأخبر الله أن ذلك لا يقع في الدنيا وإن كان جائزاً .

أما قوله إن (لن) تؤكد النفي فإنها كذلك ، ولكن استنباطه منافية الرؤية لحال الباري عز وجل ، واستشهاده على أنها تشعر باستحالة النفي عنها

عقلا ، مردود بكثير من الآيات ، كقوله تعالى : « قل لن تخرجوا مني أبداً^(١) » فذلك لا يحيل خروجهم عقلا ، وقوله : « لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن^(٢) » و : « لن تتبعمونا^(٣) » فهذه كلها جائزات عقلا ، لولا أن الخبر منع من وقوعها ، فالرؤية كذلك .

وأما قوله إن الله حقق عند طلب الرؤية ما مثله عند نسبة الولد إليه ، فإنه مفرع على المعتد السالف بطلانه ، وليس له في هذا الفصل وظيفة إلا تتبع الشبه لامتناع الرؤية تلقفها من كل فج .

والحق أن ذلك الجبل إنما كان لأن الله عز وجل أظهر له آية من ملكوت السماء ، ولا تستقر الدنيا من إظهار شيء من ملكوت السماء ، وهذا هو المآثور عن السلف في هذه الآية ، ومعناه عند أبي الحسن (الأشعري) رحمه الله فعل فعلا سماه تجليا ، وكان الغضب إما لأنهم طلبوا رؤية جسمانه في جهرا ، وإما لأنهم كنموا الخبر بأنه لا يرى في الدنيا ، وإما لأنهم كفروا بالاقتراح أو بالمجموع .

وأما قوله إن الله تعالى علق وجود الرؤية على وجود ما لا يكون من استقرار الجبل ، فإنه من حيل القدريّة في إحالة الرؤية ، يقولون قد علقها الله على شرط محال وهو استقرار الجبل حال دكه ، والمعلق على المحال محال . وهذه حيلة باطلة ، فإن المعلق عليه استقرار الجبل من حيث هو استقرار ، وذلك ممكن وجائز ، وتعلق العلم لا يغير المعلوم ولا يتقل حكمه من إمكان إلى امتناع ولا العكس ، وحينئذ يتوجه دليلا لأهل السنة، فنقول إن استقرار الجبل ممكن ،

(١) سورة التوبة ٨٣

(٢) سورة هود ٣٦

(٣) سورة الفتح ١٥

وقد علق عليه وقوع الرؤية ، والمعلق على الممكن ممكن ، والمعتزلة يمتقدون أن خلاف المعلوم لا يجوز أن يكون مقدورا ، ونحن نقول مقدورا ، ولكن الشيئة لم تتعلق بإيجاده .

وأما توبة موسى وتسييحه فلما تبين له من أن العلم قد سبق بعدم وقوع الرؤية في الدنيا .

ثم ختم رده بأنه مضطر إلى أن ينافع عن أصحاب سنة ، رسول الله كما نافع حسان بن ثابت أعداء رسول الله ، وذكر هذه الأبيات المناقضة لبيقي الزمخشري :

وجاعة كفرا برؤية ربهم حقا ، ووعد الله ما لن يخلفه
وتلقبوا عدلية قلنا أجل عدلوا بربهم فحسبهم سفه
وتلقبوا الناجين كلا إنهم إن لم يكونوا في لظى فليشفه^(١)
وقال في تفسير قوله تعالى : « لا تُدركه الأبصار » ، وهو يدرك الأبصار ،
وهو اللطيف الخبير «^(٢) البصر هو الجوهر اللطيف الذي ركه الله في حاسة
النظر ، به تدرك المبصرات ، فالمنى أن الأبصار لا تتعلق به ، ولا تدركه ، لأنه
متعال أن يكون مبصرا في ذاته ، لأن الأبصار إنما تتعلق بما كان في جهة أصلا
أو تبعا كالأجسام والهيئات ، وهو للطف إدراكه للمدركات يدرك تلك الجواهر
اللطيفة التي لا يدركها مدرك ، وهو يلطف عن أن تدركه الأبصار ، الخبير بكل
لطيف ، فهو يدرك الأبصار^(٣) .

وعلق ابن المبير على هذا بقوله :

يريد الزمخشري من الإدراك الإحاطة ، ومنه « حتى إذا أدركه

(١) هامش الكشاف ٣٤٦/١

(٢) سورة الأنعام ١٠٣

(٣) الكشاف ٣٠٥/١

الفرق»^(١) أى أحاط به ، و «إنا لمدرّكون»^(٢) أى محاط بنا ، فاللفظ إذاً عن الأبصار إحاطتها به عز وعلا ، لا مجرد الرؤية . ثم إما أن يقتصر على أن الآية لا تدل على مخالفتنا أو تزيد فنقول : يدل لنا أن تخصيص الإحاطة باللفظ يشعر بطريق المفهوم بثبوت ما هو أدنى من ذلك وأقله مجرد الرؤية ، كما أنا نقول لا تحيط به الأفهام وإن كانت المعرفة بمجرد ما حاصله لكل مؤمن ، فالإحاطة للعقل منفية كنفى الإحاطة للحس ومادون الإحاطة من المعرفة للعقل والرؤية للحس ثابت غير منفي .

ولم يذكر الزمخشري على إحالة الرؤية عقلا دليلا ولا شبهة ، فيحتاج إلى القدر فيه ، ثم معارضته بأدلة الجواز ، ولكنه اقتصر على استبعاد أن يكون المرئى لا في جهة ، فيقتصر معه على إلزامه استبعاد أن يكون الموجود لا في جهة ، إذ اتباع الوهم يبعدهما جميعا ، والانقياد إلى العقل يبطل هذا الوهم ويجزئها معا^(٣)

وقال في تفسير قوله تعالى : «وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ»^(٤) : تنظر إلى ربها خاصة ، واختصاصهم بالنظر إليه محال ، فوجب حمله على معنى يصح معه الاختصاص ، والذي يصح معه أن يكون من قول الناس أنا إلى فلان ناظر ما يصنع بي ، تريد معنى التوقع والرجاء ، ومنه قول القائل :

وإذا نظرت إليك من ملك والبحرُ دونك زدّتنى نَمًّا
والمعنى أنهم لا يتوقعون النعمة والكرامة إلا من ربهم ، كما كانوا في الدنيا لا يحشون ولا يرجون إلا إياه^(٥) .

(١) سورة يونس ٩٠

(٢) سورة الشعراء ٦١

(٣) هامش الكشاف ٣٠٥/١

(٤) سورة القيامة ٢٢

(٥) الكشاف ٥٠٩/٢

٤ - واقضى نفيمهم للأزلية ومنها الكلام أن يدينوا بأن القرآن كلام الله خلقه بعد أن لم يكن ، حتى لا يشاركه شيء في القدم^(١) . وقد اعتقد الخليفة للمأمون هذا الرأي ، وحمل الناس على أن يدينوا به ، وعذب كثيرا من العلماء مثل أحمد بن حنبل ، ووجه كتابا إلى إسحاق بن إبراهيم سنة ٢١٨ هـ يأمره فيه أن يمتحن القضاة في خلق القرآن ، ليقر منهم على منصبه من يوافق رأى الخليفة ، ثم ليأمرهم بقبول شهادة من يدين به ، ورفض شهادة من لا يدين به^(٢) .

وما زال الخلاف بين المعتزلة والسنية محتدما حتى ظهر الأشعري (المتوفى سنة ٣٣٠ هـ) فذهب إلى أن كلام الله يطلق إطلاقين كما هو الشأن في الإنسان ، فيسمى الإنسان متكلماً باعتبارين : أحدهما بالصوت والآخر بكلام النفس الذي ليس بصوت ولا بحرف ، وهو المعنى القائم بالنفس المعبر عنه بالألفاظ . وانتقل من هذا إلى أن كلام الله يطلق بهذين الإطلاقين ، المعنى النفسى وهو القائم بذاته ، وهو الأزلى القديم وهو لا يتغير بتغير العبارات ، وهذا هو الذى يطلق عليه كلام الله حقيقة ، أما القرآن بمعنى المقروء المكتوب فهو كما يقول المعتزلة حادث مخلوق^(٣) .

ثم جاء الزمخشري فدافع عن عقيدة المعتزلة ، فقال في تفسير قوله تعالى : « قل اجتمعوا إلى الإنسان والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا »^(٤) .

والمعجب من الثوابت ومن زعمهم أن القرآن قديم ، مع اعترافهم بأنه معجز ، وإنما يكون المعجز حيث تكون القدرة فيقال الله قادر على خلق الأجسام

(١) الملل والنحل ٤٩/١

(٢) تاريخ الطبري ٢٤٨/١٠

(٣) ضحى الإسلام ٢٢/٣ - ٤٤

(٤) سورة الإسراء ٨٨

والعباد عاجزون عنه ، وأما الحال الذى لا محال فيه للقدره ولا مدخل لها فيه كثنائى القديم ، فلا يقال للفاعل قد عجز عنه ولا هو معجزه ، ولو قيل ذلك لجاز وصف الله بالمعجز ، لأنه لا يوصف بالقدره على الحال ، إلا أن يكابروا فيقولوا هو قادر على الحال ، فإن رأس ما لهم المكابرة وقلب الحقائق .

وعلق ابن المنير بقوله :

مما يدل على حيد الزنخشرى عن سن الإنصاف أنه تدلس على الضمف فى مثل هذه المسأله التى طبقت الأرض ظهوراً وشيوعاً ، ومع ذلك يرضى لنفسه أن يتجاهل عن معتقد القوم ، وذلك أن عقيدة أهل السنة أن مدلول العبارات صفة قديمة قائمه بذات البارئ تعالى يطلق عليها قرآن ويطلق أيضاً على أداها وهى هذه الكلمات الفصيحة والآى الكريمة قرآن ، وأن المعجز عندهم الدليل لا المدلول ، لكنهم يتحرزون من إطلاق القول بأنه مخلوق لوجهين : أحدهما أنه إطلاق موهم ، والثانى أن السلف الصالح كفوا عنه ، فافتقوا آثارهم ، واقتبسوا أنوارهم ، وكمن معتقداً لا يطلق القول به خشية إيهام غيره مما لا يجوز اعتقاده ، فلا ربط بين الاعتقاد والإطلاق ، ولا كرامة لمعتقد ذلك والمتعنت بإلزامه (١)

(٢)

العدل

من الأصول المهمة للمعتزلة وصف الله تعالى بالعدل ، كما وصفوه بالوحدانية ، ولهذا سمو أنفسهم أهل العدل والتوحيد .

وإذا كان المعتزلة قد شعبوا مباحثهم فيما يتصل بالتوحيد فإنهم قد تعمقوا فيما يتصل بالعدل ، وشققوا منه عدة مباحث :

١ — قاله سبحانه وتعالى عادل ، والظلم منى عنه ، قال تعالى : « وما ربك بظلام للعبيد » ^(١) وقال تعالى : « فما كان الله لينظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » ^(٢) .

٢ — وهو سبحانه يريد لعباده خير ما يكون .

٣ — ولا يريد الشر ولا يأمر به .

وذلك أن مرید الخیر خیر ، ومرید الشر شرير ، فلو كانت إرادة الله متعلقة بكل ما في العالم من خير وشر لكان الخير والشر مرادين له ، فيكون المرید موصوفاً بالخيرية وبالشرية ، وذلك محال على الله .

ولهذا قالوا إن الله أراد ما كان من الأعمال خيراً أن يكون ، وما كان شراً ألا يكون ، وما لم يكن خيراً ولا شراً فهو تعالى لا يريد ولا يكرهه ، ومعنى هذا أن الله مرید لما أمر به من الطاعات أن يكون ، فهو يريد منا الصلاة والزكاة ، ولا يريد منا المعاصي ، وأما المباحات فلا يريد بها ولا يكرهها .

وأما غير المعزلة فيعتقدون أن الله مرید لجميع ما كان ، غير مرید لما لم يكن ، فما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن .

وينبني على هذا أن كفر الكفار وعصيان العصاة لم يرد الله في رأى المعزلة ، وأراده في رأى غيرهم .

قال الزمخشري في تفسير قوله تعالى « إن شرَّ الدوابِّ عند الله الصَّمُّ البُكْمُ » الذين لا يعقلون ، ولو علم الله فيهم خيراً لأَسْمَهُمْ ، ولو أسَمَهُمْ لتَوَلَّوْا وهم مُعْرِضُونَ » ^(٣) .

(١) سورة فصلت ٤٦ .

(٢) سورة الروم ٩ .

(٣) سورة الأنفال ٢٢ .

إن شر من يذب على الأرض أو إن شر البهائم الذين هم صمٌّ عن الحق لا يعقلونه ، ولو علم الله في هؤلاء الصم البكم انتفاعاً باللفظ للطف بهم حتى لا يسمعوا سماع المصدقين ، ولو لطف بهم لما نفع فيهم اللطف ، فذلك منهم إطفاه ، أو ولو لطف بهم وصدقوا لارتدوا بعد ذلك وكذبوا ولم يستقيموا

وعلق ابن المنير بقوله :

إطلاق القول بأن الله تعالى يلفظ بالعبد فلا ينفع لطفه مردود ، فإن اللطف هو إسداء الجميل والإلطاف به ، واسمه اللطيف من ذلك ، فإذا أسدى الجميل إلى العبد بأن أسمعه إسماع لطف به فتلك الغاية المرجوة ، ومعنى اللطف به على هذا أن يخلق في قلبه قبول الحق وحسن الإصغاء إليه والاهتداء به ، ولكن لا يتم ذلك على عقيدة الاعتزال والرأى الفاسد في خلق الأفعال ، لأن مقتضاها أن العبد هو الذي يخلق لنفسه قبول الحق والهداية وحسن الاستماع والإصغاء ، وأن الله تعالى لا يشارك العبد في خلق ذلك ، بل الذي ينسب إلى الله تعالى إرادة الهداية من جميع الخلق ، ولا يلزم حصول مراده على العموم ، ولو تنزل منزل على هذه القاعدة لما استقام تأويل الزمخشري أيضاً ، فإن حاصله ولو علم الله فيهم خيراً للطف بهم ، ولو لطف بهم لما انتفعوا باللفظ ، فيلزم عدم انتفاعهم باللفظ على تقدير علم الله الخير فيهم ، وهذا غير مستقيم ، لما يلزم عليه من وقوع خلاف المعلوم لله تعالى ، وذلك محال عقلاً .

فلا يرتفع الإشكال إلا بتقدير الإسماع الواقع جواباً أولاً ، خلاف الإسماع الواقع شرطاً ثانياً ، كيلا ينكروا الوسط فيلزم المحال المذكور ، وأقرب وجه في اختلاف الإسماعين أن يراد بالأول ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم إسماعاً يخلق

لهم به الهداية والقبول، ولو أسمعهم إسماعاً مجرداً من ذلك لتولوا وهم معرضون ، فهذا هو الوجه في تأويل الآية^(١) .

٤ — ولم يخلق الله أفعال العباد لآخرها ولا شرأ ، وإنما يعملون أعمالهم أحراراً ، فيثابون على الخير ويعاقبون على الشر .

٥ -- وانتهوا من هذا إلى نظرية الصلاح والأصلح ، ومعناها أن الله يقصد من أعماله نفع عباده وصلاحهم . وذهب بعض المعتزلة إلى أن رعاية الله لمصالح عباده واجب عليه ، ولم يكتف بمعضهم بهذا فقالوا إن الواجب عليه رعاية الأصلح .

وقد وافقهم في جوهر الفكرة بعض المعتزلة ، ولسكنهم عابوا عليهم تعبيرهم بالوجوب ، ورأوا أن الأقرب إلى الأدب التعبير بأن هذا هو القانون أو النظام الذي يقصد الله إليه في أعماله .

وخالفهم فريق كبير ، ورأوا أن أفعال الله ليست معللة بفرض ، وليس الباعث عليها غاية ، يدلل أن في العالم شروراً كثيرة ومفارقات شتى ، كالفقر والمرض ، ولا يمكن تفسير ما فيها من المصلحة .

قال الزمخشري في تفسير قوله تعالى : « وعلى الله قصد السبيل ، ومنها جائز ، ولو شاء لهداكم أجمعين »^(٢) :

معناه أن هداية الطريق الموصل إلى الحق واجبة عليه ، كقوله « إن علينا للهدى »^(٣) فإن قلت : لم غير أسلوب الكلام في قوله (ومنها جائز) ؟

(١) الكشف وحاشيته ١/٣٧٠

(٢) سورة النحل ٩

(٣) سورة الليل ١٢

قلت : ليعلم ما يجوز إضافته إليه من السيلين وما لا يجوز ، ولو كان الأمر كما تزعم المجبرة لقليل : وعلى الله قصد السبيل وعليه جائرها أو وعليه الجائر .
وقرأ عبد الله (ومنكم جائر) يعنى ومنكم جائر عن القصد بسوء اختياره والله يرى منه .

ولو شاء الله لهذاكم أجمعين قسرا .

وعلق ابن المنير على رأى الزمخشري بقوله :

أين يُذهب به عن تنمة الآية ، وذلك قوله تعالى : « ولو شاء لهذاكم أجمعين » ولو كان الأمر كما تزعم القدرية لكان الكلام : وقد هذاكم أجمعين . وما كانوا إلا يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض . فإن ذهبوا إلى تأويل الهداية بالقسر والإلجاء فما كانوا إلا يحرفون الكلم عن مواضعه .

وأما المخالفة بين الأسلوبين فلأن سياق الكلام لإقامة حجة الله تعالى على الخلق بأنه بَيَّنَّ السبيل القاصد والجائر ، وهدى قوما اختاروا الهدى ، وأضل قوما اختاروا الضلالة لأنفسهم . وقد تقدم في غير موضع أن كل فعل صدر على يد العبد فله اعتباران : فهو من حيث كونه موجودا مخلوق لله تعالى ومضاف إليه بهذا الاعتبار ، وهو من حيث كونه مقترنا باختيار العبد له ، وبتأنيه له ، وتيسره عليه ، يضاف إلى العبد ، وإن تعدَّد هذين الاعتبارين ثابت في كل فعل ، فناسب إقامة الحجة على العباد إضافة الهداية إلى الله تعالى باعتبار خلقه لها ، وإضافة الضلال إلى العبد باعتبار اختياره له .

والحاصل أنه ذكر في كل واحد من الفعلين نسبة غير النسبة المذكورة في الآخر ؛ ليناسب ذلك إقامة الحجة البالغة^(١) .

وقال الرخشمى فى تفسير قوله تعالى : « فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَدًّا لَهُ خُورًا » ، فقالوا هذا إلهكم وإله موسى ^(١) :

فإن قلت : فلم خلق الله العجل من الحلى حتى صار فتنة لبنى إسرائيل وضلالاً ؟ قلت : ليست بأول محنة محن الله بها عباده ، ليثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ، ومن عجب من خلق العجل فليكن من خلق إبليس أعجب ^(٢) .

وقال فى تفسير قوله تعالى : « لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ » ^(٣) :

إذا كانت عادة الملوك والجبابرة ألا يسألهم من فى مملكتهم عن أفعالهم وعمالهم ويصدرون من تدبير ملكهم ، تهيباً وجلالاً ، مع جواز الخطأ والزلل وأنواع الفساد عليهم ، كان ملك الملوك ورب الأرباب وخالقهم ورازقهم أولى باليسأل عن أفعاله ، مع ما علم واستقر فى العقول من أن ما يفعله كله معقول بدواعى الحكمة ، ولا يجوز عليه الخطأ ولا فعل القبائح ^(٤) .

وعلى ابن المنير بقوله :

سحقاً لها من لفظة ما أسوأ أدبها مع الله تعالى ، أعنى قوله دواعى الحكمة ، فإن الدواعى والصوارف إنما تستعمل فى حق المحدثين ، كقولك هو مما توفّر دواعى الناس إليه أو صوارفهم عنه .

وأما قولك لا يجوز عليه فعل القبائح فهل تقول إن أحداً شريك الله فى ملكه يفعل ما يشاء من الأفعال التى تسميها قبائح فتنتفها عن قدرة الله تعالى

(١) سورة طه ٨٨

(٢) الكشف ٣٢/٢

(٣) سورة الأنبياء ٢٣

(٤) الكشف ٤٣/٢

وإرادته ، وما الفرق بين من يشرك الله ملكاً من الملائكة وبين من يشرك نفسه بربه حتى يقول إنه يفعل ويخلق لنفسه ، شاء الله أو لم يشأ ؟

والقدرة ارتضوا لأنفسهم شرّاً شرك ، لأن غيرهم أشرك بالملائكة ، وهم أشركوا بنفوسهم والشياطين والجن وجميع الحيوانات^(١) .

وقال في تفسير قوله تعالى :

« ولولا أن يكونَ الناسُ أمةً واحدةً لجعلنا لمن يَكْفُرُ بالرحمنِ لُبيوتَهُمْ سَعَفًا من فضةٍ ومعارجَ عليها يظهرون ، ولبيوتَهُمْ أبواباً وسُرُرًا عليها يتكئون وزخرفًا ، وإن كل ذلك لَمَّا متاعُ الحياةِ الدنيا ، والآخرةُ عندَ ربكِ للمتقين^(٢) » :

فإن قلت : فعين لم يوسع على الكافرين للفتنة التي كان يؤدي إليها التوسيع عليهم من إطباق الناس على الكفر ، لحبهم الدنيا وتهالكهم عليها ، فهلا وسع على المسلمين ليطبق الناس على الإسلام ؟

قلت : التوسعة عليهم مفسدة أيضاً ، لما تؤدي إليه من الدخول في الإسلام لأجل الدنيا ، والدخول في الدين لأجل الدنيا من دين المنافقين ، فكانت الحكمة فيما دبر ، حيث جعل في الفريقين أغنياء وفقراء ، وغلب الفقر على الغنى .

وقد علق ابن المنير على هذا بقوله : السؤال والجواب مبنيان على قاعدتين فاسدتين :

إحداهما تعليل أفعال الله تعالى ، والأخرى أن الله تعالى أراد الإسلام من

(١) هامش الكشف ٤٤/٢

(٢) سورة الزخرف ٣٣ - ٣٥

الخلق أجمعين ، أما الأولى فقد أخرس الله السائل عنه بقوله : « لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون ^(١) » .

وأما الثانية فقد كفى الله المؤمنين الجواب بقوله : « ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا ^(٢) » .

وقال في تفسير قوله تعالى : « هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن ^(٣) » :

نعم إن العباد هم الفاعلون للكفر ، ولكن قد سبق في علم الحكيم أنه إذا خلقهم لم يفعلوا إلا الكفر ولم يختاروا غيره ، فما الذى دعاه إلى خلقهم مع علمه بما يكون منهم ؟ .

وهل خلق القبيح وخلق فاعل القبيح إلا واحد ؟

قلت : قد علمنا أن الله حكيم عالم بقبح القبيح ، وعالم بفناء عنه ، فقد علمنا أن أفعاله كلها حسنة ، وخلق فاعل القبيح من أفعال الله ، فوجب أن يكون حسنا ، وأن يكون له وجه حسن ، وخفاء وجه الحسن علينا لا يتدح في حسنه ، كما لا يتدح في حسن أكثر مخلوقاته جهلنا بداعى الحكمة إلى خلقها ^(٤) .

٦ — كذلك انتهوا إلى نظرية الحسن والقبح ، ومعناها أن الحسن والقبح في الأعمال ذاتيان ، ففي الصدق حسن ذاتي ، وفي الكذب قبح ذاتي ، ولهذا لم يميزوا على الله الكذب لما فيه من قبح ، وقالوا إنه لا بد أن يصدق ، لأن الصدق حسن في ذاته .

(١) سورة الأنبياء ٢٣

(٢) سورة يونس ٩٩ والكشاف ٣٥١/٢

(٣) سورة التافين ٢

(٤) الكشاف ٤٦٣/٢

وبنوا على هذا أن الشرع يأمر بأشياء، وينهى عن أشياء، وقال ما فيها من حسن أو قبح، والعقل يستحسن أشياء، ويستقبح أشياء، لأنه يدرك ما في الحسنة من حسن، ويدرك ما في القبيحة من قبح، وليس التحسين والتقبيح راجعين إلى أمر الشرع ونهيه، بل هما راجعان إلى الشيء ذاته وإدراك العقل لحقيقته، فالشرع في تحسينه وتقبيحه مُخْبِرٌ لا مُنْشِئٌ، والعقل في إدراكه يَبْنِى ولا يُوْجِدُ. واستدلوا على هذا بأن الناس كانوا قبل الشرائع يتعاضدون إلى عقولهم، فيستحسنون إنقاذ المَرْقَى مثلاً، ويستقبحون العدوان، وبأن الرسل دعوا الناس إلى تصديقهم والنظر في معجزاتهم للإيمان بشرائعهم، وفي هذا تأكيد لسبق العقل، وبأن الفقهاء اجتهدوا في أمور شرعية لم يرد فيها نص، وعللوا للأحكام، وهذا من عمل العقل المعتمد على الحسن والقبح الذاتيين.

وأما غير المعزلة فذهبوا إلى أن الحسن ما أمر به الشرع، والقبيح ما نهى عنه الشرع، لأن الشرع مثبت لا مخبر، وليس هناك شيء حسن لذاته أو قبيح لذاته، فالحسن والقبح قد يتخلفان، فيكون القتل حسناً مرة وقبيحاً مرة، ولو كان الحسن أو القبح ذاتياً ما تبدل حكمه، وقد يكون الشيء حسناً في زمن وقبيحاً في آخر، والشرائع نفسها تبيح أشياء لقوم وتحرمها على آخرين، وتشرع أموراً لقوم، وتشرع غيرها لسواهم، فلو كان الحسن والقبح ذاتيين ما تغير التشريع^(١).

قال الزمخشري في تفسير قوله تعالى: «لئلا يكون للناس على الله حجةٌ بعد الرسل»^(٢): كيف يكون للناس على الله حجة قبل الرسل، وهم محجوجون بما نصبه الله من الأدلة التي يوصل النظر فيها إلى المعرفة، والرسل في أنفسهم لم يتوصلوا إلى المعرفة إلا بالنظر في تلك الأدلة، ولا عرف أنهم رسل الله إلا بالنظر فيها؟

(١) ضحى الإسلام ٤٥/٣

(٢) سورة النساء ١٦٥

قلت : الرسل منبهون من الغفلة ، وباعثون على النظر ، كما يرى علماء أهل
 الملل والتوحيد ، مع تبليغ ما حملوه من تفصيل أمور الدين ، وبيان أصول
 التكليف ، وتعليم الشرائع ، فكان إرسالهم إزاحة للعلة ، وتنمياً لإلزام الحجة ،
 لئلا يقولوا : لولا أرسلت إلينا رسولا فيوقفنا من سنة الغفلة ، وينبها لما وجب
 الانتباه له .

وغلق ابن المنير بقوله : قاعدة المتزلة في التحسين والتفحيح العقليين تجرم
 وتجرحهم على إثبات أحكام الله تعالى بمجرد العقل وإن لم يبعث رسولا . فيوجبون
 بمقولهم ، ويحرمون ويبيعون على وفق زعمهم . وما يوجبونه قبل ورود
 الشرع النظر في أدلة المعرفة ، ولا يتوقفون على ورود الشرع الموجب ، ولهذا
 يزعمون أن من ترك النظر في الأدلة قبل ورود الشرع فقد ترك واجباً استحق
 به التذيب ، وقد قامت الحجة عليه في الوجوب وإن لم يكن شرع . وإذا
 تليت عليهم هذه الآية صمت آذانهم ، وقالوا إن الرسل تنم حجة الله ، وتنبه
 على ما وجب قبل بعثها بالعقل ^(١) .

وقال في تفسير قوله تعالى : « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ
 حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ » ^(٢) :

يعنى ما أمر الله باتقائه واجتنابه ، كالاستغفار للشركين وغيره مما نهى
 عنه ، وبين أنه محذور لا يؤاخذ به عباده الذين هدام للإسلام ، ولا يسميهم
 ضلالا ، ولا يخذلهم إلا إذا أقدموا عليه بعد بيان حظره عليهم ، وعلمهم أنه
 واجب الاتقاء والاجتناب ، وأما قبل العلم والبيان فلا سبيل عليهم ، كما
 لا يؤاخذون بشرب الخمر ولا بيع الصاع بالصاعين قبل التحريم .

(١) الكشاف ومأخذه ٢٣٨/١

(٢) سورة النوبة ١١٥

فأما ما يعلم بالعقل كالصدق في الخبر، ورد للودعة، فغير موقوف على التوقيف.
وعلق ابن المنبر على هذا بقوله :

هذا تفريع على قاعدة التحسين والتقييح، وأن العقل حاكم الشرع، كما شَفَّ
لما غمض عليه ، تابع لمقتضاه ، وهذه القاعدة قد سبق بطلانها في غير موضع ^(١)
وقال في تفسير قوله تعالى : « ونفسٍ وما سواها فألهمها فجورها
وتقواها » ^(٢) :

معنى إلهام الفجور والتقوى إلهامهما وإعقالمهما ، وأن أحدهما حسن والآخر
قبيح ، وتمكينه من اختيار ما شاء منها ، بدليل قوله : « قد أفلح من زكَّاهَا ،
وقد خاب من دَسَّاهَا » فجعله فاعل التزكية والتدسية ومتوليها .

وأما قول من زعم أن الضمير في زكَّى ودسَّى لله تعالى ، وأن تأنيث
الراجع إلى (من) لأنه في معنى النفس ، فمن تنكيس القدرية - يريد الجبرية -
الذين يوركون على الله قدرأ هو برىء منه ، ومتعال عنه ، ويحيون لياليهم في
تمحل فاحشة ينسبونها إليه .

وعلق ابن المنبر على هذا بقوله :

وفي هذا الكلام نوعان من الباطل : أحدهما في قوله معنى إلهام الفجور
والتقوى إلهامهما وإعقالمهما ، وأن أحدهما حسن والآخر قبيح ، والذي يمكنه
في هذه الكلمات اعتقاد أن الحسن والقبح مدركان بالعقل . ألا ترى إلى قوله
إعقالمهما ، أى خلق العقل الموصل إلى معرفته حسن الحسن وقبح القبيح ، وإنما
اغتم في هذا فرصة إشعار الإلهام بذلك ، فإنه ربما يظن أن إطلاقه على العلم
للاستفاد من السمع بعيد .

(١) الكشف وجامعه ١٠/١

(٢) سورة الشمس ٧ - ٨

والذى يقطع دابر هذه النزعة أنا وإن قلنا إن الحسن والقبح لا يدركان إلا بالسمع ، لأنها راجعان إلى الأحكام الشرعية التى ليست عندنا بصفات الأفعال ، فإننا لانفى حظ العقل من إدراك الأحكام الشرعية ، بل لابد فى علمه كل حكم شرعى من المقدمة العقلية وهى الموصلة إلى العقيدة ، والمقدمة السمعية المفرعة عليها ، وهى الدالة على خصوص الحكم . على أن تعلقه بظاهر — لو سلم ظهوره — فى قاعدة قطعية بمزمل عن الصواب .

للنزعة الثانية (وهنا تكلم عن أفعال العباد)^(١)

(٣)

حرية العباد

دان المعتزلة بحرية العباد فى أعمالهم ، بغير توجيه من إرادة الله وقدرته ، ولهذا يثيبهم الله عليها أو يعاقبهم ، فلا جبر ولا اضطرار ، لأن الله تعالى ميزه عن الفساد ، وعن خلق أفعال العباد ، فهم يفعلون أفعالهم بالقدره التى خلقها الله فيهم ، وهو لم يأمرهم إلا بما أراد ، ولم ينههم إلا عما كره ، ولو شاء لأجبرهم على طاعته ، ومنهم من مصيته ، لأنه القادر .

وهذا هو السبب فى أنهم سمو أنفسهم أهل العدل .

لكن خصومهم أطلقوا عليهم القدرية أحياناً ، لأنهم وافقوا القدرية الذين كانوا قبلهم فى القول بحرية العبد وقدرته واختياره ، وأطلقوا عليهم الجهمية أحياناً ، لأنهم وافقوا الجهمية فى نفي الصفات ، وفى القول بخلق القرآن ، وإن خالفهم فى الحرية والاختيار^(٢) .

(١) الكشف وحاشته ٤٦/٢ .

(٢) الجهمية أتباع جهم بن صفوان كان يقول بالجبر ، ويحرم الإنسان من الاختيار والقدره ، ويزعم أنه يثاب أو يعاقب على أعماله جبراً ، وإنما تنسب الأفعال إليه على سبيل المجاز كما تنسب إلى الجمد ، فيقال جرى الماء وتحرك الهواء وأثمرت الشجرة وطلعت الشمس .

لكن المعتزلة يبرأون من تسميتهم قدرية أو جهمية ، ويردون على التسمية الأولى بأنهم ينفون القدر ، وغيرهم يثبتونه ، فهم أولى بأن ينسبوا إليه .

ويتبرأ من الجهمية بشر بن المعتز أحد زعماء المعتزلة بقوله :

ننفيهم عنا ولنسأ منهم ولاهم منا ولا نرضاهم

لإمامهم جهم ومالجهم وصحب عمروذى التقى والعلم^(١)

وأدلة المعتزلة على مذهبهم شعور الإنسان بالفرق بين الحركة الاختيارية والاضطرارية ، فالأولى مرادة والثانية غير مرادة ، ودليل آخر أنه لولا الحرية لبطل التكليف وانتفى الأمر والنهى والثواب والعقاب ، ودليل ثالث أن بالقرآن آيات كثيرة تؤكد هذه الحرية .

وكان من خصومهم الجبرية الذين ذهبوا إلى أن الإنسان مجبر ، فهو والجماد سواء ، وإذا كانت الأفعال تنسب إليه فإنه مجاز .

وقد نشأ الخلاف نفسه قبل الإسلام بين فلاسفة اليونان ، فذهب الأبيقوريون إلى أن الإنسان حر مختار ، وذهب الرواقيون إلى أنه مجبر لا اختيار له ، كما كان هذا الخلاف من مباحث الزرادشتية ثم المسيحية .

وقد دان المعتزلة بالحرية ، ودافعوا عن مذهبهم ، وتأولوا الآيات القرآنية المخالفة له .

ثم جاء أبو الحسن الأشعري فتوسط بين مذهبي المعتزلة والجبرية ، واخترع

= ومن مذهب أنه لا يجوز وصف الله بصفة يوصف بها خلقه ، لأن هذا يفضي تنصيصاً ، فنفي جهم كونه حياً عالماً وأثبت كونه قادراً فاعلاً خالقاً ، لأنه لا يوصف أحد من خلقه بالقوة والفعل والخلق . وكان جهم من موالى خراسان أقام بالكوفة ودعا إلى مذهب ، وكان وزيراً للهارث بن سريخ ، فلما خرج الحارث على أبي أمية حاربوه وهزموه وأسروا جهم وقتلوه (الليل والنحل ٧٩/١)

(١) عمرو بن مهيد أحد رؤساء المعتزلة الأولين

ماسماء الكسب ، وهو الاقتران العادى بين القدرة المحدثه (أى قدرة الإنسان) والفعل ، فإلله تعالى أجرى العادة بخلق الفعل عند قدرة العبد وإرادته لا بقدرة العبد وإرادته ، وهذا الاقتران هو الكسب . وقال آخرون إن أفعال المباد تضاف إلى الله باعتبار أنه أقدرهم عليها ، وخلق القدرة فيهم ، وتضاف إلى العبد باعتبار أنه هو المصرف لأعماله بقدرته الحرة التى خلقها الله له ^(١) .

وإذ كان الزمخشري يدين بهذه الحرية فإنه لم يدع آية من القرآن الكريم تتصل بالجبر أو الاختيار الا أولها وفق مذهبه .

قال فى تفسير قوله تعالى : « رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا » ^(٢) :
لا تليتنا ببلايا تزيع فيها قلوبنا بعد إذ أرشدتنا لدينك ، أو لا تمنعنا لإطافك بعد إذ لطفت بنا .

وعلق ابن المنير بقوله :

أما أهل السنة فيدعون الله بهذه الدعوة غير محرفة ، لأنهم يوحدون حق التوحيد ، فيمتقدون أن كل حادث من هدى وزين مخلوق لله تعالى .

وأما القدرية فعندهم أن الزين لا يخلقه الله تعالى ، وإنما يخلقه العبد نفسه ، فلا يدعون الله تعالى بهذه الدعوة إلا محرفة إلى غير المراد بها كما أولها المصنف ، وإن كنا ندعو الله تعالى مضافا إلى هذه الدعوة ألا يبتلينا ولا يمنعنا لطفه ، لأن الكل فعله وخلق ولا موجود إلا هو وأفعاله التى نحن وأفعالنا منها ^(٣) .

(١) ضحى الإسلام ٤٤/٣ — ٦١ وطم الأخلاق لأرسطو ٢٦٥ ترجمة أحمد لطفي السيد وزرادت الحكيم ٨٤ حامد عبد القادر

(٢) سورة آل عمران ٨

(٣) الكشف وحاشته ١ / ١٣٥

وقال في تفسير قوله تعالى : « ومن يُرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا »^(١) :

ومن يرد الله فتنه تركه مفتونا ، فلن تملك له من الله شيئا ، ولن تستطيع له من لطف الله وتوفيقه شيئا ، أولئك الذين لم يرد الله أن يمنحهم من اللطافة ما يطهرون به قلوبهم ، لأنهم ليسوا من أهلها ، لعلهم أنها لا تنفع فيهم ولا تنجع ، كقوله تعالى : « إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله »^(٢) وقوله : « كيف يهدي الله قوما كفروا بعد إيمانهم »^(٣) .

وعلق ابن اللبيرة بقوله :

هذه الآية منطبقة على عقيدة السنة في أن الله تعالى أراد الفتنه من المفتونين ، ولم يرد أن يطهر قلوبهم من دنس الفتنه ووضر الكفر ، لا كما تزعم المعتزلة من أنه تعالى ما أراد الفتنه من أحد ، وأراد من كل أحد الإيمان وطهارة القلب ، وأن الواقع من الفتن على خلاف إرادته ، وأن غير الواقع من طهارة قلوب الكفار مراد ، ولكن لم يقع .

فحسبهم هذه الآية وأمثالها لو أراد الله أن يطهر قلوبهم من وضر البدع ، أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ؟ وما أبشع صرف الزمخشري هذه الآية عن ظاهرها بقوله لم يرد الله أن يمنحهم اللطافة ، لعلهم أن اللطافة لا تنجع فيهم ولا تنفع ، وإذا لم تنجع اللطافة الله تعالى ولم تنفع فلطف من ينفع وإرادة من تنجع^(٤) .

وقال في تفسير قوله تعالى : « وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله

(١) سورة المائدة ٤١

(٢) سورة النحل ١٠٤

(٣) سورة آل عمران ٨٦ والكشاف وحاشه ٢٥٦/١

(٤) حاش الكشاف ٢٥٦/١

وَعَدَكُمْ وَفَدَّ الْحَقُّ، ووعدتكم فأخلفتكم، وما كان لي عليكم من سلطان
إلا أن أدعوتكم فاستجبتم لي، فلا تلوموني ولوموا أنفسكم^(١) :

لا تلوموني حيث اغتررتم بي، وأطعتموني إذ دعوتكم، ولم تطيعوا ربكم
إذ دعاكم، وهذا دليل على أن الإنسان هو الذي يخلق الشقاوة أو السعادة
ويحصلها لنفسه، وليس من الله إلا التمكين ولا من الشيطان إلا التزيين، ولو
كان الأمر كما تزعم الجبهة لقال فلا تلوموني ولا تلوموا أنفسكم، فإن الله قضى
عليكم الكفر وأجبركم عليه .

فإن قلت : قول الشيطان باطل لا يصح التعلق به .

قلت : ولو كان هذا القول منه باطلا لبين الله بطلانه ، وأظهر إنكاره ،
على أنه لا طائل له في النطق بالبطل في ذلك المقام ، ألا ترى إلى قوله : « إن
الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم » كيف أتى فيه بالحق والصدق ؟
وفي قوله : « وما كان لي عليكم من سلطان » وهو مثل قوله تعالى : « إن
عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الفاوين »^(٢) .

وعلق ابن المنير بقوله :

نحن معاشر أهل السنة الملقبين عنده بالجبهة نقول إن الله تعالى إنما أورد
هذا الكلام غير رادٍّ له ولا مخفى فيه الشيطان ، كما قص كلام الكفار في
الآية الأولى كذلك . ونحن نعتقد أن الملامة إنما تتوجه على المكلف ، وأما الله
تعالى فقدس عن ذلك ، لأننا نعترف بما خلقه الله للعبد من الاختيار الذي يحمده
من نفسه عند تجاوب طرفي الأفعال الإرادية ، وبذلك قامت الحجة له على

(١) سورة إبراهيم ٢٢

(٢) سورة الحجر ٤٢ الكشاف ٥٠٣/١

خلقه وإن سلبنا قدرة الخلق تأثيرها في الفعل ، فلا تناقض إذاً بين عقيدة السنة وبين صرف الملامة إلى المكلف ^(١) .

وقال في تفسير قوله تعالى : « ولو شاء ربك لجلل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك » ^(٢) :

يعنى لا يضطرم إلى أن يكونوا أهل ملة واحدة وهى ملة الإسلام ، لقوله : « إن هذه أمتكم أمة واحدة » ^(٣) ، وهذا الكلام يتضمن نفي الاضطرار ، وأنه لم يضطرم إلى الاتفاق على دين الحق ، ولكنه مكنهم من الاختيار الذى هو أساس التكليف ، فاختر بعضهم الحق وبعضهم الباطل ، فاختلوا ، ولذلك قال : « ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك » إلا ناسا هداهم الله ولطف بهم ، فاتفقوا على دين الحق غير مختلفين فيه ^(٤) .

وقال في تفسير قوله تعالى : « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها » ^(٥) :

معنى إلهام الفجور والتقوى إلهامها وإعقابها وتمكينها من اختيار ما شاء مسهما ، بدليل قوله : « قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها » فجعله فاعل التزكية .

وسئل ابن عباس عنه فقال أنقرأ : « قد أفلح من تزكى » ^(٦) « وقد خاب من حل ظلماته » ^(٧) . وأما قول من زعم أن الضمير في زكى ودمى لله تعالى ، وأن تأنيث الراجع إلى (من) لأنه في معنى النفس ، فمن تعكيس القدرية — يريد الجبرية —

(١) هامش الكشف ٥٠٣/١

(٢) سورة هود ١١٨

(٣) سورة المؤمنون ٥٢

(٤) الكشف ٤٥٧/١

(٥) سورة الفس ٧ — ١٠

(٦) سورة الأمل ١٤

(٧) سورة طه ١١١

الذين يوركون على الله قدراً هو برىء منه ، ومتعال عنه ، ويحيون لآلهم في تحمل فاحشة ينسبونها إليه ^(١)

وعلق ابن المنير على هذا بالرد على أن الحسن والقيح مدركان بالعقل . ثم قال إن التزكية وقسميها ليسا مخلوقين لله تعالى بل لشركائه المعتزلة ، وإنما نمارضه في الظاهر من خوى الآية ، على أنه لم يذكر وجهها في الرد على من قال إن الضمير لله تعالى ، وإنما اقتصر على الدعوى مقرونة بسفاهة على أهل السنة ، فنقول لا مراء في احتمال عود الضمير إلى الله تعالى وإلى ذى النفس ، لكن عوده إلى الله تعالى أولى لوجهين : أحدهما أن الجمل سبقت سياقة واحدة من قوله : « والسياء وما بناها » والضمائر فيها تقدم هذين الفعلين عائدة إلى الله تعالى بالإتفاق ، ولم يحر لغير الله ذكر ، وإن قيل يعود الضمير إلى غيره فإنما يتمحل لجوازه بدلالة الكلام ضمنا واستلزاما لا ذكرا ومنطقاً ، وما جرى ذكره أولى أن يعود الضمير عليه .

والثاني أن الفعل المستعمل في الآية التي استدلل بها في قوله : « أفلح من تركى » وهو (تفعل) لاشك أن تفعل مطاوع فقبل ، فهذا بأن يدل لنا أولى من أن يدل له ، لأن الكلام عندنا نحن قد أفلح من تركاه الله تركى ، وعنده الفاعل في الاثنين واحد أضاف إليه الفعلين المختلفين ، ويحتاج في تصحيح الكلام إلى تعديد اعتبار وجه ، ونحن عنه في غنية .

على أنا لا نأبى أن تضاف التزكية والتدسية إلى العبد على طريقة أنه الفاعل ، كما يضاف إليه الصلاة والصيام وغير ذلك من أفعال الطاعات ، لأن له عندنا اختياراً وقدرة مقارنة ، وإن منعنا البرهان العقلي الدال على وحدانية الله تعالى ونفى الشريك أن نجعل قدرة العبد مؤثرة خالقه ^(٢) .

(١) الكشف ٥٤٦/٢

(٢) هامش الكشف ٥٤٦/٢

(٤)

الوعد والوعيد

أراد للمنزلة بالوعد والوعيد أن الله صادق في وعده ووعيده ، فقد وعد المتقين الجنة ، وأوعد المشركين والمصاة النار ، وهو سبحانه لا يخلف وعده ولا وعيده ، فمن مما يفعله استحق الثواب ، ومن خسر يفعله استحق العقاب ، فالثواب والعقاب قانون حتى ألزم الله تعالى به .

وإذا مات المسلم العاصي قبل التوبة يخلد في النار ، ولا تنفع فيه شفاعة .
وهم بهذا يخالفون المرجئة ، لأن هؤلاء ذهبوا إلى أن الله لا يخلف وعده ولكنه قد يخلف وعيده ، لأن الثواب فضل من الله لا بد أن يفي به ، وإلا كان خلف الوعد نقصاً ، أما العقاب فعدل ، والله أن يمهو أو يخفف العقوبة ، وليس في هذا نقص .

كما أن مرتكب الكبيرة لا يخلد في النار ، لأنه عمل خيراً هو إيمانه ، وارتكب شراً هو كبريته ، فيما قبل على كبريته ، ويثاب على إيمانه .
فلننظر تأويل الزمخشري للآيات المتصلة بهذا الخلاف .

قال في تفسير قوله تعالى : «إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ» (١) : قد ثبت أن الله عز وجل يغفر الشرك لمن تاب منه ، وأنه لا يغفر ما دون الشرك من الكبائر إلا بالتوبة فما وجه هذه الآية ؟

الوجه أن يكون الفعل المنفي والمثبت جميعاً موجهين إلى قوله تعالى : «لِمَنْ يَشَاءُ» ، كأنه قيل إن الله لا يغفر لمن يشاء الشرك ، ويغفر لمن يشاء ما دون الشرك ، غلى أن المراد بالأول من لم يتب ، وبالثاني من تاب .

ونظيره قولك إن الأمير لا يبذل الدينار ويبذل القنطار لمن يشاء ، تريد
لا يبذل الدينار لمن لا يستأهله ، ويبذل القنطار لمن يستأهله .

وعلق ابن المنير بقوله :

عقيدة أهل السنة أن الشرك غير مغفور أثبتة ، وما دونه من الكبائر
مغفور لمن يشاء الله أن يفره له ، هذا مع عدم التوبة ، وأما مع التوبة فكلها
مغفور . وهذه الآية وردت فيمن لم يتب ولم تذكر فيها توبة ، فلذلك أطلق
الله تعالى نفي مغفرة الشرك ، وأثبت مغفرة ما دونه مقرونة بالمشيئة ، فهذا وجه
انطباق الآية على عقيدة أهل السنة .

وأما القدرية فإنهم يظنون التسوية بين الشرك وبين ما دونه من الكبائر في أن
كل واحد من النوعين لا يفر بدون التوبة ، ولا شاء الله أن يفرها إلا للتائبين ،
فإذا عرض الزمخشري هذا المعتقد على هذه الآية ردت ونبت عنه ، إذ المغفرة
منفية فيها عن الشرك وثابتة لما دونه ، مقرونة بالمشيئة .

فأما أن يكون المراد فيهما من لم يتب فلا وجه للتفصيل بينهما بتعليق
المغفرة في أحدهما بالمشيئة وتعليقها بالآخر مطلقا ، إذ هما سريان في استحالة المغفرة .

وأما أن يكون المراد فيهما التائب فقد قال في الشرك إنه لا يفر ،
والتائب من الشرك مغفور له ، وعند ذلك أخذ الزمخشري يقطع أحدهما
عن الآخر ، فيجعل المراد مع الشرك عدم التوبة ، ومع الكبائر التوبة ،
حتى ينزل الآية على وفق معتقده ، فيحملها أمرين لا تحتمل واحدا منهما ،
أحدهما إضافة التوبة إلى المشيئة وهي غير مذكورة ولا دليل عليها فيما ذكر ،
ولو كانت مرادة لسكانت هي السبب الموجب للمغفرة على زعم القدرية عقلا ،
ولا يمكن تعلق المشيئة بخلافها على ظنهم في العقل ، فكيف يليق السكوت عن
ذكر ما هو العمدة والموجب ، وذكر ما لا يدخل له على هذا المعتقد الردى ؟

الثانى أنه بعد تقريره التوبة اختكم فقدرها على أحد القسمين دون الآخر ، وما هذا إلا من جعل القرآن تبعاً للرأى ^(١) .

وقال فى تفسير قوله تعالى : « ومن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فيها ، وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ ، وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً » ^(٢) :

هذه الآية فيها من التهديد والإيعاد والإبراق والإرعاد أمر عظيم وخطب غليظ ، ومن ثم روى عن أبى عباس أن توبة قاتل المؤمن عدا غير مقبولة ، وعن سفيان : كان أهل العلم إذا سئلوا قالوا لا توبة له ، وذلك محمول منهم على الاقتداء بسنة الله فى التغليظ والتشديد ، وإلا فكل ذنب محو بالتوبة ، ونهايك بمحو الشرك دليلاً .

وفى الحديث : لزوال الدنيا أهون على الله من قتل امرئ مسلم وفيه
والمعجب من قوم يقرأون هذه الآية ، ويسمعون هذه الأحاديث وقول ابن عباس بمنع التوبة ، ثم لا تدعهم أشعيتهم وطاعيتهم الفارغة واتباعهم هوام وما يخيل إليهم مناهم أن يظنموا فى العفو عن قاتل المؤمن بغير توبة ، أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ؟

فإن قلت : هل فيها دليل على خلود من لم يتب من أهل الكبائر ؟
قلت : ما أبين الدليل وهو تناول قوله : « ومن يقتل » أى قاتل كان ، من مسلم أو كافر ، تائب أو غير تائب ، إلا أن التائب أخرجه الدليل ، فمن ادعى إخراج المسلم غير التائب فليأت بدليل مثله .

وعلق ابن المنير بقوله :

كفى بقوله تعالى فى هذه السورة « إن الله لا يغفر أن يُشركَ به ، ويغفر

(١) الكشف وحاشه ٢٠٨/١

(٢) سورة النساء ٩٣

ما دون ذلك لمن يشاء» دليل أبلغ على أن القاتل الموحّد وإن لم يقب فأمره إلى الله إن شاء آخذه ، وإن شاء غفر له .

وأما نسبة أهل السنة إلى الأشعيية فذلك لا يضيرهم ، لأنهم إنما تطفلوا على لطف أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين ، ولم يقنطوا من رحمة الله ، إنه لا يقنط من رحمة الله إلا القوم الظالمون ^(١) .

وقال في تفسير قوله تعالى : « واتقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ، ولا يقبل منها شفاعَةٌ ، ولا يؤخذ منها عدلٌ ، ولا هم ينصرون » ^(٢) :

فإن قلت : هل فيه دليل على أن الشفاعة لا تقبل للمعصاة ؟

قلت : نعم ، لأنه نفي أن تقضى نفس عن نفس حقاً أخلت به من فعل أو ترك ، ثم نفي أن يقبل منها شفاعَةٌ شفيع ، فلم أنها لا تقبل للمعصاة .

فإن قلت : الضمير في (منها) إلى أي النفسين يرجع ؟

قلت : إلى الثانية المعاصية غير الجزى عنها ، وهي التي لا يؤخذ منها عدل ، ومعنى لا يقبل منها شفاعَةٌ إن جاءت بشفاعة شفيع لم يقبل منها ، ويحوز أن يرجع إلى النفس الأولى على أنها لو شفعت لها لم تقبل شفاعتها ، كما لا تجزى عنها شيئاً ، ولو أعطت عدلاً عنها لم يؤخذ منها ^(٣) .

وعلق ابن المنير على هذا بقوله :

أما من جحد الشفاعة فهو جدير ألا ينالها ، وأما من آمن بها وصدقها وهم أهل السنة والجماعة فأولئك يرجون رحمة الله ، ومعتقدهم أنها تنال المعصاة من المؤمنين ، وإنما ادخرت لهم ، وليس في الآية دليل لمسكريها ، لأن قوله

(١) الكشاف ومأخذه ٢٢١/١

(٢) سورة البقرة ٤٨

(٣) الكشاف ٥٠/١

(يوماً) أخرجه منكراً ، ولا شك أن في القيامة مواطن ، ويومها معدود بخمسين ألف سنة ، فبعض أوقاتها ليس زمانا للشفاعة ، وبعضها هو الوقت الموعود ، وفيه المقام المحمود لسيد البشر عليه الصلاة والسلام ^(١) .

وقال في تفسير قوله تعالى : « يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَاللَّائِكَةُ صَفًّا ، لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا » ^(٢) :

هما شريطان : أن يكون التكلم منهم مأذونا له في الكلام ، وأن يتكلم بالصواب ، فلا يشفع لغير مرتضى ، لقوله تعالى : « وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى » ^(٣) .
وعلق ابن المنير بقوله :

يعرض بأن الشفاعة لا تمحل على مرتكبي الكبائر من الموحدين ، وقد صرح بذلك في مواضع تقدمت ، ويذهب إلى أنها مخصوصة بالمرتضين ، وذوو الكبائر ليسوا مرتضين ، ومن ثم أخطأ ، فإن الله عز وجل ما خصهم بالإيمان والتوحيد وتوفاهم عليه إلا وقد ارتضاهم ، بدليل قوله تعالى : « وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ . وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ » ^(٤) فجعل الشكر بمعنى الإيمان المقابل لل كفر مرضيا لله تعالى ، وصاحبه مرتضى ^(٥) .

(٥)

المنزلة بين المنزلتين

دخل رجل على الحسن البصري فقال : يا إمام الدين لقد ظهرت في زمننا جماعة يكفرون أصحاب الكبائرهم وعيدية الخوارج ، وجماعة يرجئون أصحاب

(١) هامش الكشاف ١ / ٥٤

(٢) سورة البأ ٢٨

(٣) سورة الأنبياء ٢٨ والكشاف ٢ / ٢٠٠

(٤) سورة الزمر ٧

(٥) هامش الكشاف ٢ / ٢٠٠

الكبائر ، والكبيرة عندهم لا تضر مع الإيمان ، بل العمل على مذهبهم ليس
ركنا من الإيمان ، ولا تضر مع الإيمان معصية ، كما لا ترفع مع الكفر طاعة ،
هم مرجئه الأمة ، فكيف تحكم لنا في ذلك ؟

ففكر الحسن ، وقبل أن يجيب قال تلميذه واصل بن عطاء : أنا لا أقول
أن صاحب الكبيرة مؤمن مطلقا ولا كافر مطلقا ، بل هو في منزلة بين المنزلتين .
ثم قام واعتزل إلى أسطوانة بالسجد ، وجعل يقرر ما أجاب به على جماعة من
أصحاب الحسن ، فقال الحسن : اعتزل عنا واصل ، فسي هو وأصحابه معتزلة .

وقد دار خلاف كبير دائم حول وصف مرتكبي الكبيرة ، فالحسن
رأى أنه منافق ، وواصل بن عطاء ذهب إلى أنه في منزلة بين الكفر والإيمان ،
وتابعه على رأيه عمرو بن عبيد ، والرجئة وصفوه بأنه مؤمن ، والأزارقة وصفوه
بأنه كافر ، وأهل السنة قالوا إنه فاسق ^(١) .

ودليل المعتزلة أن الإيمان اجتماع التصديق والاعتقاد القلبي وأداء الواجبات ،
فمن صدق بأن الله واحد وأن محمدا رسوله ، ولم يقم بالفرائض لم يكن مؤمنا ،
لأنه لم يستكمل خصال الخير .

وبنى المعتزلة على رأيهم هذا أن المعاصي قسمان : كبائر وصغائر ، واختلفوا
في تعريف كل منهما ، وإن كان أكثرهم على أن الكبيرة ما أتى فيها وعيد ،
والصغيرة ما لم يأت فيها وعيد ، وقالوا إن بعض الكبائر تصل إلى حد الكفر ،
فمن شبه الله بخلقه أو نسب إليه الظلم أو كذبه في خبر ، فقد كفر .

وهناك كبائر أقل منها منزلة ، يسمى مرتكبها فاسقا ، والفسق منزلة بين

(١) اللؤلؤ والنحل ١/ ٥٢ ووفيات الأعيان في ترجمة قتادة و تاج العروس مادة عزل

الكفر والإيمان ، ولهذا فإن الفاسق ليس مؤمنا وليس كافرا ، وإنما هو في منزلة بين المنزلتين ^(١) .

وعلى هذا الرأي أول الزمخشري بعض الآيات

١ — فمن تأويله للآيات المتصلة بالمنزلة بين المنزلتين أنه قال في تفسير قوله تعالى : « الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ » ^(٢) : الإيمان الصحيح أن يعتقد الحق ويعرب عنه بلسانه ويصدق به عمله . فمن أخل بالاعتقاد وإن شهد وعمل فهو منافق ، ومن أخل بالشهادة فهو كافر ، ومن أخل بالعمل فهو فاسق .

وعلق ابن النير بقوله : إنه أراد بالفاسق غير المؤمن وغير الكافر ، وهذا من الأسماء التي سماها القدرية ، وما أنزل الله بها من سلطان .

ومعتقد أهل السنة أن الموحدة لله الذي لا خلل في عقيدته مؤمن وإن ارتكب الكبائر ، وهذا الصحيح لغة وشرعا . أما لغة فإن الإيمان هو التصديق ، وهو مصدق ، وأما شرعا فأقرب شاهد عليه هذه الآية ، فإنه لما عطف فيها العمل الصالح على الإيمان دل على أن الإيمان معقول بدونه ، ولو كان العمل الصالح من الإيمان لكان العطف تكرارا ^(٣) .

وقال في تفسير قوله تعالى : « الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ ، فَزَادَهُمْ إِيمَانًا ، وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ » ^(٤) :

لما لم يسمعوا قول المشيط ، وأخلصوا النية والعزم على الجهاد ، وأظهروا

(١) الملل والنحل ١/٢٠٢ .

(٢) سورة البقرة ٣ .

(٣) الكشاف وحاشيته ١/١٧٢ .

(٤) سورة آل عمران ١٧٣ .

حمية الإسلام ، كان ذلك أثبت ليقينهم ، وأقوى لاعتقادهم ، كما يزداد الإيمان بتناصر الحجج ، ولأن خروجهم على أثر التنبيط إلى وجهة العدو طاعة قطعية ، والطاعات من جملة الإيمان ، لأن الإيمان اعتقاد وإقرار وعمل .

وعن ابن عمر : قلنا يا رسول الله هل الإيمان يزيد وينقص ؟ قال : نعم يزيد حتى يدخل صاحبه الجنة ، وينقص حتى يدخل صاحبه النار .

وعن عمر رضى الله عنه أنه كان يأخذ بيد الرجل فيقول : قم بنا نردد إيماناً . وعنه : لو وزن إيمان أبى بكر بإيمان هذه الأمة لرجح به ^(١) .

وقال فى تفسير قوله تعالى : « وبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ » ، وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ^(٢) :

إن الله ذكر المؤمنين الأبرار وذكر الكفار ، ولم يذكر الفسقة ، لأن الناس حينئذ إما مؤمن تقي وإما مشرك ، وإنما حدث أصحاب المنزلة بين المنزلتين بعد ذلك ^(٣) .

٤ — ومن تأويله للآيات المتصلة بالكبائر والصغائر أنه قال فى تفسير قوله تعالى : « ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ، هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ » ^(٤) :

المُتَّقِى هو الذى بقى نفسه تعاطى ما يستحق من العقوبة من فعل أو ترك . واختلف فى الصغائر ، وقيل الصحيح أنه لا يتناولها ، لأنها تقع مكفرة عن مجتنب الكبائر ^(٥) .

(١) الكشاف ١/١٧٦

(٢) سورة الإسراء ٩ — ١٠

(٣) الكشاف ١/٤١٠

(٤) سورة البقرة ٢

(٥) الكشاف ١/١٦

وعلق ابن المنير بقوله : من تمنى القدرية على الله تعالى اعتقادهم أن الصفائر محوثة عنهم ما اجتنبوا الكبائر ، وأنه يجب أن يعفو الله عنها لمجتنب الكبائر ، كما يجب عندهم ألا يعفو عن مرتكب الكبائر ، وهذا هو الخطأ الصراح والحادة آيات الله البينات وسنن رسوله صلى الله عليه وسلم الصراح .

والحق أن غفران الصفائر وإن اجتنبت الكبائر موكول إلى المشيئة ، كما أن غفران الكبائر موكول إليها أيضا .

ومن لا يعتقد ذلك وهم القدرية يضطرون إلى الوقوف عند قوله تعالى : « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » ^(١) فإنه ناطق بالمؤاخذة بالصفائر ، ويحذرون عند قوله تعالى : « إِنْ اللَّهُ يَغْفِرَ الذَّنُوبَ جَمِيعًا » ^(٢) فإنه يصرح بمغفرة الكبائر .

أما أهل السنة فقد ألقوا بين هاتين الآيتين بقوله تعالى : « إِنْ اللَّهُ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ وَيَغْفِرَ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ » ^(٣) فإن التقييد بالمشيئة في هذه يقضى على الآيتين المطلقتين ^(٤) :

وقال في تفسير قوله تعالى : « وَإِنْ رَبُّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ ، وَإِنْ رَبُّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ » ^(٥) .

أى مع ظلمهم أنفسهم بالذنوب ، ومحلله الحال ، بمعنى ظالمين لأنفسهم . وفيه أوجه : أن يريد السيئات المكفرة لمجتنب الكبائر ، أو يريد الكبائر بشرط التوبة ، أو يريد بالمغفرة الستر والإمهال .

(١) سورة الزلزلة ٧ — ٨

(٢) سورة الزمر ٥٣

(٣) سورة النساء ١١٦

(٤) هامش الكشاف ١٦/١

(٥) سورة الرعد ٦

وروى أنها لما نزلت قال النبي عليه الصلاة والسلام : لولا عفو الله وتجاوزه ما هُتِفَ أحدُ العيش، ولولا وعيده وعقابه لا تسكل كل أحد^(١).

وعلق ابن المبير بقوله : الوجه الحق بقاء الوعد على إطلاقه ، إلا حيث دل الدليل على التقييد، في غير الموحّد، فإن ظلمه أعنى شرّكه لا يغفر، وماعدا الشرك فغفرانه في المشيئة، والزمخشري يبنى على عقيدته التي وضّح فسادها استحالة الغفران لصاحب الكبائر وإن كان موحداً إلا بالتوبة، فيقيد مطلقاً، ويحجر واسعا^(٢).

وقال في تفسير قوله تعالى : « قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً ، إنه هو الغفور الرحيم »^(٣) :
يعنى بشرط التوبة ، وقد تكرّر هذا الشرط في القرآن ، فكان ذكره في مواضع مغنياً عن عدم ذكره في مواضع ، لأن القرآن في حكم كلام واحد ، ولا يجوز فيه التناقض . وفي قراءة ابن عباس وابن مسعود « يغفر الذنوب جميعاً لمن يشاء » والمراد بمن يشاء من تاب ، لأن مشيئة الله تابعة لحكمه وعدله لا لملكه وجبروته . وقيل في قراءة النبي صلى الله عليه وسلم وفاطمة رضي الله عنها « يغفر الذنوب جميعاً ولا يبالي » ونظير نفي المبالاة نفي الخوف في قوله تعالى : « ولا يخاف عقباها »^(٤).

ثم ذكر ما قيل في أسباب نزول الآية^(٥) :

وقال في تفسير قوله تعالى : « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر »

(١) الكشف ٤٨٩/١

(٢) هامش الكشف ٤٨٩/١

(٣) سورة الزمر ٥٣

(٤) سورة الشمس ١٥

(٥) الكشف ٣٠٢/٢

عنكم سيئاتكم»^(١) : الكبيرة والصغيرة إنما وصفنا بالكبر والصغر بإضافتهما إما إلى طاعة أو معصية أو ثواب أو عقاب فاعلها^(٢).

وقال في تفسير قوله تعالى : « الذين يَحْتَنِبُونَ كِبَارَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ »^(٣) :

الإثم جنس يشتمل على كبائر وصغائر ، والكبائر الذنوب التي لا يسقط عقابها إلا بالتوبة ، وقيل التي يكبر عقابها بالإضافة إلى ثواب صاحبها . والفواحش ما فحش من الكبائر ، كأنه قال والفواحش منها خاصة ، واللمم ما قل وصغر من الذنوب ، وعن أبي سعيد الخدري : اللمم هو النظرة والغمرة والقبلة ، وعن السدي الخطرة من الذنب ، وعن الكلبي كل ذنب لم يذكر الله عليه حدا ولا عذابا .

والله واسع المغفرة ، حيث يكفر الصغائر باجتنايب الكبائر ، ويكفر الكبائر بالتوبة^(٤) .

(٦)

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

رأى المعتزلة أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب على المسلمين ، كما رأى غيرهم .

ولكنهم ذهبوا إلى الاقتصار على القلب إن كفى ، فإن لم يكف القلب فباللسان ، فإن لم يفض القلب واللسان فباليد ، فإن لم تنفع اليد فبالسيف^(٥) .

(١) سورة النساء ٣١

(٢) الكشف ٢٠٢/١

(٣) سورة النجم ٣٣

(٤) الكشف ٤١٨/٢

(٥) الملل والنحل ٤٩/١ ومروج الذهب ١٩٠/٢

قال الزمخشري إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الكفايات، لأنه لا يصلح له إلا من علم المعروف ونهى عن المنكر، وعلم كيف يرتب الأمر في أوقاته، وكيف يبائره، فإن الجاهل ربما نهى عن معروف وأمر بمنكر، وقد يفلط في موضع اللين ويلين في موضع الغلظة، وينكر على من لا يزيده إنكاره إلتاماديا، أو على من الإنكار عليه عبث.

والأمر بالمعروف تابع للأمر به، إن كان واجبا فواجب، وإن كان ندبا فنلذب، وأما النهي عن المنكر فواجب كله، لأن جميع المنكر تركه واجب، لانصافه بالقبح. وشرط الوجوب أن يطلب على ظنه وقوع المعصية، نحو أن يرى الشارب قد تهيأ لشرب الخمر بإعداد آلاته، وألا يطلب على ظنه أنه إن أنكر لحقته مضرة عظيمة، ويتبدى في إنكاره بالسهل، فإن لم ينفع ترقى إلى الصعب، لأن الغرض كف المنكر

فمن رأى غيره تاركا للصلاة وجب عليه الإنكار، وأما ما يحتاج إلى قتال فإنما يقوم به من في استطاعته القتال، كالإمام وخلفائه، لأنهم أعلم بالسياسة ومعهم عدتها^(١).

ثانياً - مذاهب فقهاء

عرض الزمخشري لمسائل فقهية كثيرة ، ولكنه لم يقتصر على مذهبه الحنفى ، بل أورد الأحكام فى المذاهب الأخرى ، وكان أحياناً يرجع مذهب الشافعى على مذهب أبى حنيفة .
وهذه أمثلة مما ذكره :

١ - قال تعالى : « فَنَتَمَتَّعْ بِالْمَعْمُورَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ، فَنَ لِمَ يَجِدْ فِصْيَامٌ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةً إِذَا رَجَعْتُمْ ^(١) » .
الهدى هدى المتعة وهو نسك عند أبى حنيفة ، وبأكل منه ، وعند الشافعى يجرى مجرى الجنائيات ولا يأكل منه .

ويذبحه يوم النحر عندنا ، وعنده يجوز ذبحه إذا أحرم بحجته ، فن لم يجد الهدى فعليه صيام ثلاثة أيام فى وقت الحج ، وهو أشهره ما بين الإحرامين إحرام العمرة وإحرام الحج ، وهو مذهب أبى حنيفة رحمه الله ، والأفضل أن يصوم يوم التروية وعرفة ويوما قبلهما ، وإن مضى هذا الوقت لم يجزئه إلا الدم ، وعند الشافعى لاتصام إلا بعد الإحرام بالحج ، تمسكاً بظاهر قوله (فى الحج وسبعة إذا رجعت) بمعنى إذا فرتم وفرغتم من أفعال الحج عند أبى حنيفة ، وعند الشافعى هو الرجوع إلى أهاليهم ^(٢) .

٢ - وقال تعالى :

« وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ ، فَنَسَجَلَّ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ^(٣) » .
الأيام المعدادات أيام التشريق ، وذكر الله فيها والتكبير فى أدبار الصلوات وعند رمى الجمرات . (فى يومين) بعد يوم النحر يوم النَّفَر ، وهو الذى يسميه

(١) سورة البقرة ١٩٦

(٢) الكشاف ١/٩٣

(٣) سورة البقرة ٢٠٣

أهل مكة يوم الرموس ، واليوم بعده ينفر إذا فرغ من رمى الجمار كما يفعل الناس اليوم ، وهو مذهب الشافعي . ويروى عن قتاده ، وعن أبي حنيفة وأصحابه ينفر قبل طلوع الفجر (ومن تأخر) حتى رمى في اليوم الثالث ، والرمي في اليوم الثالث يجوز تقديمه على الزوال عند أبي حنيفة وعند الشافعي لا يجوز ^(١) .

٣ — وقال تعالى : « ويسألونك عن المحيض قل هو أذى ، فاعتزلوا النساء في المحيض » ^(٢) .

بين الفقهاء خلاف في الاعتزال ، فأبو حنيفة وأبو يوسف يوجبان اعتزال ما اشتمل عليه الإزار ، ومحمد بن الحسن لا يوجب إلا اعتزال الفرج ، وروى محمد حديث عائشة رضي الله عنها أن عبد الله بن عمر سألها : هل يباشر الرجل امرأته وهي حائض ؟ فقالت : تشد إزارها على سفرتها ، ثم ليباشرها إن شاء ، وماروى زيد بن أسلم أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم : ما يحل لي من امرأتي وهي حائض ؟ قال : لتشد عليها إزارها ثم شأنك بأعلاها . ثم قال : وهذا قول أبي حنيفة ، وقد جاء ما هو أرخص من هذا عن عائشة ، قالت : يحتنب شعار الدم وله ماسوى ذلك ^(٣) .

٤ — وقال تعالى : « والوالدات يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْفِثَ الرِّضَاعَةَ ، وعلى المولود له رزقهنَّ وكسوتهنَّ بالمعروف... » ^(٤) .

يجب على الأب إرضاع الولد دون الأم ، وعليه أن يتخذ له ظئرا ، إلا إذا تطوعت الأم بإرضاعه ، وهي مندوبة إلى ذلك ، ولا تجبر عليه ، ولا يجوز استئجارها عند أبي حنيفة ما دامت زوجة أو معتدة من نكاح ، وعند الشافعي يجوز ، فإن انقضت عدتها جاز بالاتفاق ^(٥) .

٥ — وقال تعالى : « واستشهدوا شهيدين من رجالكم » ^(٦) .

(١) الكشف ٩٧/١

(٢) سورة البقرة ٢٢٢

(٣) الكشف ١٠٣/١

(٤) سورة البقرة ٢٣٣

(٥) الكشف ١٠٩/١

(٦) سورة البقرة ٢٨٢

اطلبوا أن يشهد لكم شهيذان على الدين من رجال المؤمنين ، والحرية والبلوغ شرط مع الإسلام عند عامة العلماء ، وعن علي رضي الله عنه : لا تجوز شهادة العبد في شيء ، وعند شريح وابن سيرين وعثمان البتي أنها جائزة . ويجوز عند أبي حنيفة شهادة الكفار بمضهم على اختلاف الملل ^(١) .

٦ — قال تعالى : « ولله على الناس حجب البئس من استطاع إليه سبيلا ^(٢) » .

فسر رسول الله الاستطاعة بالزاد والراحلة ، وكذا عن ابن عباس وابن عمر ، وعليه أكثر العلماء ، وعن ابن الزبير هو على قدر القوة .

ومذهب مالك أن الرجل إذا وثق بقوته لزمه ، وروى عنه أن ذلك على قدر الطاقة .

وقد يجد الزاد والراحلة من لا يقدر على السفر ، وقد يقدر عليه من لا زاد له ولا راحلة .

وعن الضحاك إذا قدر أن يؤجر نفسه فهو مستطيع ، وقيل له في ذلك ، فقال إن كان لبعضهم ميراث بمكة أكان يتركه ؟ بل كان ينطلق إليه ، فكذلك يجب عليه الحج ^(٣) .

٧ — وقال تعالى :

« وابتلوا اليثامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم » ^(٤) .

(١) الكشاف ١/١٢٩

(٢) سورة آل عمران ٩٧

(٣) الكشاف ١/١٥٦

(٤) سورة النساء ٦

الابتلاء عند أبي حنيفة وأصحابه أن يدفع إليه ما يتصرف فيه ، حتى يستبين حاله فيما يحىء منه .

والرشد التهدي إلى وجوه التصرف ، وعن ابن عباس الصلاح في العقل والحفظ للمال .

وعند مالك والشافعي الابتلاء أن يتبع أحواله وتصرفه في الأخذ والعطاء ، ويتبصر مخايله وميله إلى الدين ، والرشد الصلاح في الدين ، لأن الفسق مفسدة في المال .

فإن قلت : فإن لم يؤنس منه رشد إلى حد البلوغ ؟

قلت : عند أبي حنيفة رحمه الله ينتظر إلى خمس وعشرين سنة ، لأن مدة بلوغ الذكر عنده بالسن ثمانى عشرة سنة ، فإذا زادت عليها سبع سنين وهى مدة معتبرة فى تغير أحوال الإنسان لقوله عليه السلام « مروهم بالصلاة لسبع » دفع إليه ماله ، سواء أونس منه الرشد أو لم يؤنس . وعند أصحابه لا يدفع إليه إلا بإيناس الرشد ^(١) .

٨ — وقال تعالى : « لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ ، وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ ، فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ، ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ » ^(٢) .

ومعنى من أوسط ما تطعمون أهليكم من أقصده ، لأن منهم من يسرف فى إطعام أهله ، ومنهم من يقتل . وهو عند أبي حنيفة رحمه الله نصف صاع من بر أو صاع من غيره لكل مسكين ، أو يقدىهم ويعشيهم .

(١) الكشف ١/١٨٩

(٢) سورة البقرة ٢٢٥

وعند الشافعي رحمه الله مُدٌّ لكل مسكين .

والكسوة ثوب يغطي المورة . وعن ابن عباس كانت العبادة تجزى ،
يومئذ .

وعن ابن عمر إزار أو قميص أو رداء أو كساء . وعن مجاهد ثوب جامع .
وعن الحسن ثوبان أبيضان .

وقد اشترط الشافعي في تحرير الرقبة أن يكون العبد مؤمناً قايماً على
كفارة القتل .

وأما أبو حنيفة وأصحابه فقد جوزوا تحرير الرقبة الكافرة في كل كفارة
سوى كفارة القتل ، واشترط أبو حنيفة في الصوم أن يكون متتابعاً ، تسكاً
بقراءة أبي وابن مسعود « فصيام ثلاثة أيام متتابعات » وعن مجاهد كل صوم
متتابع إلا قضاء رمضان ، ويخير في كفارة اليمين .

والتكفير قبل الحنث لا يجوز عند أبي حنيفة وأصحابه ، ويجوز عند
الشافعي بالمال إذا لم يمض الحانث ^(١) .

٩ — وقال تعالى : « إنما المشركون نجسٌ فلا يقربوا المسجد الحرام
بعد عامهم هذا » ^(٢) . بعد عام تسع من الهجرة حين أُمر أبو بكر على الموسم ،
وهو مذهب أبي حنيفة وأصحابه ، ويدل عليه قول علي حين نادى ببراءة
« ألا يحج بعد عامنا هذا مشرك » ، ولا يمنعون من دخول الحرم والمسجد الحرام
وسائر المساجد عندهم .

وعند الشافعي يمنعون من دخول المسجد الحرام خاصة .

(١) الكشاف ١/٢٧٢

(٢) سورة التوبة ٢٨

وعند مالك يمنعون منه ومن غيره من المساجد .

وعن عطاء أن المراد بالمسجد الحرام الحرم ، وأنه على المسلمين ألا يتمكنوا من دخوله .

ونهى المشركين أن يقربوه راجع إلى نهى المسلمين عن تمكينهم منه .
وقيل المراد أن يمنعوا من تولى المسجد الحرام والقيام بمصالحه ، ويعزلوا عن ذلك ^(١) .

١٠ — وقال تعالى : « الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ ، وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا ، وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ » ^(٢) .

فإن قلت : هل يصح الظهار بغير اللفظ ؟

قلت : نعم إذا وضع مكان (أنت) عضواً من الزوجة يعبر به عن الجملة ، كالرأس والوجه والرقبة والفرج ، أو وضع مكان (ظهر) عضواً آخر يحرم النظر إليه من الأم كالبطن والفخذ ، أو وضع مكان (أمي) ذات رحم محرم منه بسبب نسب أو رضاع أو صهر أو جماع ، نحو أنه يقول أنت على كظهر أختي من الرضاع ، أو عمتي من النسب ، أو امرأة ابني أو أبي أو أم امرأتي أو بنتها ، فهو ظاهر ، وهو مذهب أبي حنيفة وأصحابه .

وعن الحسن والنخعي والزهري والأوزاعي والثوري وغيرهم نحوه .

وقال الشافعي لا يكون الظهار إلا بالألم وحدها ، وهو قول قتادة والشعبي .

(١) الكشاف ١/ ٣٨٩

(٢) سورة المجادلة ٢

وعن الشعبي : لم ينس الله أن يذكر البنات والأخوات والعمات والخاللات
إذ أخبر أن الظهار إنما يكون بالأمهات والوالدة دون المرضعات . وعن بعضهم
لا بد من ذكر الظهر حتى يكون ظهاراً^(١) .

١١ — وقال تعالى : « يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن
لعدتهن »^(٢)

روى عن إبراهيم النخعي أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا
يستحبون ألا يطلقوا أزواجهم السنة إلا واحدة ، ثم لا يطلقوا غير ذلك حتى
تنقضي العدة ، وكان أحسن عندهم من أن يطلق الرجل ثلاثاً في ثلاثة أطهار .
وقال مالك بن أنس رضى الله عنه : لا أعرف طلاق السنة إلا واحدة ،
وكان يكره الثلاث مجموعة كانت أو متفرقة .

وأما أبو حنيفة وأصحابه فإنما كرهوا ما زاد على الواحدة في طهر واحد ،
فأما مفرقاً في الأطهار فلا ، لما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال
لابن عمر حين طلق امرأته وهي حائض : ما هكذا أمرك الله ، إنما السنة أن
تستقبل الطهر استقبالا وتطلقها لكل قرء تطليقة ، وروى أنه قال لعمر : مر ابنك
فليراجعها ثم ليدها حتى تحيض ، ثم تطهر ، ثم ليطلقها إن شاء ، فتلك العدة
التي أمر الله أن تطلق بها النساء .

وعند الشافعي رضى الله عنه لا بأس بإرسال الثلاث ، وقال لا أعرف في عدد
الطلاق سنة ولا بدعة ، وهو مباح . فمالك يراعى في طلاق السنة الواحدة
والوقت ، وأبو حنيفة يراعى التفريق والوقت ، والشافعي يراعى الوقت والوحدة .

فإن قلت : هل يقع الطلاق المخالف للسنة ؟ .

(١) الكشف ٢/٤٤٠

(٢) سورة الطلاق ١

قلت : نعم وهو آثم ، لما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أن رجلاً طلق امرأته ثلاثاً بين يديه ، فقال : أتلمعون بكتاب الله وأنا بين أظهركم ؟ وفي حديث ابن عمر أنه قال يا رسول الله أرايت لو طلقها ثلاثاً ؟ فقال له : إذن عصيت وبانت منك امرأتك . وعن عمر رضي الله عنه أنه كان لا يؤتى برجل طلق امرأته ثلاثاً إلا أوجعه ضرباً ، وأجاز ذلك عليه . وعن سعيد بن المسيب وجماعة من التابعين أن من خالف السنة في الطلاق فأوقع في حيض أو ثلث لم يقع^(١) .

ثالثاً - قراءات

الزخشرى لغوى نحوى أديب ذواقة ، ولهذا أكثر من ذكر القراءات منسوبة إلى أصحابها في أكثر الأحيان ، وغير منسوبة في قليل من الأحيان ، وكان في الأغلب الأعم لا يعقب بشيء ، ولا يفضل قراءة على قراءة ، وأحياناً كان يعقب باختيار أروع القراءات تعبيراً ، وأبلغها معنى ، وأشبهها بنظم القرآن الكريم .

وهو يذكر مصحف عبد الله بن مسعود^(١) ، ومصحف أبي^(٢) ، ومصحف الحارث بن سويد صاحب عبد الله ، وهو الذى ذفن مصحفه أيام الحجاج^(٣) ، ومصاحف أهل الكوفة وأهل الحرمين والبصرة والشام^(٤) ، ومصاحف أهل العراق^(٥) ، وعكرمة والأعرج وابن يمر^(٦) ، وبعض المصاحف^(٧) ، كما يذكر روايات عن عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وزيد بن علي ونافع وابن جريج وحمزة والحسن وعمرو بن عبيد وغيرهم .

(١) الكشف ٥٥/١ ، ٥٩ ، ٢٦٣/٢ ، ٣٦٤

(٢) الكشف ٩٤/١ ، ٨٠/٢ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣

(٣) الكشف ٣٨٧/١

(٤) الكشف ٨٠/٢

(٥) الكشف ٣٤١/٢

(٦) الكشف ٥١٨/٢

(٧) الكشف ٤٦٠/٢

من أمثلة ذلك ما ذكره في هذه الآيات :

١ - « وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ^(١) » .

قرأ عبد الله « وَلَنْ تُسْأَلَ » وقرأ أبي « وَمَا تُسْأَلُ ^(٢) » .

٢ - « وَإِذَا ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبَّهُ ^(٣) » .

قرأ أبو حنيفة - وهى قراءة ابن عباس - « إِبْرَاهِيمُ رَبَّهُ » برفع إبراهيم ونصب ربه ، والمعنى أنه دعاه بكلمات من الدعاء ^(٤) .

٣ - « وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ^(٥) » .

قرأ ابن عباس : « وَعَلَى الَّذِينَ يُطَوَّقُونَهُ ^(٦) » من الطَّوْقِ أو من الطاقة أو القلادة أى يكلفونه ويقلدونه . وعن ابن عباس يطوقونه بمعنى يتكلفونه أو يتقلدونه ، وَيَطَوَّقُونَ يادغام التاء فى الطاء .

٤ - « وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ^(٧) » .

قرأ على وابن مسعود والشعبي : (وَأَتَمُّوا الْحَجَّ ، وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ^(٨)) يرفع العمرة ، كأنهم قصدوا بذلك إخراجها عن حكم الحج وهو الوجوب ^(٩) .

(١) سورة البقرة ١١٩

(٢) الكشاف ٧٢/١

(٣) سورة البقرة ١٢٤

(٤) الكشاف ٧٢/١

(٥) سورة البقرة ١٨٤

(٦) الكشاف ٨٨/١

(٧) سورة البقرة ١٩٦

(٨) الكشاف ٩٣/١

(٩) الكشاف ٩٣/١

٥ - «والوالداتُ مِرْضَعُونَ أولادَهُنَّ حَوْلِينَ كَامِلِينَ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَتِمَّ الرِّضَاعَةَ^(١)» قرأ قتادة (حولين كاملين)^(٢).

٦ - «فَمِنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ^(٣)».

قرأ أبيّ والحسن «فَمِنْ جَاءَهُ»^(٤).

٧ - «هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ^(٥)».

قرأ طاوس «هُوَ الَّذِي تَصَوَّرَكُمْ» أى صَوَّرَكُمْ لنفسه.

٨ - «وَمَا يَتْلُمُ تَأْوِيلُهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ»^(٦).

قرأ أبيّ: «وَيَقُولُ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ»^(٧).

٩ - «شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ»^(٨).

قال: إن قَائِمًا منصوب على الحال أو المدح، وقرأ عبد الله «القائم بالقسط» على أنه بدل من هو أو خبر مبتدأ محذوف، وقرأ أبو حنيفة «قِيَمًا بِالْقِسْطِ»^(٩).

١٠ - «إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ

الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِمَذَابٍ أَلِيمٍ»^(١٠).

(١) سورة البقرة ٢٣٣

(٢) الكشاف ١/١٠٩

(٣) سورة البقرة ٢٧٥

(٤) الكشاف ١/١٢٧

(٥) سورة آل عمران ٦

(٦) سورة آل عمران ٧

(٧) الكشاف ١/١٣٥

(٨) سورة آل عمران ١٨

(٩) الكشاف ١/١٣٧

(١٠) سورة آل عمران ٢١

قرأ الحسن « يقتلون النبيين » وقرأ حمزة « ويقاتلون الذين يأمرؤن » وقرأ عبد الله « وقاتلوا » وقرأ أبي « يقتلون النبيين والذين يأمرؤن »^(١).

١١ — « قال رب اجعل لي آية ، قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا زمزماً »^(٢).

قرأ يحيى بن وثاب إلا زمزماً بضمين جمع رموز كرمول ورسول ، وقرأ رمزاً بفتحين مثل خادم وخدم وهو حال منه ومن الناس كقوله :

مَنْ مَاتَ لَقِيَ فَرْذَيْنِ تَرْجُفُ رَوَافُ إِلَيْتِكَ وَتُسْتَطَارَا.

يعنى إلا مترامزين كما يكلم الناس الأخرس بالإشارة ويكلمهم^(٣).

١٢ — « أم لهم نصيب من الملك ، فإذا لا يؤتون الناس نقيراً »^(٤).

القراءة العامة على أن (إذن) ملغاة ، كأنه قيل فلا يؤتون الناس نقيراً إذن ، وقرأ ابن مسعود « فإذا لا يؤتوا الناس » . على إعمال إذن^(٥).

١٣ — « سماعون للكذب كالمون للسُّعْتِ »^(٦) قرئ السحت بالتخفيف

والتثنية ، والسَّعْت بفتح السين على لفظ المصدر من سعتة ، والسَّعْت بفتحين والسَّعْت بكسر السين^(٧).

(١) الكشاف ١/١٣٩

(٢) سورة آل عمران ٤١

(٣) الكشاف ١/١٤٤

(٤) سورة النساء ٥٣

(٥) الكشاف ١/٢٠٩

(٦) سورة اللأفة ٤٢

(٧) الكشاف ١/٢٥٦

١٤ - « لِكُلِّ جَلِيلًا مِنْكُمْ شِرْعَةٌ وَمِنْهَا جَاءَ » ^(١).

الشرعة الشريعة ، وقرأ يحيى بن وثاب الشريعة بفتح الشين ^(٢).

١٥ - « لَا يَأْخُذُكُمْ اللَّهُ بِالْفُحْرِ فِي أَيْمَانِكُمْ ، وَلَكِنْ يَأْخُذُكُمْ بِمَا قَدَّمْتُمُ الْإِيمَانَ ، فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تَطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ، ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ » ^(٣) .
 قرئ عذمتم بالتخفيف وعادتم ، وقرأ جعفر بن محمد (أهاليكم) بسكون الياء والأهالي اسم جمع لأهل كالليالي في جمع ليلة ، والأراضي في جمع أرض ، وقولهم أهلون كقولهم أرضون بسكون الراء . أما تسكين الياء في حال النصب فالتخفيف ، كما قالوا رأيت لمعد يكرب تشبيها للياء بالالف . وقرئ (كسوتهم) بضم الكاف ونحوه قدوة في قدوة وأسوة في أسوة .

وقرأ سعيد بن المسيب والبيانى (أو كسوتهم) بمعنى أو مثل ما تطعمون أهليكم إسرافاً أو تقثيراً ، وقرأ أبى وابن مسعود « فثلاثة أيام متتابعات » ^(٤)

١٦ - « لِيَكْفُرَ عَنْهُمْ أَسْوَأُ الَّذِي عَمِلُوا » ^(٥) .

قرئ أسوأ الذى عملوا ، جمع سوء ^(٦) .

١٧ - « وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ » ^(٧) .

في مصحف عبد الله بالظاء (بظنين) وفي مصحف أبى بالضاد ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ بها ، وإتقان الفصل بين الضاد والظاء واجب

(١) سورة المائدة ٤٨

(٢) الكشاف ١/٢٥٨

(٣) سورة المائدة ٨٩

(٤) الكشاف ١/٢٧٢

(٥) سورة الزمر ٣٥

(٦) الكشاف ٢/٢٩٩

(٧) سورة التكوين ٢٤

ومعرفة مخارجها لا بد منه للقارىء، فإن أكثر المعجم لا يفرقون بين الحرفين وإن فرقوا ففرقاً غير صواب . وبينهما بون بعيد، فإن مخرج الضاد من أصل حافة اللسان وما يليها من الأضراس من يمين اللسان أو يساره، كان عربى الخطأ أضبط يعمل بكلا يديه، وكان يخرج الضاد من جانبي لسانه . وهى أحد الأحرف الشجرية أخت الجيم والشين، وأما الظاء فمخرجها من طرف اللسان وأصول الثنايا العليا، وهى أحد الأحرف الذوقية أخت الذال والثاء . ولو استوى الحرفان لما ثبتت فى هذه الكلمة قراءة ثان اثنتان واختلاف بين جبلين من جبال العلم والقراءة، ولما اختلف المعنى والاشتقاق والتركيب^(١) .

وقد يفاضل بين القراءات ويختار إحداها .

١٨ — فى الآية الكريمة « وإنا لجميع حاذرون »^(٢) ذكر أن بعضهم قرأ (حذرون) وبعضهم قرأ (حادرون) بالذال غير المعجمة، وقال إن الحذر اليقظ، والحاذر الذى يحدد حذره، وقيل التقوى بالسلاح إنما يفعل ذلك حذراً، والحاذر السمين القوى قال :

أحب الصبي السوء من أجل أمه وأبفضه من بُفضها وهو حادر
أراد أنهم أقوياء أشداء، وقيل مدججون بالسلاح قد أ كسبهم ذلك حدارة
فى أجسامهم^(٣)

١٩ — وعند تفسير قوله تعالى: «ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء»^(٤) قال : قرأ أنس بن مالك كشجرة طيبة ثابت أصلها فإن قلت أى فرق بين القراءتين ؟

(١) الكشف ٢/٢٨٥

(٢) سورة الشعراء ٥٦

(٣) الكشف ٢/١٢٤

(٤) سورة إبراهيم ٢٤

قلت قراءة الجماعة أقوى ، لأن في قراءة أنس أجريت الصفة على الشجرة ، وإذا قلت مررت برجل أبوه قائم فهو أقوى معنى من قولك مررت برجل قائم أبوه ، لأن الخبر عنه إنما هو الأب لا رجل^(١) .

٢٠ — وفي تفسير قوله تعالى : « كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ »^(٢)

ذكر أن (كلمة) قرئت بالنصب على التمييز وبالرفع على الفاعلية ، والنصب أقوى وأبلغ وفيه معنى التعجب كأنه قيل ما أكبرها كلمة^(٣) .

٢١ — على أنه استبعد القراءات الشاذة وأنكرها ، فقال في تفسير قوله تعالى : « أَفَلَمْ يَأْسَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا »^(٤) .

أفلم يأس أى أفلم يعلم ، قيل هي لغة قوم من النخع وبدل عليه أن عليوا بن عباس وجماعة من الصحابة والتابعين قرأوا أفلم يتبين ، وهو تفسير أفلم يأس .

وقيل إنما كتبه الكاتب وهو ناعس مستوى السينات ، وهذا ونحوه مما لا يصدق في كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وكيف يخفى مثل هذا حتى يبقى ثابتا بين دفتي الإمام — يريد المصحف الإمام — وكان متقلبا في أيدي أولئك الأعلام المحاطين في دين الله ، المهتمين عليه ، لا يففلون عن جلاله ودقائه ، خصوصا عن القانون الذي إليه المرجع ، والقاعدة التي عليها البناء ، وهذه والله فريضة ما فيها مزية^(٥) .

(١) الكشاف ١/٤٠٤ .

(٢) سورة الكهف .

(٣) الكشاف ١/٦٣ .

(٤) سورة الرعد ٣١ .

(٥) الكشاف ١/٤٩٥ .

رابعًا - آراء نحويّة

عرفنا أن الزمخشري ألف كتباً في النحو ، منها المفصل ، وكان كلفاً بالنحو بصيراً بدقائقه مثل كلفه باللغة وبصره بها .

ولهذا تعرض كثيراً للإعراب في تفسيره ، فأعرب كلمات ، وأورد آراء النحاة في إعراب كلمات ، وناقش الأعراب ، واختار ما رآه أصح وأصوب ، وكثيراً ما كان يمثل بالنصوص الأدبية .

وهذه أمثلة من الآيات الكريمة التي عرض فيها للنحو :

١ - «شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ»^(١)
قال : إن قائماً منصوب على الحال من لفظ الجلالة ، فإن قلت : لم جاز إفراده بنصب الحال دون المعطوفين عليه ، ولو قلت جاءني زيد وعمرو راكباً لم يحز ؟ قلت : إنما جاز هذا لعدم الإلباس كما جاز في قوله تعالى : «ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة»^(٢) إن انتصب (نافلة) حالاً من يعقوب ، ولو قلت جاءني زيد وهند راكباً جاز ، لتمييز الحال بالذكورة ، ويجوز أن يكون (قائماً) منصوباً على المدح .

فإن قلت : أليس من حق المنتصب على المدح أن يكون معرفة ، كقولك الحمد لله الحميد - بفتح الدال - وإنا معشر - بفتح الراء - الأنبياء لا نورث ؟

(١) سورة آل عمران ١٨

(٢) سورة الأنبياء ٩٢

قلت : قد جاء نكرة كإجراء معرفة ، وأنشد سيبويه فيما جاء منه نكرة
قول المذلل :

ويأوى إلى نسوةٍ عُطِّلٍ وُشِفْنَا مراضيعَ مثلَ السَّعَالِي

فإن قلت : هل يجوز أن يكون صفة للمنفى ، كأنه قيل لا إله قائما بالقسط
إلا هو ؟

قلت : لا يبعد ، فقد رأيناهم يتسمون في الفصل بين الصفة والموصوف .

فإن قلت : قد جعلته حالا من فاعل (شهد) فهل يصح أن ينتصب حالا
من هو في (لا إله إلا هو) ؟

قلت : نعم لأنها حال مؤكدة ، والحال المؤكدة لا تستدعي أن يكون
في الجملة التي هي زيادة في فائدتها عامل فيها ، كقولك أنا عبد الله شجاعا ،
وكذلك لو قلت لا رجل إلا عبد الله شجاعا ، وهو أوجه من انتصابه عن فاعل
(شهد) وكذلك انتصابه على المدح ^(١) .

٢ — « ذلکم الله فأنی تُؤفکون ، فالتی الإصباح وجعل اللیل سکناً
والشمس والقمر حسباناً » ^(٢)

(الشمس والقمر) قرأنا بالحركات الثلاث .

فالنصب على إضمار فعل دل عليه جاعل الليل ، أى وجعل الشمس والقمر
حسباناً ، أو يعطفان على محل الليل .

فإن قلت : كيف يكون ليل محل والإضافة حقيقية ، لأن اسم الفاعل
المضاف إليه في معنى المنفى ، ولا تقول زيد ضارب عمرو أمس ؟

(١) الكشف ١/١٣٧

(٢) سورة الأحقاف ٩٥

قلت ما هو في معنى المضي ، وإنما هو دال على جَمَلٍ مستمر في الأزمنة المختلفة ، وكذلك فالق الحب وفالق الإصباح ، كما تقول الله قادر عالم ، فلا تقصد زمانا دون زمان .

والجر عطف على لفظ الليل ، والرفع على الابتداء ، والخبر محذوف تقديره الشمس والقمر مجمولان حسبانا أو محسوبان حسبانا ، ومعنى جعلهما حسبانا أن حساب الأوقات يعلم بدورانهما وسيرهما ^(١) .

٣ — « إن يشأ يسكن الريح فيظللن روا كد على ظهره ، إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور . أو يؤبقهن بما كسبوا ، ويعف عن كثير ، ويعلم الذين يجادلون في آياتنا ما لهم من تحييص » ^(٢) .

فإن قلت : فما وجوه القراءات الثلاث في (يعلم) ؟

قلت أما الجزم فعلى ظاهر العطف ، وأما الرفع فعلى الاستئناف ، وأما النصب فللعطف على تعليل محذوف تقديره لينتقم منهم ويعلم الذين يجادلون في آياتنا ، ونحوه في العطف على التعليل المحذوف غير عزيز في القرآن ، منه قوله تعالى : « ولنجعل آية للناس » ^(٣) ، وقوله تعالى : « وخلق الله السموات والأرض بالحق ، ولتجزى كل نفس بما كسبت » ^(٤) .

وأما قول الزجاج : النصب على إضمار أن ، لأن قبلها جزاء ، تقول ما نصنع أصنع مثله وأكرمك ، وإن شئت وأكرمك ، على تقدير وأنا أكرمك ، وإن شئت وأكرمك جزماً ففيه نظر ، لما أورده سيبويه في كتابه إذ قال :

(١) الكشاف ٣٠٢/١

(٢) سورة الثوري ٣٥

(٣) سورة مريم ٢١

(٤) سورة الجاثية ٢٢

واعلم أن النصب بالفاء والواو في قوله إن تأتني آتتك وأعطيتك ، ضعيف وهو نحو من قوله : وألحقُ بالحجاز فاستريحاً ، فهذا يجوز وليس بحمد الكلام ولا وجهه ، إلا أنه في الجزاء صار أقوى قليلاً ، لأنه ليس بواجب أنه يفعل ، إلا أن يكون من الأول فعل ، فلما ضارع الذي لا يوجب كالاستفهام ونحوه أجازوا فيه هذا على ضعفه .

ثم عقب الزمخشري بقوله : ولا يجوز أن تحمل القراءة المستفيضة على وجه ضعيف ليس بحمد الكلام ولا وجهه ، ولو كانت من هذا الباب لما أدخل سيويه منها كتابه ، وقد ذكر نظائرها من الآيات المشككة ^(١) .

٤ — « فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض ^(٢) » فهلا كان ، وقد حكوا عن الخليل أن كل « لولا » في القرآن معناها هلا إلا التي في سورة الصفات ^(٣) ، ولكن هذه الحكاية غير صحيحة ، لأن لولا وردت في سور أخرى وليس معناها هلا ، مثل قوله تعالى : « لولا أن تداركهُ نعمة من ربه لُبِذَ بالعراء ^(٤) » . وقوله « ولولا رجالٌ مؤمنون ونساء مؤمناتٌ لم تعلموهم أن تطئوهم ^(٥) » . وقوله : « ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلاً ^(٦) » .

٥ — « وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخرى بابسات ^(٧) » .

(١) الكشاف ٢/٣٤٢ (٢) سورة هود ١١٦ .

(٣) يريد قوله تعالى في شأن يونس : « ولأن يونس لمن المرسلين إذ أبق إلى الظلم المشعون نسام فكان من الدحض ، فالتقه الموت وهو لم يم ، فلولا أنه كان من المسجين لبث في بطنه إلى يوم يمشون » سورة يونس ١٣٩ — ١٤٤ .

(٤) سورة القلم ٤٩ (٥) سورة الفتح ٢٥

(٦) سورة الإسراء ٧٤ والكشاف ١/٤٥٦

(٧) سورة يوسف ٤٣

فإن قلت : هل من فرق بين إيقاع سمان صفة للمُتَمَيِّز ، وهو بقرات دون المُتَمَيِّز وهو سبع ، وأن يقال بقرات سماناً ؟

قلت : إذا أوقعها صفة لبقرات فقد قصدت إلى أن تميز السبع بالجنس البقرات لا بنوع منها ، ثم رجعت فوصفت المميز بالجنس بالسمن .
فإن قلت : هلا قيل سبع عجافٍ على الإضافة ؟ .

قلت : التمييز موضوع لبيان الجنس ، والعجاف وصف لا يقع البيان به وحده .

فإن قلت : فقد يقولون ثلاثة فرسان وخمسة أصحاب ؟ .

قلت : الفارس والصاحب والراكب ونحوها صفات جرت مجرى الأسماء فأخذت حكمها ، وجاز فيها ما لم يجز في غيرها ، ألا تراك لا تقول عندي ثلاثة ضحامٍ وأربعة غلاظٍ .

فإن قلت : ذاك مما يشكل ، وما نحن بسبيله لا إشكال فيه ، ألا ترى أنه لم يقل بقرات سبع عجاف ، لوقوع العلم بأن المراد البقرات ؟ .

قلت : ترك الأصل لا يجوز مع وقوع الاستغناء عما ليس بأصل ؛ وقد وقع الاستغناء بقولك سبع عجاف عما تقترحه من التمييز بالوصف .

والعَجَفُ المزال الذي ليس بعده ، والسبب في وقوع عجاف جمعاً لعجفاء مع أن أفضل وفعلاء لا يجمعان على فعال حمله على سمان ، لأنه نقيضه ، ومن رأيهم حمل النظير على النظير والنقيض على النقيض ^(١) .

٦ — « هو الذي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً ^(٢) » .

(١) الكشف ١/٢٢٢

(٢) سورة الرعد ١٣

لا يصح أن يكون (خوفاً وطعماً) مفعولاً لها، لأنها ليسا بفعل فاعل
الفعل الملل إلا على تقدير حذف الضاف، أى إرادة خوف وطمع، أو على معنى
إخافة وإطعاماً .

ويموز أن يكونا متتصبين على الحال من البرق، كأنه فى نفسه خوف وطمع،
أو على ذا خوف وذا طمع، أو من المخاطبين أى خائفين وطامعين^(١) .
٧ - « لا أقسمُ بيومِ القيامةِ »^(٢) .

إدخال (لا) النافية على فعل القسم مستفيض فى كلامهم وأشعارهم ، قال
امرؤ القيس :

لا وأبيك ابنة العامرى لا يدعى القوم أنى أفر
وقال غوثية بن سلى :
ألا نادى أمانةً باحتمال لتحزنى فلا بك ما أبالى
وفائدتها تأكيد القسم ، وقالوا إنها صلة (زائدة) مثلها فى (ثلاثا يعلم أهل
الكتاب) وفى قوله :

فى بئر لا حور سرى وما شعر^(٣) .
واعترضوا عليه بأنها إنما تزداد فى وسط الكلام لا فى أوله ، وأجابوا بأن
القرآن فى حكم سورة واحدة متصل بمضه ببعض .

والاعتراض صحيح ، لأنها لم تقع مزيدة إلا فى وسط الكلام ، ولكن
الجواب غير سديد ، ألا ترى إلى امرئ القيس كيف زادها فى مستهل قصيدته؟
والوجه أن يقال هى للنفى ، والمعنى أنه لم يقسم بالشئ إلا إعظاماً له ، بذلك عليه
قول الله تعالى : « فلا أقسمُ بمواقع النجوم ، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم »

(١) الكشف ١/ ٤٩٠

(٢) سورة القيامة ١

(٣) قال ابن يعيش فى شرح الفصل ١٣٦/٨ إن الرادى بئر حور ولا مزيدة ، كنا
فسره أبو مبيدة ، والمحور الهلكة .

فكانه يادخال حرف النفي يقول إن إعظامي له بإقسامي به كلاً إعظام ، يعنى أنه يستأهل فوق ذلك .

وقيل إن (لا) نفي لكلام ورد له قبل القسم ، كأنهم أنكروا البعث فقيل لا ، أى ليس الأمر كما ذكرتم ، ثم قيل أقسم بيوم القيامة .

فإن قلت : قوله تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون » ، والأبيات التى أنشدتها ، المقسم عليه فيها منفي ، فهلا زعمت أن (لا) التى قبل القسم زيدت موطنه للنفي ، ومؤكدة له ، وقدرت المقسم عليه المحذوف هاهنا منفيًا ، كقولك لا أقسم بيوم القيامة لا تتركون سدى ؟ .

قلت : لو قصر الأمر على النفي دون الإثبات لكان لهذا القول مساغ ، ولكن لم يقصر ، ألا ترى كيف لقي لا أقسم بهذا البلد بقوله لقد خلقنا الإنسان في كبد ، وكذلك فلا أقسم بمواقع النجوم بقوله إنه لقرآن كريم .

وقرى (لا أقسم) على أن اللام للابتداء ، وأقسم خبر مبتدأ محذوف معناه لأنا أقسم ، قالوا ويمضه أنه فى المصحف الإمام بغير ألف^(١) .

خامسًا - مسائل لغوية

من الطبيعي والمخشى لغوى أديب بصير بحقائق اللغة ومجازاتها أن يستعين بعلمه وذوقه على تجلية بعض الدلالات الدقيقة للكلمات ، وأن يناقش سابقه ومعاصره في بعض الكلمات .

١ — قال في تفسير قوله تعالى: « والذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون »^(١) .

معنى إقامة الصلاة تعديل أركانها وحفظها من أن يقع زيغ في فرائضها وسننها وآدابها ، من أقام العمود إذا قومه .

أو الدوام عليها والحفاظة عليها ، كما قال عز وعلا : « الذين هم عن صلاتهم ساهون » « والذين هم على صلواتهم يحافظون » من قامت السوق إذا نفقت ، لأنها إذا حوفظ عليها كانت كالشيء النافق الذى تتوجه إليه الرغبات ، ويتنافس فيه المحصلون ، وإذا عطلت وأضيعت كانت كالشيء الكاسد الذى لا يُرغب فيه . أو التجلد والتشمير لأدائها ، وألا يكون فى مؤديها فتور عنها ولا توان ، من قولهم قام بالأمر وقامت الحرب على ساقها ، وفى ضده قعد عن الأمر وتقاعد عنه إذا تقاعس وتلبط .

أو أدؤها ، فعبّر عن الأداء بالإقامة ، لأن القيام بعض أركانها ، كما عبّر عنه بالقنوت ، والقنوت القيام ، وبالركوع والسجود ، وقالوا سبّح إذا صلى ، لوجود التسبيح فيها^(٢)

(١) سورة البقرة ٣

(٢) الكشاف ١ / ١٧

٢ — وقال في تفسير قوله تعالى : « ذَهَبَ اللَّهُ بنورم »^(١)

الفرق بين أذهبه وذهب به أن معنى أذهبه أزاله وجعله ذاهباً ، ويقال ذهب به إذا اصطعبه ومضى به معه ، وذهب السلطان بماله أخذه ، ومنه ذهب به الخلاء ، والمعنى أخذ الله نورم وأمسكه وما يمسك الله فلا مرسل له ، فهذا أبلغ من الإذهاب ، وقرأ اليماني أذهب الله نورم^(٢) .

٣ — وقال في تفسير قوله تعالى : « فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون »^(٣) .

النَّدُ المثل ولا يقال إلا للمثل الخالف المناوئ ، قال جرير :

أَتَيْمًا تَجْمَعُونَ إِلَى نَدٍّ وَمَا تَيْمٌ لَدَى حَسْبٍ نَدِيدُ

وناددت الرجل خالفته ونافرتة ومعنى قولهم : ليس لله ند ولا ضد تعنى ما يسد مسده ونفى ما ينافيه^(٤) .

وقال في تفسير قوله تعالى : « فَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ »^(٥) .

فَن تَعَجَّلَ عَجِلَ فِي النَّفَرِ أَوْ اسْتَعَجَلَ النَّفَرُ ، وتَعَجَّلَ واسْتَعَجَلَ يُجِثَانِ مطاوعين بمعنى عَجِلَ ، يقال تَعَجَّلَ فِي الْأَمْرِ واسْتَعَجَلَ ، ويجِثَانِ مُتَعَدِّينَ ، يقال تَعَجَّلَ الذَّهَابَ واسْتَعَجَلَهُ . والمطاوعة أَوْفَقُ ، لقوله « وَمَنْ تَأَخَّرَ » كما هي كذلك في قول الشاعر :

قد يدرك الثَّانِي بعض حاجته وقد يكون مع السَّعْجَلِ الزَّلَلُ

لأجل الثَّانِي^(٦) .

(١) سورة البقرة ١٧

(٢) الكشاف ١ / ٣١

(٣) سورة البقرة ٢٢

(٤) الكشاف ١ / ٣٨

(٥) سورة البقرة ٢٠٣

(٦) الكشاف ١ / ٩٧

٥ - وقال في تفسير قوله تعالى : « وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ^(١) » .

قال : الكتاب والفرقان يعني الجامع بين كونه كتاباً منزلاً وفرقاناً يفرق بين الحق والباطل ، يعني التوراة ، كذلك رأيت الفئث والليث ، تريد الرجل الجامع بين الجود والجرأة ، ونحوه قوله تعالى : « لقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياءً وذكرًا للمتقين ^(٢) » يعني الكتاب الجامع بين كونه فرقاناً وضياءً وذكرًا ، أو التوراة والبرهان الفارق بين الكفر والإيمان من العصا واليد وغيرهما من الآيات ، أو الشرع الفارق بين الحلال والحرام .

وقيل الفرقان انشقاق البحر ، وقيل النصر الذي فرق بينه وبين عدوه ، كقوله تعالى : « يوم الفرقان ^(٣) » يريد به يوم بدر ^(٤) .

٦ - وقال في تفسير قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ^(٥) » .

أذلة جمع ذليل ، وأما ذلول فجميعه ذلل ، ومن زعم أنه من الذل الذي هو نقيض الصعوبة فقد غبي عنه أن ذلولاً لا يجمع على أذلة . فإن قلت : هلا قيل : أذلة للمؤمنين أعزة على الكافرين ؟

قلت : فيه وجهان :

-
- (١) سورة البقرة ٥٣
 - (٢) سورة الأنبياء ١٤٨
 - (٣) سورة الأنفال ٤١
 - (٤) الكتاب ١ / ٥٥
 - (٥) سورة المائدة ٥٤

أحدهما أن يَصْنَعَ الذلَ معنى الخنو والعطف ، كأنه قيل عاطفين عليهم على وجه التذليل والتواضع .

والثاني أنهم مع شرفهم وعلو طبقتهم وفضلهم على المؤمنين خافضون لهم أجنحتهم ، ونحوه قوله تعالى : « أشداء على الكفار رحماء بينهم » ^(١) .

٧ — وقال في تفسير قوله تعالى : « إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتُجْزَى كلُّ نفسٍ بما تَسْمَى » ^(٢) .

أي أكاد أخفيها فلا أقول هي آتية لقرط إرادتي إخفاءها ، ولولا ما في الإخبار بإتيانها مع تعمية وقتها من اللطف لما أخبرت به .

وقيل معناه أكاد أخفيها من نفسي ، ولا دليل في الكلام على هذا المحذوف ، ومحذوف لا دليل عليه مطروح ، والذي غرم منه أن في مصحف أبي أكاد أخفيها من نفسي فكيف أظهر كم عليها ؟

وعن أبي الدرداء وسعيد بن جبير (أخفيها) بفتح المهمزة من خفاء إذا أظهره ، أي قرب إظهارها ، كقوله تعالى : « اقتربت الساعة » ^(٣) وقد جاء في بعض اللغات إخفاء بمعنى خفاء ، وبه فسر بيت امرئ القيس :

فإن تدفنوا الداء لا نخفه وإن تبعثوا الحرب لا نعد

فأكاد أخفيها تحتل المعنيين ^(٤) .

وقال في الأساس : خَفِيَ الشيء واختفى واستخفى تشتر ، وهو يخفى

(١) سورة الفتح ٢٩ والكشاف ١ / ٢٦٢

(٢) سورة طه ١٥

(٣) سورة القمر ١

(٤) الكشاف ٢ / ٢١

صوته، وَاخْفَى الشَّيْءَ الْخَفِيَّ واختفاه أخرجه، يقال خَفِيتُ الْعُوزَةَ من تحت التراب، وَاخْفَى النَّبَاشَ الْكَفَنَ ^(١).

٨ — وقال في تفسير قوله تعالى : « وَيُنْقُونَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا، عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَاسِيْلًا » ^(٢).

سميت العين زنجبيلًا لطعم الزنجبيل فيها، والعرب تستلذه وتستطيعه.
قال الأعشى :

كَأَنَّ الْقَرْفَلَ وَالزَّجْبِيلَ لَبَاتَانِ فِيهَا وَأَرْيَا مَشُورًا
وقال المسيَّب بن عَلس :

وَكُنْتُ طَعَمَ الزَّجْبِيلِ بِهِ إِذْ ذُقْتَهُ وَسُلَاقَةَ الْخَمْرِ

و (سلسبيل) لسلاسة انحدارها في الحلق، وسهولة مساعها، يعنى أنها في طعم الزنجبيل، وليس فيها لذعة، ولكن نقيض للذع وهو السلاسة. يقال شراب سَلْسَلٍ وسَلْسَالٍ وسَلْسَبِيلٍ. وقد زيدت الباء في التركيب حتى صارت الكلمة خماسية، وذلك على غاية السلاسة. قال الزجاج : السلسبيل في اللغة صفة لما كان في غاية السلاسة. وقد عزوا إلى علي بن أبي طالب أن معناه سل سبيلا، وهذا غير مستقيم على ظاهره، إلا أن يراد أن علة قول القائل (سل سبيلا) جعلت علما للعين، كما قيل تأبط شرا، وسميت بذلك لأنه لا يشرب إليها إلا من سأل إليها سبيلا بالعمل الصالح ^(٣) وهو مع استقامته في العريية تكلف وابتداع، وعزوه إلى مثل على رضى الله عنه أبدع.

(١) أساس البلاغة مادة خف

(٢) سورة الإنسان ١٧

(٣) الكشاف ١٢/٢

٩ — وقال في تفسير الآية الكريمة : « وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ، لَنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا » ^(١) .

المعصرات: السحاب إذا أَعْصَرَتْ أى شارفت أن تمصرها الرياح فتُمْطِرُ ، كقولك أجزّ الزرع إذا حان له أن يُجَزَّ ، ومنه أَعْصَرَتِ الجارية إذا دنت أن تميض . وذكر في الأساس أن السحابة أَعْصَرَتْ واستدل بالآية .

ثَجَّاجًا : منصبا بكثرة ، يقال ثَجَّهُ وُثِجَ بنفسه ، وفي الحديث أفضل الحج السجُّ والتَّجُّ ، أى رفع الصوت بالتلبية وصب دماء الهدى ، وكان ابن عباس مِثْجًا يسيل غرْبًا ، يعنى يَنْجُ الكلام ثَجًّا فى خطبته .

أَلْفَافًا : ملتفة ، ولا واحد له كالأوزاع والأضياف ، وقيل الواحد لَفٌ ، وقال صاحب الإقليد : أنشدنى الحسن بن على الطوسى :

جَنَّةٌ لَفٌ وعيشٌ مُنْدَقٌ وَنَدَامَى كُلُّهُمْ بَيْضٌ زُهْرٌ
وزعم ابن قتيبة أن المفرد لقاء والجمع لَفٌ ثم أَلْفَافٌ ، وما أظنّه واجدا له نظيرا من نمو خضر وأخضر وحر وأحمر . ولوقيل هو جمع ملتفة بتقدير حذف الزوائد لكان قولاً وجيهاً ^(٢) .

١٠ — وفى الآية الكريمة : « وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا » ^(٣)

أى تكذّيبا ، وفَعَّالٌ فى باب فَعَّلَ كَلَهُ فاش فى كلام فصحاء العرب ، لا يقولون غيره . وسمعى بعضهم أفسر آية فقال : لقد فسرتها فسّاراً ماسم بمثله ^(٤) .

(١) سورة النبأ ١٤ — ١٦

(٢) الكشف ٢ / ١٨٠

(٣) سورة النبأ ٢٨

(٤) الكشف ٢ / ١٩٠

سادساً - نصوص شعرية

استن الزمخشري نهج ابن عباس والطبري وغيرهما في الاستشهاد بالشعر والاستدلال به على تفسير معاني الكلمات ، فقد روى ابن عباس أن أعرابيا جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيكلم بكلام بين ، فقال النبي إن من البيان لسحرا ، وإن من الشعر لحكما . وكان ابن عباس يُسأل عن الشيء من القرآن ، فيقول : فيه كذا وكذا ، أما سمعتم الشاعر يقول كذا كذا . وقال عكرمة : ما سمعت ابن عباس فسر آية من كتاب الله عز وجل إلا نزع فيها بيتا من الشعر . وكان يقول : إذا أعياكم تفسير آية من كتاب الله فاطلبوه في الشعر ، فإنه ديوان العرب (١) .

أما الطبري فكثيرا ما اعتمد على الشعر في بيان المعنى المراد من الكلمة ، تارة يذكّر اسم الشاعر ، وتارة يذكر النص مجردا من الاسم .

وفي رأى الزمخشري ورأى سابقيه أن الإسلام لم يحرم الشعر كله ، بل حرم ما يخالف العقيدة ، وينافي الخلق الكريم . ولهذا قال في تفسير قوله تعالى : « والشعراء يتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ، أَلَمْ تَرَأَهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَبْتَغِيُونَ ، وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا ، وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا ، وَلِيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ » (٢) .

إن الله استثنى الشعراء المؤمنين الصالحين الذين يكثرُونَ ذكر الله وتلا .

(١) مقدمة شرح التبريزي للحصاة ٣/١

(٢) سورة الشعراء ٢٢٤ - ٢٢٦

القرآن ، وكان ذلك أغلب عليهم من الشعر ، وإذا قالوا شعرا قالوا في توحيد الله والثناء عليه ، والحكمة والموعظة والزهد والآداب الحسنة ، ومدح رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة وصلحاء الأمة ، ومالاً بأس به من المعاني ، لا يتلطفون فيها بذنب ، ولا يتلبسون بشائفة ولا متقصة ، وكان هجائهم على سبيل الانتصار ممن يهجومهم ، قال الله تعالى : « لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَاهِلَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلِمَ » ^(١) وذلك غير اعتداء ولا زيادة على ما هو جواب ، لقوله تعالى « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » ^(٢) . وعن عمرو بن عبيد أن رجلاً من العلوية قال له إن صدرى ليجيش بالشعر ، قال : فما يمنعك منه عما لا بأس به ؟ .

والقول فيه أن الشعر باب من الكلام ، يحسنه كحسن الكلام ، وقبيحه كقبح الكلام . وقيل المراد بالسكتين عبد الله بن رواحة ، وحسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وكعب بن زهير ، والذين كانوا ينافحون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويكافحون هجاة قريش . وعن كعب بن مالك أن النبي قال له : اهجهم ، فوالذي نفسي بيده لموا أشد عليهم من النبل ، وكان يقول لحسان : قل وروح القدس معك ^(٣) .

ولهذا استشهد بالشعر في الكشف عن دلالات كثيرة من الألفاظ ، ولم يقتيد بعصر ولا بصفة خاصة في الشاعر .

١ — في تفسير قوله تعالى : « وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » ^(٤) .

(١) سورة النساء ١٤٨

(٢) سورة البقرة ١٩٤

(٣) الكشاف ١٣٥/٢

(٤) سورة النساء ٢٤

قال إن المراد ما ملكك أيمانكم من اللاني سُبِينَ ولهن أزواج في دار الكفر، فهن حلال لفقراء المسلمين وإن كن محصنات ، وفي معناه قول الفرزدق :

وَذَاتِ خَلِيلٍ أُنْكَحْتَهَا رِمَاحُنَا حَلَالٌ لِمَنْ يَبْنِي بِهِالِم تَطْلُقُ^(١)
٢ - وفي تفسير قوله تعالى : « فاضربوا فوق الأعناق ، واضربوا منهم كلَّ بَنَانٍ »^(٢) . قال إن المراد أعلى الأعناق التي هي المذابح ، لأنها مفاصل ، وكان إيقاع الضرب فيها حرًا وتطير اللروس .

وقيل أراد اللروس ، لأنها فوق الأعناق ، يعني ضرب الهام ، قال الشاعر :
وأضرب هامة البطل المشيح .

وقال آخر .

غَشِيَتْهُ وَهُوَ فِي جَأْوَاءٍ بَاسِلَةٍ عَضْبًا أَصَابَ سِوَاهُ الرَّأْسِ فَانْفَلَقَا
والبنان الأصابع ، يريد الأطراف ، والمعنى فاضربوا المفاصل والشوى^(٣) .

٣ - وقال في تفسير قوله تعالى : « لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العُسرة »^(٤) : إن ساعة العُسرة وقتها ، والساعة مستعملة في معنى الزمان المطلق ، كما استعملت الغداة والعشية واليوم . قال الشاعر :

وَكُنَّا حَسْبَنَا كُلَّ بَيْضَاءِ شَخْمَةٍ عَشِيَّةَ قَارَعْنَا جُذَامَ وَحَيْرَا

(١) الكشاف ١/١٩٩

(٢) سورة الأنفال ١٢

(٣) الكشاف ١/٣٦٨

(٤) سورة التوبة ١١٧

وقال آخر :

إذا جاء يوما وارثي ينتفى الفنى يحْدُجْعُ كف تَغِير ملامى ولا صُفْر^(١)
والعسرة حالهم فى غزوة تبوك^(٢) .

٤ — ويستشهد بيت لأبى نواس عند تفسيره قوله تعالى :

« إن إبراهيم كان أمةً قانتاً لله حنيفاً ولم يكُ من المشركين »^(٣) .

فيقول : فيه وجهان : أحدهما أنه كان وحده أمة من الأمم ، لكماله فى جميع صفات الخير ، كقول الشاعر :

وليس لله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد^(٤) .

ومعلوم أن البيت لأبى نواس كما فى ديوانه وفى أوضح المسالك لابن هشام فى باب أداة التعريف .

وإذا كان لم يصرح باسم أبى نواس فى هذا البيت ، فقد صرح باسمه مرات أخرى ، كما نجد عند تفسير قوله تعالى : « أفمن زُيِّنَ له سوء عمله فرآه حسناً ، فإن الله يضلُّ من يشاء ويهْدِي من يشاء »^(٥) .

إذ يقول : ومعنى تزيين العمل والإضلال واحد ، وهو أن يكون العاصى على صفة لا تجدى عليه المصالح حتى طاعة الهوى ، فيرى القبيح حسناً والحسن قبيحاً ، ويقع تحت قول أبى نواس :

استقبى حتى ترانى حسناً عندى القبيح^(٦)

(١) يد صفر بثلاث الصاد : خالية

(٢) الكشاف ١/٤١٠

(٣) سورة النحل ١٢٠

(٤) الكشاف ١/٥٣٨

(٥) سورة فاطر ٨

(٦) الكشاف ٢/٢٣٩

٥ — ويستشهد بقول الشاعر :

وكأس شربت على لفة [وأخرى تداويت منها بها]

عند تفسير قوله تعالى : « يطاف عليهم بكأس من معين »^(١)

ويذكر أنه يقال للزجاجة فيها الخمر كأس ، ونسى الخمر كأساً^(٢) .

٦ — ويستشهد بقول طرفه :

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى عَقِيلَةَ مال الفاحش المتشدد^(٣)

عند تفسير قوله تعالى : « وإنه لحب الخَيْرِ لَشَدِيد »^(٤) .

ليوضح أن الشديد هو البخل المسك^(٥) .

٧ — واستشهد بشعره وإن لم يصرح بأنه له .

فمعد تفسيره لقوله تعالى : « إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما يفوضه

لها فوقها »^(٦) .

ذكر هذه الأبيات على أنها لبعضهم :

يامن يرى مدَّ البعوض جناحها في ظلمة الليل البهيم الأليل

ويرى عروق نياطها في نحرها والمخ في تلك المظالم الثعل

اغفر لعبد تاب من فوطاته ما كان منه في الزمان الأول

وهذه الأبيات له ، كما يتبين من ديوانه^(٧) .

وعند تفسير قوله تعالى : « وَلْتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا »^(٨) .

ذكر هذا البيت على أنه لبعض المجاورين :

فمن يلتق في بعض القرى رحاله فأم القرى ملق رحالى ومنبأى^(٩)

(١) سورة الصافات ٤٥

(٢) الكشاف ٢/٢٦٢

(٣) يمتام : يختار

(٤) سورة العاديات ٨ (٥) الكشاف ٥٥٧/٢

(٦) سورة البقرة ٢٦ (٧) ديوان الزمخشري ٩٦

(٨) سورة الأنعام ٩٢ (٩) الديوان ٥ والكشاف ٣٠٣/١

سابعًا - بلاغة ونقد

تمهيد

سارع المعتزلة إلى دراسة اللغة والأدب والعلوم الدينية والفلسفة والمنطق ، لأن مكانتهم المذهبية أملت عليهم أن يحيطوا باللغة وأدبها ، ليتخيروا التعبير الجيد الملائم للفكرة ، وليتفهموا النصوص ، ويفوصوا إلى أسرارها ، ولأنهم كانوا يعدون أنفسهم للانتصار في الجدل الدائر بينهم وبين اليهود والنصارى ، وبينهم وبين مخالفيهم من المسلمين ، وفي هؤلاء وأولئك أصحاب لسن وأصحاب فلسفة .

لهذا كثر في المعتزلة البلاغ والفلاسفة ، فكان منهم أساتذة المناظرة ، وأعلام الجدل ، وحباذة الكتابة والخطابة ، ورواد البلاغة ، وكانوا يروون الشعر ويقرضونه ، وكان بشر بن المعتز أروام له ^(١) ، وله قصيدة من أربعين ألف بيت ضمنها نقضه لأراء مخالفيه ، وشهد الجاحظ أنه لم ير أحدا استطاع من النظم الخمس والمزدوج ما استطاعه بشر ^(٢) ، وله قصيدتان أخريان ^(٣) .

كذلك كان الجاحظ حفاظة للشعر ، كثير الاستدلال به في مؤلفاته كلها ، وكان يستطيع نظمه .

ولهم في وضع أصول البلاغة سبق لا ينكر ، منذ كتب بشر بن المعتز وصيته للأدباء ^(٤) ، ومنذ كتب الجاحظ فصولا في البلاغة منشورة في كتبه وبخاصة البيان والتبيين .

(١) الحيوان ٤٠٥/٦ (٢) النية والأمل ٢٠

(٣) الحيوان ٢٨٤/٦ - ٢٩٧

(٤) البيان والتبيين ١٣٥/١

ولهذا ازدهى الجاحظ ببلاغة المعتزلة في قوله: ^(١) «فإن عبر الخطيب عن شيء من صفاة الكلام، واصفاً أو مجيباً أو سائلاً كان أولى الألفاظ بة الألفاظ المتكلمين، إذ كانوا لتلك العبارات أفهم، وإلى تلك الألفاظ أميل، وإليها أحسن، وبها أشنف؛ لأن كهار المتكلمين ورؤساء النظارين كانوا فوق أكثر الخطباء، وأبلغ من كثير من البلغاء، وهم تخبروا تلك الألفاظ لتلك المعاني، وهم اشتقوا لها من كلام العرب تلك الأسماء، وهم اصطلحوا على تسمية ما لم يكن له في لغة العرب اسم فصاروا في ذلك سلفاً لكل خلف، وقدوة لكل تابع، ولذلك قالوا: المرص والجوهر، وأيس وليس، وفرقوا بين البطلان والتلاشي، وذكروا المذبة والهوية والماهية ^(٢) وأشباه ذلك».

ولقد عني المعتزلة بالكشف عن وجوه الإعجاز البلاغي، فلجاحظ (المتوفى سنة ٢٥٥ هـ) كتاب فيه سماء (نظم القرآن) لم يصل إلينا، ولعل بن عيسى الرماني (٢٨٤) رسالة سماها (النكت في إعجاز القرآن) ^(٣) تناولت سبعة أسباب لإعجازه منها: البلاغة، والعجز عن المعارضة، والتحدى للكافة.

ثم ألف أبو الحسن عبد الجبار الأسد آبادي قاضي قضاة الدولة البويهية (٤١٥ هـ) ^(٤) كتابه (المنى في أبواب التوحيد والعدل) ^(٥) تناول في الجزء السادس عشر منه إعجاز القرآن، فأرجعه إلى فصاحة الأسلوب.

ثم جاء الزمخشري فطبق في تفسيره آراء المعتزلة والأشعرية ^(٦) إذ درس

(١) البيان والتبيين ١/١٣٩

(٢) الهدية نسبة إلى هذا، والهوية نسبة إلى هو، والماهية نسبة إلى ما هو

(٣) معجم الأدباء ١٤/٧٣ وطبعت الرسالة ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن

(٤) طبقات القافية ٣/١١٤

(٥) تنفهر وزارة الثقافة والإرشاد القومي

(٦) ألف الباقلائي المتوفى سنة ٤٠٣ كتابه إعجاز القرآن بين فيه وجوه الإعجاز التي

يمتقدها هو وأصحابه الأشاعرة ورددها إلى أسباب منها الناحي البلاغية المتصلة بالنظم أو التعبير، وقد طبع كتابه مرات.

ما ألفه سابقوه ، وتأثر بما كتبه عبد القاهر الجرجاني (٤٧١ هـ) في كتابيه (دلائل الإعجاز) و (أسرار البلاغة) .

وكان من آثار هذا أنه عنى بعلوم البلاغة ، وبخاصة المعاني والبيان ، وكشف عن كثير من ألوانهما في الآيات القرآنية ، وجلا أسرار ما فيها من روعة وجمال ، ليبين سر الإعجاز .

وقد نبه على هذه النزعة في مقدمة الكشف ، فقال : إن طبقات العلماء تتساوى وتتداني في متن كل علم وعمود كل صناعة ، ولسكنهم يقبأون ويتفاضلون في إدراك ما في العلوم والصناعات من محاسن النكت ، ولطائف المعاني ، وغوامض الأسرار .

ثم قال إن علم التفسير حافل بما يفمر القرائح ، وببهر الألباب ، من غرائب النكت ودقائق الأسرار ، ولهذا لا يستطيع أن يجيل النظر فيه كل ذي علم ، كما ذكر الجاحظ في كتاب نظم القرآن ، فالفقيه وإن برز على الأقوان في علم الفتاوى والأحكام ، والمتكلم وإن برز أهل الدنيا في صناعة الكلام ، وحافظ القصص والأخبار ، والواعظ الخلاب ، والنحوى المدق ، واللغوى المتمق ، لا يتصدى أحد منهم لسلك تلك الطرائق ، إلا إذا كان بارعا في علمين مختصين بالقرآن ، وهما علم المعاني وعلم البيان ، متمهلا في ارتيادهما والتنقير عنهما ، بعد أن يكون آخذاً من سائر العلوم بحظ ، كثير التحقيق والحفظ ^(١) .. إلخ .

وتلاحظ أنه فرق بين علمي البيان والمعاني في قوله ^(٢) : « لا يتصدى منهم

(١) للمقدمة ٣

(٢) أطلق ابن العزوقدامة بن جعفر وأبو حلال المسكري وابن رشيق كلدة البديع على مباحث علم البيان ، فجعلوا من البديع الاستعارة والمجاز والكناية والتعريض ، ولم لا يريدون علم البديع ، بل يريدون الطريف الجميل . وكذا عبد القاهر في أسرار البلاغة إذ قال في صفحة ١٣ « وأما التطبيق (الطباقي) والاستعارة وسائر أقسام البديع ... إلخ

أحد سلوك تلك الطرائق . . . إلا رجل قد برع في طين مختصين بالقرآن ،
وهما علم المعاني وعلم البيان ، وتعمل في ازتيادهما آونة ، وتصب في التقدير عنهما أؤمنة ،
وذكر هذه التفرقة في مقدمة كتابه (أعجب العجب في شرح لامية
العرب) وفي مقدمة كتابه (أساس البلاغة)^(١) .

والحق أن عبد القاهر الجرجاني كان يريد بالنظم علم المعاني أى الأسلوب ،
وكان قد ردد في كتابه أسرار البلاغة كلمة البيان ، فجاء الزمخشري وأطلق علم
المعاني وعلم البيان على ما بطلقان عليه اليوم ، وبهذا فصل الملمين ببعضهما عن
بعض .

أما علم السديع فهو في رأى الزمخشري تابع للمعاني والبيان ، وليس علما
قائما بذاته .

وقد تأثر السكاكي (٥٦٢٦هـ) برأى الزمخشري ، ففصله ودل عليه ، وفضله
على غيره من الآراء^(٢) فقال : إن السبب في الإعجاز هو ما يجده أصحاب الذوق
من أن وجه الإعجاز أمر من جنس البلاغة والفصاحة ، ولا طريق لك إلى هذا
الأمر إلا طول خدمة هذين العلمين — المعاني والبيان — بعد فضل إلمى من
هبة يهبها بحكمته من يشاء ، وهى النفس المستعدة لذلك ، فكل ميسر لما خلق له .
ولا استبعاد في إنكار هذا الوجه ممن ليس معه ما يطلع عليه ، فلكم سبحانه

(١) أما قوله بعد تفسير الآية الكريمة (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى) هذا من
الصنعة البديعة التى تبلغ بالحجاز القدوة العليا ، وهو أن تساق كلمة ساق الهجاز ، ثم تنق بأشكال
لها وأخوات ، وهو المجاز المرشح (الكشف ٢٩/١) فإنه لا يريد بالصنعة البديعة علم البديع
كأنهم بض الدارسين .

(٢) أرجع الرماني وجوه الإعجاز إلى سبعة : الأول ترك المعارضة مع تواتر الدوامى
وشدة الحاجة ، والثانى التحدى للكافة ، والثالث الصرفة ، والرابع البلاغة ، والخامس الأبناء
الصادقة عن الأمور المستقبلية ، والسادس نقض العادة ، والسابع قياس القرآن بكل معجزة [التسكت
في إعجاز القرآن] وردها بالافلاقي إلى ثلاثة الإباء بالأمور الغيبية ، والقصص الدينية وأخبار
الأنباء ، والناحى البلاغية التصلة بالنظم (إعجاز القرآن)

الذيل في إنكاره، ثم ضمنا الذيل ما إن نكره، فله الشكر على جزيل ما أولى، وله الحمد في الآخرة والأولى^(١).

وقال : ولا سبيل إلى إدراك هذه البلاغة وهذا الإعجاز إلا بالذوق والتشبع من علمي البيان والمعاني، وإمالة اللثام عن الأسرار البلاغية لجلائها، أما نفس وجه الإعجاز فلا يدرك^(٢).

ثم تأثر به يحيى بن حمزة العلوي (٧٤٩ هـ) فقال في مقدمة كتابه (الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وحقائق الإعجاز) : إن الباعث على تأليف كتابه هو أن جماعة من الإخوان شرعوا في قراءة كتاب الكشف تفسير الشيخ العالم المحقق أستاذ الفسرين محمود بن عمر الزمخشري، فإنه أسسه على قواعد هذا العلم، فأتضح عند ذلك وجه الإعجاز من التزليل، وعرف من أجله وجه التفرقة بين المستقيم والمعوج من التأويل، وتحققوا أنه لا سبيل إلى الاطلاع على حقائق إعجاز القرآن إلا بإدراكه والوقوف على أسرار وأغواره، ومن أجل هذا الوجه كان متميزا عن سائر التفاسير، لأنني لم أعلم تفسيرا مؤسسا على المعاني والبيان سواء، فسألني بعضهم أن أملئ فيه كتابا يشتمل على التهذيب والتحقيق، فالتهديب يرجع إلى اللفظ، والتحقيق يرجع إلى المعاني، إذ كان لأمندوحة لأحدهما عن الثاني^(٣).

وبحسب الزمخشري من التقدير أن ابن خلدون أرجع تفوق المشاركة على المغاربة في الدراسات البلاغية إلى أن المشرق أوفر عمرا من المغرب، وإلى عناية المعجم — وهم معظم أهل المشرق — بعلوم البلاغة وبخاصة المعاني والبيان، كما صنع الزمخشري في تفسيره لأنه كله مبني على البلاغة، وهو أصل لها.

(١) مفتاح العلوم ٢٤٣

(٢) مفتاح العلوم ١٩٦

(٣) الطراز ١/١

ثم قال: واعلم أن ثمرة هذا الفن إنما هي في فهم الإعجاز من القرآن . . .
وأكثر تفاسير المتقدمين غُملٌ عنه، حتى ظهر الزمخشري ووضع كتابه في التفسير،
وتسع آي القرآن بأحكام هذا الفن، بما يبدى البعض من إعجازه، فانفرد بهذا
الفضل على جميع التفاسير، لولا أنه يؤيد عقائد أهل البدع عند اقتباسها من القرآن
بوجوه البلاغة، ولأجل هذا يتحاماه كثير من أهل السنة، مع وفور بضاعته
من البلاغة^(١).

أما بعد فقد عرض الزمخشري لمسائل بلاغية كثيرة في توضيح وتفصيل وتحلية
لأسرار الجلال، وتنظير بآيات قرآنية أخرى، وتمثيل بنصوص من الشعر البليغ
والنثر الرائع.

ولست أريد استقصاء ما عرض له، بل أريد التمثيل بيمضه، فنه ما يتصل
بعلم البيان، ومنه ما يتصل بعلم المعاني.

(١)

في علم البيان

١ - التشبيه

عرض للتشبيه المفرد في آيات كثيرة، منها قوله في تفسير الآية الكريمة:
«إنها ترمي بشررٍ كالقصر كأنه جبالٌ صُفر»^(٢): إنها ترمي بشررٍ عظيم
كالقصور أو كالشجر الغليظ أو مثل القصر — على وزن سبب — وهي أعناق
الإبل أو أعناق النخل، كأنه جبال تضرب إلى الصفرة.
وفي شعر عمران بن حطان الخارجي:

دعهم بأعلى صوتها ورمهمُ بمثلِ الجلالِ الصُفْرِ نِزَاعَةَ الشَّوَى

وقال أبو العلاء :

حمراء ساطعة الذوائب في الدجى ترى بكل شرارة كطراف
فشبهها بالطراف وهو بيت الأدم في العظم والحمرة ، وكأنه قصد بجنسه أن يزيد
على تشبيهه لقرآن ، ولتبيحه توهم الزيادة ، فجاء في صدر بيته بقوله حمراء ، توطئة
لها ، ومناداة عليها ، وتنبيهاً للسامعين على مكائدها . ولقد عى — جمع الله له عى
الدارين — عن قوله عز وعلا (كأنه جمالة صفر) فإنه بمنزلة قوله (كبيت
أحمر) على أن في التشبيه بالقصر وهو الحصن تشبيهاً من جهتين : من جهة
العظم ، ومن جهة الطول في الهواء ، وفي التشبيه بالجمال تشبيه من ثلاث جهات :
من جهة العظم والطول والصفرة ، فأبعد الله إغرابه في طرافه ، وما نفخ به شذقيه
من استطرافه ^(١) .

ولست أجد مبرراً لهذه الحملة العنيفة على المعرى ، لأنه شبه الشرارة الكبيرة
بالخيمة ، والقرآن الكريم شبه الشرر بالجمال أو بالشجر الفليظ أو بأعناق الإبل
أو بجذوع النخل ، وسواء أكان تشبيه المعرى جيداً أم غير جيد ، فإنه لم يدع أن
تشبيهه يسامى تشبيه القرآن الكريم ، ولا يستطيع أحد أن يدعى له ذلك .

٢ — تشبيه التمثيل :

عرض له في قوله تعالى : « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فارحمت
بجارتهم ، وما كانوا مهتدين . مثلهم كمثل الذى استوقد نارا ، فلما أضاءت
ما حوله ذهب الله بنورهم ، وتركهم فى ظلمات لا يبصرون ، صم بكم عى
فهم لا يترجعون . أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق ، يحملون
أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت ، والله محيط بالكافرين ^(٢) » .

فقال : الصحيح الذى عليه علماء البيان لا يتخطونه أن التمثيلين جميعا من جملة التمثيلات المركبة دون المفرقة ، لا يتكلف لواحد واحد شيء يقدر شبهه به ، وهو القول بالفعل والمذهب الجزل .

وبيانه أن العرب تأخذ أشياء فرادى معزولا بعضها عن بعض لم يأخذ هذا بحجزة ذلك ، فقتبها بنظرها^(١) ، وتشبه كيفية حاصلة من مجموع أشياء قد تضامت وتلاصقت حتى عادت شيئا واحدا بأخرى مثلها ، كقوله تعالى « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا »^(٢) الفرض تشبيه حال اليهود في جهلها بعامها من التوراة وآياتها الباهرة بحال الحمار في جهله بما يحمل من أسفار الحكمة ، وتساوى الحالتين عنده من حمل أسفار الحكمة وحمل ماسواها من الأوقار ، لا يشعر من ذلك إلا بما يمر بدفتيه - بجانبه - من الكد والتعب .

وكقوله تعالى : « واضرب لهم مثلا الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء ، فاخلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح »^(٣) « المراد قلة بقاء زهرة الدنيا كقلة بقاء الخضر .

فأما أن يراد تشبيه الأفراد بالأفراد ، غير منوط بعضها ببعض ، ومُصَيِّرًا شيئا واحدا . . فلا ، فكذلك لما وصف وقوع المنافقين في ضلالهم ، وما خبطوا فيه من الحيرة والدهشة ، شبهت حيرتهم وشدة الأمر عليهم بما يكابد من طفئ ناره بعد إيقادها في ظلمة الليل ، وكذلك من أخذته السماء في الليلة المظلمة مع رعد وبرق وخوف من الصواعق .

وذكر بعد ذلك أن التشبيه يحى بأداه وبغير أداة .

(١) هذا هو التشبيه التمدد

(٢) سورة الجمعة •

(٣) سورة الكهف •

وفى تعليقه على الآيات نفسها ما يدل على أن التشبيه التمثيلى ينطبق أيضا على تشبيه حال بحال، وهو ما سماه التمثيل^(١) أو ضرب المثل ، لأن المثل يشمل الحال والصفة والقصة ، فإنه قال فى تفسير « مثلهم كمثل الذى استوقد نارا » : لما جاء بحقيقة صفتهم عقبها بضرب المثل زيادة فى الكشف وتعميا للبيان .
ولضرب العرب الأمثال، واستحضار العلماء المثل والنظائر، شأن ليس بالخبى فى إبراز خبيثات المعانى، ورفع الأستار عن الحقائق ، حتى تريك للتخيل فى صورة المحقق ، والتوهم فى معرض المتيقن ، والغائب كأنه مشاهد، وفيه تبكيت للخصم الألد ، وقمع لسورة الجامح الأبى ، ولأمر ما أكثر الله فى كتابه المبين وفى سائر كتبه أمثاله ، وفشت فى كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلام الأنبياء والحكماء . قال الله تعالى : « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون^(٢) »

والمثل فى أصل كلامهم بمعنى المثل وهو النظر ، يقال مثل ومثيل كشبه وشبه وشبيه^(٣) .

فإن قلت : ما معنى مثلهم كمثل الذى استوقد نارا ؟ وما مثل المنافقين ؟ ومثل الذى استوقد نارا حتى شبه أحد المثليين بصاحبه ؟

قلت : قد استعير المثل استعارة الأسد للمقدام ، للحال أو الصفة أو القصة إذا كان لها شأن وفيها غرابة ، كأنه قيل : حالهم المعجبية الشأن كحال الذى استوقد نارا ، وكذلك قوله تعالى « مثل الجنة التى وعد المتقون^(٤) » .

أى وفيما قصصنا عليك من العجائب قصة الجنة المعجبية، ثم أخذ فى بيان عجائبها .

(١) ذكر فى شرحه لمقاماته صفحة ١٥٦ أن الذى يسمى تمثيلا هو قوله تعالى (سنسبه على الخرطوم) مثلت حاله فى الذل والمهانة بحال الموسوم على أعز موضع منه

(٢) سورة النكبات ٤٣

(٣) الكشاف ٣٠/١ — ٣٣

(٤) سورة الرعد ٣٥

وقال في تفسير قوله تعالى: «يوم نقول لجهنم هل امتلأت . . . وتقول هل من مزيد ؟» (١) :

إن سؤال جهنم وجوابها من باب التخيل الذي يقصد به تصوير المعنى في القلب وتثبيتته، وفيه معنيان : أحدهما أنها تمتلئ مع اتساعها وتباعد أطرافها ، حتى لا يسعها شيء ، ولا يزداد على امتلائها ؛ لقوله تعالى : « لأملاّن جهنم من الجنة والناس أجمعين » (٢) .

والثاني أنها من السعة بحيث يدخلها من يدخلها وفيها موضع للمزيد (٣) . وقد فرق السكاكي بين التشبيه والتمثيل ، ورأى أن التمثيل هو ما كان وجهه وصفاً غير حقيقى ومتزعا من عدة أمور (٤) .

٣ - الاستعارة

عرض للاستعارة ، فقال في تفسير الآية الكريمة : « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى » : إن الضلالة الجور عن القصد ، وفقد الاهتداء ، استعير للذهاب عن القصد في الدين (٥) .

وقال في تفسير قوله تعالى : « ثمّ جعلناكم في الأرض من بعدهم ، لننظر كيف تعملون » (٦) :

أى استخلفناكم في الأرض بعد القرون التى أهلكتها ، لننظر أتعلمون

(١) سورة ق ٣٠

(٢) سورة السجدة ١٣

(٣) الكهف ٢/٤٠٥

(٤) مفتاح العلوم ١٨٥

(٥) الكهف ١/٢٩

(٦) سورة يونس ١٤

خيراً أم شراً ، ففما ملكم على حسب أحوالكم ، والنظر هنا مستعار للعلم المحقق الذى هو العلم بالشئ الموجود ، شبه بنظر الناظر وعيان العاين فى تحقيقه .

ويتضح من تعليقه على الآية الكريمة: «صُمُّ بُكْمٌ عَمَى فَهْمٌ لَا يَبْصُرُونَ» أنه لا يطلق الاستعارة إلا على ما يصح أن تطلق عليه ، فلا بد فيها من حذف المشبه أو المشبه به ، لأنه يفترض سائلاً يسأل : هل يسمى ما فى الآية استعارة ؟ .

ويجيب على هذا بأن الحكم مختلف فيه ، ولكن المحققين على تسمية ما فى الآية تشبيهاً بليفاً لاستعارة ، لأن الستعار له مذكور وهم المنافقون ، والاستعارة إنما تطلب حيث يطوى ذكر الستعار له ، ويجعل الكلام خلوا عنه صالحاً لأن يراد به المنقول عنه أو المنقول إليه لولا دلالة الحال أو فعوى الكلام ، كقول زهير :

لدى أسد شاكى السلاح يقذف به لِبْدٌ أغفاره لم تُقَلِّمَ
وليس لقاتل أن يقول : طوى ذكرهم عن الجملة بحذف البدأ ، فأتسلى بذلك إلى تسميته استعارة ، لأنه فى حكم المنطوق به ، نظيره قول من يخاطب الحجاج :
أسد على وفى الحروب نمامة فتخاء تنفر من صغير الصافر

وعرض للاستعارة الكنية فى قوله تعالى: «وما يضلُّ به إلا الفاسقين الذين يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ»^(١) فقال: النقض الفسخ وفك التركيب ، فإن قلت من أين ساغ استعماله فى إبطال العهد ؟ قلت : من حيث تسميتهم العهد بالهبل على سبيل الاستعارة ، لما فيه من ثبات الوصلة بين المتعاهدين . . . ومن أسرار البلاغة ولطائفها أن يسكتوا عن ذكر الشئ الستعار ثم يرمزوا إليه .

بذكر شيء من روادفه ، فينبهوا بتلك الرزمة على مكانه ، ونحوه قولك
شجاع يفترس أقرانه ، وعالم يفترف منه الناس ، لم تقل هذا إلا وقد نبهت على
الشجاع والعالم بأنهما أسد وبحر^(١) .

وتنبه إلى الترشيح في الاستعارة في تعقيبه على قوله تعالى: « أولئك الذين
اشتروا الضلالة بالهدى » فقال : إن قلت هب أن شراء الضلالة بالهدى وقع
مجازاً في معنى الاستبدال ، فما معنى ذكر الريح والتجارة ، كأن تم مبايعة على
الحقيقة ؟

قلنا : إن هذا من الصنعة البديعة التي تبلغ بالجاز الذروة العليا ، وهو أن
تساق كلمة مساق الجاز ، ثم تنفى بأشكال لها وأخوات إذا تلاحقن لم تر كلاماً
أحسن منه ديباجة وأكثر ماء ورونقاً ، وهو الجاز للرشح . وذلك نحو قول
العرب في البليد : كأن أذى قلبه خطلاوان — مسترخيتان — جملوه كالخار ،
ثم رشعوا ذلك روما لتحقيق البلادة ، فادعوا لقلبه أذنين ، أو ادعوا لها الخطل
— الاسترخاء — ليمثلا البلادة تمثيلاً يلحقها ببلادة الخار شاهدة معاينة ...
فكذلك لما ذكر سبحانه الشراء أتبعه ما يشاكلة ويواخيه وما يكمل ويتم
بانضمامه إليه ؛ تمثيلاً لخسارهم وتصويراً لحقيقته^(٢) .

كذلك عقب على الآية الكريمة : « مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما
أضأت ما حوله ذهب الله بنورهم » بأن النار يصح أن تكون مجازية كنفار
الفتنة والمداوة للإسلام ، ويصح أن تكون ناراً حقيقية أوقدها النواة ليعوصلوا
بالاستضاءة بها إلى بعض المامى ، فأطفأها الله . وجاز في النار المجازية أن
توصف بإضاءة ما حول المستوقد على طريقة الجاز للرشح ، فأحسن تدبره^(٣) .

(١) الكشاف ٤٨/١

(٢) الكشاف ٢٩/١

(٣) الكشاف ٣١/١

وقد تأثره السكاكي في شرحه الاستمارة في قوله تعالى: «فأذاقها الله لباس
الجوع والظوف بما كانوا يصفون»^(١) «وراد عليه أن الكلام يحتمل أن
يكون على الحقيقة»^(٢).

٤ - الكناية

ذكر الكناية ، ورفق بينها وبين التعريض^(٣) ، فالكناية في رأيه أن
تذكر الشيء بغير لفظه الموضوع له ، كقولك طويل النجاد والحائل
لطويل القامة .

والتعريض أن تذكر شيئاً تدل به على شيء لم تذكره ، ويسمى التلويح ،
لأنه يلوح منه ما يريد^(٤) .

قال في تفسير الآية الكريمة: «ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة
النساء أو أكننتم في أنفسكم»^(٥) : هو أن يقول لها : إنك لجميلة ، أو صالحة ،
أو نافعة ، ومن غرضي أن أتزوج ، وعسى الله أن يسر لي امرأة صالحة ...
ولا يصرح بالنكاح ... فإن قلت : أى فرق بين الكناية والتعريض ؟

قلت : الكناية أن تذكر الشيء بغير لفظه الموضوع له ، كقولك طويل
النجاد والحائل لطويل القامة ، وكثير الرماد للمضياف .

والتعريض أن تذكر شيئاً تدل به على شيء لم تذكره ، كما يقول المحتاج
للمحتاج إليه : جئت لك لأسلم عليك ، ولأنظر إلى وجهك الكريم ، ولذلك قالوا :

(١) سورة النمل ١١٢ والكشاف ١/٣٧٧

(٢) مفتاح العلوم ٢٠١

(٣) جمل الزمخشرى كل نوع من هذه مستقلاً عن الآخر، على حين أن السكاكي أدخل في
الكناية التعريض والتلويح والإيماء (مفتاح العلوم ٢١٨)

(٤) الكشاف ١/١١١

(٥) سورة البقرة ٢٣٥

وحسبك بالتسليم مني تقاضياً .

وكأنه إمالة الكلام إلى عرض بدل على الفرض ، ويسمى التلويح ، لأنه بلوح منه ما يريد^(١) .

وقال في تفسير قوله تعالى : « الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى »^(٢) :

لما كان الاستواء على العرش وهو سرير الملك مما يردف الملك جطوه كناية عن الملك ، فقالوا استوى فلان على العرش ، يردون ملك ، وإن لم يقعد على السرير البتة ، وقالوا أيضاً لشهرته في ذلك المعنى ومساواته ملك في مؤداه ، وإن كان أشرح وأبسط وأدل على صورة الأمر^(٣) .

وقال في تفسير قوله تعالى : « وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ، غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ ، وَلَمْنُوا بِمَا قَالُوا ، بِلِ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ، يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ »^(٤) .

غل اليد وبسطها مجاز عن البخل والجود ، ومنه قوله تعالى : « وَلَا تَحْمِلْ يَدُكَ تَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ »^(٥) : ولا يقصد من يتكلم به إثبات يد ولا غل ولا بسط ، ولا فرق عنده بين هذا الكلام وبين ما وقع مجازاً عنه ، لأنهما كلامان معتقبان على حقيقة واحدة ، حتى إنه يستعمله في ملك لا يعطى عطاء قط ، ولا يمنعه إلا بإشارته ، من غير استعمال يده وبسطها وقبضها ، ولو أعطى الأقطع إلى المنكب عطاء جزيلاً لقالوا : ما أبسط يده بالنوال ، لأن

(١) الكشف ١١٠/١

(٢) سورة طه .

(٣) الكشف ٢٠/٢

(٤) سورة المائدة ٦٤

(٥) سورة الإسراء ٢٩

بسط اليد وقبضها عبارتان وقتنا متعاقبتين للبخل والجود ، وقد استعملوا حيث لا تصح اليد كقوله :

جاد الحى بسط اليدين بوابل شكرت نداء قلاعه ووهاده

ولقد جعل ليبد للشمال بدأ فقال : إذا أصبحت بيد الشمال زمامها .

ويقال بسط اليأس كفيه في صدرى ، فجعلت لليأس الذى هو من المعانى لا من الأعيان كفين . ومن لم ينظر في علم البيان عجز عن تبصر محجة الصواب في تأويل أمثال هذه الآية ^(١)

وقال في تفسير قوله تعالى : « ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ^(٢) » : هذا مجاز ، والمراد قرب علمه منه ، وأنه يتعلق بأحواله تعليقاً لا يخفى عليه فيه شيء من خفياته ، فكان ذاته قريبة منه ، كما يقال الله في كل مكان ، وقد جل عن الأمكنة ^(٣) .

وقال في تفسير الآية الكريمة : « إذا زلزلت الأرض زلزالها ، وأخرجت الأرض أثقالها ، وقال الإنسان : ما لها ؟ يومئذ تحدث أخبارها ، بأن ربك أوحى لها ^(٤) » : فإن قلت ما معنى تحديث الأرض والإبهاء لها ؟

قلت : هو مجاز عن إحداث الله تعالى فيها من الأحوال ما يقوم مقام التحديث باللسان ، حتى ينظر من يقول ما لها إلى تلك الأحوال ، فيعلم لم زلزلت ، ولم لفظت الأموات ، وأن هذا ما كانت الأنبياء ينذرونه ويحذرون منه .

وقيل ينطقها على الحقيقة ، وتخبر عما عمل عليها من خير وشر ^(٥) .

وقال في تفسير الآية الكريمة : « قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين ^(٦) » :

(٢) سورة في ١٦

(٤) سورة الزلزلة ١ —

(٦) سورة يوسف ٤٤

(١) الكشاف ١/٢٦٤

(٣) الكشاف ٢/٤٠٢

(٥) الكشاف ٢/٥٠٦

أضغاث الأحلام تخاليطها وأباطيلها وما يكون منها من حديث نفسي أو وسوسة شيطان ، وأصل الأضغاث ما جمع بين أخلاط النبات وحزمه ، والواحد ضِفْث ، فاستعيرت لذلك ^(١) .

وقال في الأساس : الضفث القبضة من قضبان صفار أو حشيش بمضه في بعض ، وضَفْثه جعله أضغاثًا . ومن المجاز : هذه أضغاث أحلام ، وهى ما التبس منها ، ويقال للحالم : أضفث الرؤيا : جثت بها ملتبسة ، وضَفْث الحديث : خلطه ^(٢) .

٥ — المجاز المرسل

هو كل كلمة استعملت في غير معناها الأصلي بعلاقة غير المشابهة مع قربنة مانعة من إرادة المعنى الأصلي ، ومن علاقاته السببية والسببية والجزئية والكلية والحالية والحالية واعتبار ما كان واعتبار ما سيكون . وقد عرض الزمخشري له في كثير من الآيات .

قال في تفسير قوله تعالى : « إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا ، لَتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْمَى ، فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى » ^(٣) .
فإن قلت : العبارة لنهى من لا يؤمن عن صد موسى ، والمقصود نهى موسى عن التكذيب بالبعث ، أو أمره بالتصديق ، فكيف صلحت هذه العبارة لأداء المقصود ؟

قلت : فيه وجهان أحدهما أن في صد الكافر عن التصديق بها سبب للتكذيب ، فذكر السبب ليدل على السبب ، والثانى أن صد الكافر سبب عن رخاوة لرجل

(١) الكفاف ٥٧٣/١ . (٢) أساس البلاغة : مادة ضفث

(٣) سورة طه ١٥ — ١٦

في الدين ولين شكيمته ، فذكر المسبب ليدل على السبب ، كقولهم لا أرى نك ها هنا ، المراد نهي عن مشاهدته ، والحضور يجعله ، وذلك سبب رؤيته إياه ، فكان ذكر المسبب دليلا على السبب ، كأنه قيل فكن شديد الشكيمة حتى لا يتلوح منك لمن يكفر بالبعث أن يطعم في صدك عما أنت عليه ^(١) .

وقال في تفسير الآية الكريمة: « كل شيء هالك إلا وجهه ^(٢) » :

كل شيء هالك إلا إياه ، والوجه يعبر به عن الذات ^(٣) .

وقال في تفسير قوله تعالى: « كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ^(٤) »: المراد بالوجه الذات ، والوجه يعبر به عن الجملة والذات ، ومساكين مكة يقولون: أين وجه عربي كريم ينقذني من الهوان ^(٥) .

٦ - المجاز العقلي

هو إسناد الفعل أو ما في معناه إلى غير ما هو له ، لعلاقة مع قرينة مانعة من إرادة الإسناد الحقيقي وهو يكون إلى سبب الفعل أو زمانه أو مكانه أو مصدره أو بإسناد المبنى للفاعل إلى المفعول أو المبنى للمفعول إلى الفاعل . وقد اعتمد الزمخشري على هذا المجاز كثيرا في تأويل الآيات المتصلة بحرية المباد واختيارهم وفقا لمذهب المعتزلة .

فقال في الآية الكريمة: « يُضِلُّ به كثيرا ويَهْدِي به كثيرا ^(٦) »: إن إسناد الإضلال إلى الله تعالى إسناد الفعل إلى السبب ، لأنه لما ضرب المثل فَضَّلَ به قوم واهتدى قوم تسبب لضلالتهم وهداهم ، وعن مالك بن دينار رحمه الله أنه دخل على محبوس قد أخذ بمال عليه وقيد ، فقال: يا أبا يحيى أما ترى مانع فيه من القيود؟ فرفع مالك رأسه ، فرأى سلة ، فقال: لمن هذه السلة؟

(١) الكشاف ٢٢/٢

(٢) سورة القصص ٨٨

(٣) الكشاف ١٧٣/٢

(٤) سورة الرحمن ٢٧

(٥) الكشاف ٤٢٥/٢

(٦) سورة البقرة ٢٦

فقال الرجل : لى . فأمر بها تنزل ، فإذا دجاج وأخيصة^(١) ، فقال مالك : هذه وضعت القيود على رجلك^(٢) .

وقال فى تفسير قوله تعالى « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم » ، وما كانوا مهتدين^(٣) « أسند الخسران إلى التجارة ، وهو لأصحابها على طريقة الإسناد المجازى ، وهو أن يسند الفعل إلى شيء يتلبس بالذى هو فى الحقيقة له ، كما تلبست التجارة لمشتري .

فإن قلت : هل يصح ربح عبدك وخسرت جاريك إلى الإسناد المجازى ؟ قلت : نعم إذا دلت الحال ، وكذلك الشرط فى صحة رأيت أسدا ، وأنت تريد المقدام ، إن لم تتم حال دالة لم يصح .

وقال فى تفسير قوله تعالى : « الله يعلم ما تحمّل كل أنثى . وما تنقيض الأرحام وما تزداد » ، وكل شيء عنده بمقدار^(٤) .

(١) فى الأنفال الثلاثة : إما موصولة ، وإما مصدرية ، فإن كانت موصولة فالمنى أنه يعلم ما تحمّله من الولد على أى حال من ذكورة وأنوثة ويعلم ما تنقيضه الأرحام ، أى تنقصه ، يقال غاض الماء ، وغضته أنا ، ويعلم ما تزداده أى تأخذه زائدا ، ومنه قوله تعالى : « وازدادوا تسعا »^(٥) .

وإن كانت مصدرية فالمنى أنه يعلم حمل كل أنثى ، ويعلم غييض الأرحام وازديادها ويجوز أن يراد غييض ما فى الأرحام وزيادته ، فأسند الفعل إلى الأرحام ، وهو لما فيها^(٦) .

(١) أخيصة : جمع خبيص وهو المصول من السن والتمر .

(٢) الكشاف ١٧/١ (٣) سورة البقرة ١٦

(٤) سورة الزهد ٨ (٥) سورة الكهف ٢٥

(٦) الكشاف ١٨٩/١

(٢)

في علم المعاني

تناول كثيرا من موضوعات علم المعاني ، مثل :

١ - القصر

قال في تفسيره لقوله تعالى : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ ، قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ . أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ ، وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ » ^(١) .

إنما القصر الحكم على شيء ، كقولك : إنما ينطلق زيد ، أو قصر الشيء على حكم كقولك : إنما زيد كاتب ، ومعنى « إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ » أن صفة المصلحين خلصت لهم وتمحضت من غير شائبة قدح فيها ^(٢) .

وقد رد الله عليهم أبلغ رد في قوله : « أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ » لما في ألا من التأكيد ، وتعريف الخير ، وتوسيط الفصل — الضمير هم — .

وقال في تفسير قوله تعالى : « إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ » ^(٣) . قدم المفعول لقصد الاختصاص ، كقوله تعالى : « قُلْ أَفَسِعَ اللَّهُ تَأْمِرُونِي أُعْبِدَ أَهْيَا الْجَاهِلُونَ » ^(٤) : والمعنى يخصك بالعبادة وتخصك بطلب المعونة .

وقال في تفسير قوله تعالى : « أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهِمَ آفَتَهُ » ^(٥) . اختص هدهم بالافتداء ، أي لا تهتد إلا بهم ، وهذا معنى تقديم المفعول ، والمراد بهدهم طريقهم في الإيمان بالله وتوحيده وأصول الدين ودون الشرائع فإنها مختلفة ^(٦) .

(٢) الكشاف ٢٦/١

(١) سورة البقرة ١١ - ١٢

(٤) سورة الزمر ٣٩

(٣) سورة الفاتحة ٤

(٦) الكشاف ٣٠٠/١

(٥) سورة الأنعام ٩٠

- وقال في تفسير قوله تعالى: «وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ» ^(١) .
تنظر إلى ربها خاصة لا تنظر إلى غيره ، وهذا معنى تقديم المفعول، الأخرى
إلى قوله: «إلى ربك يومئذٍ المُستَقَرَّة» ^(٢) .
و : «إلى ربك يومئذٍ المُتَّاقُ» ^(٣) .
و : «إلى الله تصير الأمور» ^(٤) .
و : «إلى الله المصير» ^(٥) .
و : «إلى الله ترجعون» ^(٦) .
و : «عليه توكلتُ وإليه أنيب» ^(٧) .
كيف دل فيها التقديم على معنى الاختصاص ^(٨) .

٢ - الفصل والوصل

عرض لها ^(٩) ، فقال في تفسير قوله تعالى: «الْمَ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ» : ^(١٠) الذي هو أرسخ في البلاغة عرقاً أن يضرب عن هذه الحال صفحاً—يزيد الحال النحوية— وأن يقال إن قوله (الم) جملة برأسها أو طائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها، و: «ذلك الكتاب» جملة ثانية، ولا لاريب فيه «

(٢) سورة القيامة ١٢

(٤) سورة الشورى ٥٢

(٦) سورة القصص ٧٠

(٨) الكفاح ٢/٥٠٩

(٩) اعتبرها من علم البيان كما صرح بذلك في الكفاح ١/٤٥٢

(١) سورة القيامة ٢٢

(٣) سورة القيامة ٣٠

(٥) سورة النور ٤٢

(٧) سورة هود ٨٨

(١٠) سورة البقرة ١

ثالثة ، و « هدى للمتقين » رابعة . وقد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة ، وموجب حسن النظم ، حيث جىء بها متناسقه هكذا من غير حرف نسق ، وذلك لجيئها متأخية آخذاً ببعضها بمنق بعض ^(١) . . .

وقال فى تفسير الآية الكريمة : « قالوا إنا معكم ، إنما نحن مُستهزئون » ^(٢) :

الجملة الثانية تؤكد للأولى ، لأن قولهم (إنا معكم) معناه الثبوت على اليهودية ، وقولهم (إنا نحن مُستهزئون) رد للإسلام ودفع له ، لأن المستهزئ بالشئ المستخف به منكر له ، أو بدل منه ، لأن من حقر الإسلام فقد عظم الكفر ، أو استثناف كأنهم اعترضوا عليهم حين قالوا لهم إنا معكم ، فقالوا : فما بالكم إن صح أنكم معنا توافقون أهل الإسلام ؟ فقالوا : إنما نحن مُستهزئون ^(٣) .

فالفصل هنا سببه أن الجملة الثانية مؤكدة للأولى ، أو بدل منها ، أو استثناف ، أو بيان لها ، أو جواب عن سؤال مقدر ، وهذه الأسباب هى التى يسميها علماء البلاغة الفصل لكمال الاتصال أو لشبه كمال الاتصال .

وقال فى تفسير قوله تعالى : « ذلك الكتاب لارىب فيه هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون » ^(٤) :

فإن قلت « والذين يؤمنون » أم غير الأولين ؟ أم هم الأولون ؟ وإنما وسط العاطف ، كما يوسط بين الصفات فى قولك هو الشجاع والجواد وفى قوله :

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتبية فى الزدحم

(٢) سورة البقرة ١٥

(٤) سورة البقرة ٢ — ٤

(١) الكشاف ١/١٦

(٣) الكشاف ١/٢٨

قلت : يحتمل أن يراد بهؤلاء مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأضرابه ، فيكون المعطوف غير المعطوف عليه ، ويحتمل أن يراد وصف الأولين ، ووسط العاطف على معنى أنهم الجامعون بين تلك الصفات وهذه ^(١).

٣ - التوكيد

قال في تفسير قوله تعالى : « واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون ، إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما ، فمززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون . قالوا ما أنتم إلا بشرٌ مثلنا ، وما أنزل الرحمن من شيء ، إن أنتم إلا تكذبون ، قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون » ^(٢).

فإن قلت : لم قيل « إنا إليكم مرسلون » أولاً و « إنا إليكم لمرسلون » .
آخرًا ؟ قلت : لأن الأول ابتداء إخبار ، والثاني جواب عن إنكار ، وقوله « ربنا يعلم » جار مجرى القسم في التوكيد ^(٣).

والمعروف في علم للمعانى أن الخبر إن كان نكالي الذهن لا يؤكد ، فإن كان لشاك أكد بمؤكد واحد ، فإن كان لمنكر أكد بمؤكدين أو أكثر .

فهل أراد الزمخشري بالخبر الأول أنه نكالي الذهن ؟ لا ، لأن المرسل إليهم كانوا في شك من صدق الرسل ، ولكنه أراد بقوله إن الأول ابتداء إخبار أى بالنسبة لهؤلاء الشاكين .

٤ - التقديم التأخير

قال في تفسير الآية الكريمة : « قل أغَيْرِ الله أَتَّخِذُ وَلِيًّا » ^(١).

(١) الكشاف ١٨/١

(٢) سورة يس ١٣ - ١٦

(٣) الكشاف ٢٤٩/٢

(٤) سورة الأنعام ٩

إن «غير الله» وليت همزة الاستفهام دون الفعل (أتحذ) لأن الإنكار في اتخاذ غير الله وليا ، لا في اتخاذ الولي ، فكان أولى بالتقديم ^(١)

ومحوه: «أفغير الله تأمروني أعبدُ أيها الجاهلون» ^(٢)

فالتقديم هنا للاهتمام بنفي المقدم :

وقال في قوله تعالى: «ذلك الكتاب لا ريب فيه» ^(٣) لم يقدم الظرف على الريب كما قدم على القول في قوله تعالى: «لا فيها غول» ، ولا هم عنها يُنْزَفُونَ ^(٤) . لأن القصد في إيلاء الريب حرف النفي نفي الريب عنه ، وإثبات أنه حق وصدق لا باطل وكذب ، كما كان المشركون يدعون ، ولو جاء الظرف بعد حرف النفي لبعد النفي عن المراد ، وهو أن كتابا آخر فيه الريب لا هذا الكتاب ، كما قصد في قوله «لا فيها غول» تفضيل خير الجنة على خور الدنيا بأنها لا تقتال العقول كما تقتالها هي ، كأنه قيل ليس فيها ما في غيرها من هذا العيب والنقيصة ^(٥) .

وقال في تفسير قوله تعالى: «وظنوا أنهم ما نعتهم حصونهم من الله» ^(٦) :

إن الفرق بين ظنوا أن حصونهم تمنعهم أو مانعهم ، وبين النظم الذي جاء عليه أن في تقدم الخبر على المبتدأ دليلا على فرط وثوقهم بمحصاتها ومتمنتها بإمام ، وفي تصوير ضميرهم اسما لأن ، وإسناد الجملة إليه ، دليل على اعتقادهم في أنفسهم أنهم في عزة ومنعة لا يبالون معها بأحد يتعرض لهم ، وليس ذلك في قولك وظنوا أن حصونهم تمنعهم ^(٧) .

(١) الكشاف ٢٨٥/١

(٢) سورة الزمر ٣٩

(٣) سورة البقرة ٢

(٤) الكشاف ١٥٠/١

(٥) سورة الصافات ٤٧

(٦) الكشاف ٤٤٥/٢

(٧) سورة المهيمن ٣٠

٥- الحذف

قال في تفسير قوله تعالى : « فلا تحملوا الله أن يذاداً وأنتم تعلمون ^(١) » :

إن مفعول تعلمون متروك، كأنه قيل وأنتم من أهل العلم والمعرفة، والتوبيخ فيه أوكد، أى أنتم المرافون، المميزون، ثم إن ما أنتم عليه في أمر ديانكم من جعل الأصنام لله أنذاداً هو غاية الجهل ونهاية سخافة العقل. ويجوز أن يقدر وأنتم تعلمون أنه لا يماثل، أو وأنتم تعلمون ما بينه وبينها من التفاوت، أو أنتم تعلمون أنها لا تفعل مثل أفعاله، كقوله: « هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء ^(٢) » .

وقال في تفسير قوله تعالى « والضحى والليل إذا سجي، ما ودّعك ربك وما بلى ^(٣) » :

حذف الضمير من قلى كحذفه من « والذاكرين الله كثيراً والذاكرات ^(٤) » . يريد والذاكراته، ونحوه فأوى، فهدى، فأغنى، وهو اختصار لفظي لظهور المحذوف ^(٥) .

٦- الالتفات

عرض للالتفات ^(٦)، فقال في الآية الكريمة: « إياك نعبد وإياك نستعين » فإن قلت لم عدل عن لفظ الغيبة إلى لفظ الخطاب ؟

(١) سورة البقرة ٢٢ (٢) الكشاف ٣٨/١

(٣) سورة الضحى ١ (٤) سورة الاحزاب ٣٣

(٥) الكشاف ٤٩/٣

(٦) اعتبر الالتفات من علم البيان واعتبره البلاغيون بعده من علم المعاني

قلت: هذا يسمى الالتفات في علم البيان، وقد يكون من النية إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى النية، ومن النية إلى التكلم، كقوله تعالى: «حق إذا كنتم في الفلك وجرّين بهم»^(١)، وقوله تعالى: «والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه»^(٢).

وقد التفت امرؤ القيس ثلاثة التفاتات في ثلاثة أبيات:

تطاول ليلك بالأنمد . ونام الخلى ولم ترقد
وبات وباتت له ليلة كليلة ذى العائر الأرمد^(٣)
وذلك من نبأ جاءى وخبرته عن بنى الأسود

وذلك على عادة افتنائهم في الكلام، وتصرفهم فيه، ولأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن نظرية لنشاط السامع، وإيقاظاً للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد. وقد تختص مواقفه بفوائد، وبما اختص به هذا الموضع أنه لما ذكر الحقيق بالجد، وأجرى عليه تلك الصفات العظام تعلق العلم بمعلوم عظيم الشأن، حقيق بالثناء وغاية الخضوع والاستماعة به في المهمات، فحطب ذلك المعلوم، المتميز بتلك الصفات، فقيل إياك يا من هذه صفاته نخص بالعبادة والاستماعة، لا نعبد غيرك، ولا نستعينه، ليكون الخطاب أدل على أن العبادة له لذلك التميز الذي لا تحق العبادة إلا به^(٤).

وبما يدل على تأثير السكاكي بالزخشرى أنه عرف الالتفات بأنه نقل الكلام من الحكاية والتكلم والخطاب والنية إلى واحد منها، وقال إن العرب يستكثرون منه، ويرون أن الكلام إذا انتقل من أسلوب إلى أسلوب

(١) سورة يونس ٢٢ (٢) سورة طاهر ٩

(٣) العائر: كل ما أمرض العين والرمد والبثر والجفن الأسفل.

(٤) الكشاف ٨/١

أدخل في القبول عند السامع، وأحسن تطرية للنشاطه، وأملأ في استدرار إحصائه،
وم أحرأ بذلك ... ثم ذكر عدة أمثلة ختمها بأبيات امرئ القيس الثلاثة
التي ذكرها الزمخشري .

ثم عقب بما يقطع بأنه نقل عن الزمخشري إذ قال : وهذا النوع قد يختص
مواقفه بلطائف معان قلما تتضح إلا لأفراد بلغائهم ، أو للعذاق المهرة في هذا
الفن ، ومتى اختص موقعه بشيء من ذلك كساه فضل بهاء ورواق ، وأورث
السامع زيادة هزة ونشاط ... أضغ إلى قوله تعالى : « إياك نعبد وإياك نستعين »
بعد تلاوتك لما قبله ، لتعلم ما موقعه ، وكيف أصاب المحز ، وطبق مفصل البلاغة ،
لكونه منبها على أن العبد للنعم عليه بقلك النعم العظام الفاتكة للعصر إذا قدر
أنه مائل بين يدي موليه ، من حقه إذا أخذ في القراءة أن تكون قراءته على وجه
يحد معها نفسه شبه محرك إلى الإقبال على من يحدد ^(١) .

٧ - التعمير بالمضارع عن الماضي

قال في تفسير قوله تعالى : « وَاقِعُهُ الْقَدِ ارْسَلَ الرِّيحَ فُتْثِرُ سَحَابًا ، فَسُقْنَاهُ
إِلَى بَلَدٍ مِّنْ مِّنْ ، فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، كَذَلِكَ النُّشُورُ » ^(٢) .

فلن قلت لم جاء « فتثير » على المضارعة دون ما قبله وما بعده ؟

قلت : ليحكى الحال التي تقع فيها إثارة الرياح السحاب ، وتستحضر
تلك للصورة البديعة الدالة على القدرة الربانية ، وهكذا يفعلون بفعل فيه تمييز
وخصوصية بحال تستغرب أو تهتم المحاطب أو غير ذلك ، كما قال تأبط شرا :
بأنى قد لقيتُ الفول تهوى بسهب كالصحيفة صمغحان ^(٣)

(١) مفتاح العلوم ١٠٧ .

(٢) سورة طه ٩ .

(٣) الفول : حيوان خال . سهب : فلاة . صمغحان : أرض مشوية .

فَأَضْرِبُهَا بِلَا دَهْشٍ فَفُتَّتْ صَرِيحًا لِلْيَدِينِ وَاللَّجْرَانِ (١)

لأنه قصد أن يصور لقومه الحالة التي تشعج فيها بزعمه على ضرب القول ، كأنه يبصرهم إياها ، ويطلعهم على كنهها ، مشاهدة للتعجب من جرأته على كل هول ، وثباته عند كل شدة . وكذلك سوق السحاب إلى البلد الميت ، وإحياء الأرض بالمطر بعد موتها ، لما كان من الدلائل على القدرة الباهرة قيل (فسقناه) (وأحيينا) معدولا بهما عن لفظة الغيبة إلى ما هو أدخل في الاختصاص وأدل عليه (٢) .

وقد نقل المكاكي ما قاله الزمخشري تعقيباً على هذه الآية (٣) .

٨ - التعبير بالماضي عن المستقبل

قال في تفسير الآية الكريمة : « أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ (٤) » : إلهم كانوا يستعجلون ما وعدوا من قيام الساعة أو نزول العذاب بهم ، فقيل لهم « آتَى أَمْرُ اللَّهِ » الذي هو بمنزلة الآتي الواقع ، وإن كان منتظراً لقرب وقوعه (٥) . وقال في الآية الكريمة : « وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزَعَ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ (٦) » : إنه عبر بالماضي لتسكته ، وهي الإشعار بتحقيق الفزع وثبوته ، وأنه كائن لا محالة واقع على أهل السموات والأرض ، لأن الفعل الماضي يدل على وجود الفعل وكونه مقطوعاً به ، والمراد فزعهم عند النفخة الأولى حين يصقون (٧) .

(٢) الكشاف ٢/٢٣٩

(٤) سورة النمل ١

(١) الجران : مقدم منق البير .

(٣) مفتاح العلوم ١٣٣

(٥) الكشاف ١/٥١٩

(٦) سورة النمل ٨٧

(٧) الكشاف ٢/١٥٣

٩ - الجملة الاسمية والفعلية

ذكر أن الجملة الاسمية والفعلية تدل على الدوام والاستمرار، والجملة الفعلية تدل على التجدد .

قال في تفسير الآية الكريمة: « يا أيها الناس اتقوا ربكم ، واخشوا يوما لا يعزى والد عن ولده ولا مولود هو جازٍ عن والده شيئا »^(١) : إن الجزء الثانى من الآية وارد على طريق من التوكيد لم يرد عليه الجزء الأول ، لأن الجملة الاسمية آكد من الفعلية ، والسبب فى مجيئه على هذا السنن أن الخطاب للمؤمنين ، وعليهم قبض آباؤهم على الكفر وعلى الدين الجاهلى ، فأريد حسم أطاعهم وأطاع الناس فيهم أن ينفقوا آباؤهم فى الآخرة ، وأن يشفّعوا لهم ، وأن ينفقوا عنهم من الله شيئا ، فذلك جىء به فى الطريق الآكد^(٢) .

وقال فى تفسير الآية الكريمة: « وإذا خلّوْا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون ، الله يستهزئ بهم »^(٣) :

فإن قلت : فهلا قيل : الله مستهزئ بهم طبقا لقوله إنما نحن مستهزئون ؟

قلت : لأن يستهزئ يفيد حدوث الاستهزاء وتجدده وقتا بعد وقت ، وهكذا كانت نكابات الله فيهم وبلاياه النازلة بهم^(٤) .

(١) سورة لقمان ٣٣

(٢) الكتاب ١٩٩/٢

(٣) سورة البقرة ١٥

(٤) الكتاب ٢٨/١

(٣)

في علم البديع

١ - الجناس :

قال في تفسير قوله تعالى : « وجئتكم من سبأ بنبأ يقين »^(١) : إن هذا من جنس الكلام الذي سماه المحدثون البديع ، وهو من محاسن الكلام الذي يتعلق باللفظ ، بشرط أن يحى مطبوعا ، أو يصنعه عالم بجوهر الكلام ، يحفظ معه صحة للمنى وسداده .

ولقد جاء هاهنا زائدا على الصفة ، فحسن وبدع لفظا ومعنى . ألا ترى أنه لو وضع مكان (نبأ) مخبر لكان للمنى صحيحا ، ولكنه كما جاء أصح ، لما في النبأ من الزيادة التي يطابقها وصف الخلال^(٢) .

وقال في تفسير الآية الكريمة « وقيل بأرض أبلى مأكو باسماء أقلى »^(٣) . إن علماء البيان استفصخوا هذه الآية ، ورقصوا لها رقصهم ، لا لتجانس الكلمتين وهما أبلى وأقلى ، وذلك وإن كان لا يحل الكلام من حسن فهو كثير الملتفت إليه بإزاء المحاسن التي هي اللب وما عداها قشور ، وقد بين محاسن الآية^(٤) .

٢ - الطباق :

في الآية الكريمة : « ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون »^(٥) ذكر السفه وهو الجهل ، فكان ذكر العلم معه أحسن طباقا له^(٦)

(١) سورة النمل ٢٢ (٢) الكشاف ٢/١٨٢

(٣) سورة هود ٤٤ (٤) الكشاف ١/٤٤١

(٥) سورة البقرة ١٣ (٦) الكشاف ١/٢٧

٣ - تأكيد المدح بما يشبه الذم :

قال في تفسير قوله تعالى : « وما نَقَمُوا منهم إلا أن يؤْمِنُوا بالله العزيز الحميد »^(١) :

وما عابوا منهم وما أنكروا إلا الإيمان ، كقوله :

ولا هُمب فيهم غير أن سيوفهم بهنْ فلولٌ من قراع الكتائب

وقال ابن الرقيّات :

وما نَقَمُوا من بنى أمية إلا أنهم يملعون إن غضبوا^(٢)

٤ - اللف والنثر :

هو ذكر متعدي على التفصيل أو الإجمال ، ثم ذكر ما لكل واحد من آحاد هذا المتعدد من غير تعيين ، ثقة بأن السامع يرد كل شيء إلى ما هو له ، معتمداً على قرينة لفظية أو معنوية .

ذكر عند تفسير قوله تعالى : « شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ » ، فمن شهدَ مِنْكُمْ الشهرَ فَلْيَصْنِعْهُ ، وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ، يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ ، وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ، وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ ، وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ »^(٣) :

إن قوله تعالى (لتكملوا) علة الأمر بمراعاة العدة ، و (لتكبروا) علة ما علم من كيفية القضاء والخروج عن عهدة الفطر ، و (لعلمكم تشكرون) علة الترخيص والتيسير ، وقال إن هذا نوع من اللف لطيف المسلك ، لا يكاد يهتدى إلى تبيينه إلا النقاب المحدث من علماء البيان^(٤)

(١) سورة البروج ٨

(٢) الكشاف ٢/٣٥٠

(٣) سورة البقرة ١٨٥

(٤) الكشاف ١/٨٩

• - المشاكلة

هي ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في محبته ، نحو قول الشاعر .

قالوا اقترح شيئاً نُحَدِّدُ لك طبعه قلت اطبخوا لي جبةً وقيصاً

أى خيطوا ، وذكر خياطة الجبة بلفظ الطبخ لوقوعها في محبة طبعه الطعام . ومنه قوله تعالى : « تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ » حيث أطلق النفس على ذات الله تعالى ، لوقوعه في محبة نفسه .

وقد ذكر الزمخشري في تفسيره للآية الكريمة : « إِنْ اللَّهَ لَا يَسْتَعِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا » ^(١) أنه يجوز أن يقول الكفرة : أما يستحي رب محمد أن يضرب مثلاً بالذباب والمنكبوت ؟ فجاءت على سبيل المكافحة ، وإطباق الجواب على السؤال ، وهو فن من كلامهم يديع ، وطراز عجيب ، منه قول أبي تمام :

مَنْ مَبْلَغُ أَفْئَاءِ يَغْرُبُ كُلُّهَا أَنِّي بَنَيْتُ الْجَارَ قَبْلَ الْمَنْزِلِ

وشهد رجل عند شريح قال : إنك تسبط الشهادة ، قال الرجل : إنها لم تَحْمَدُ عني : قال لله بلادك ، وقبل شهادته . فالذى سوغ بناء الجار ، وتحميد الشهادة هو مراعاة المشاكلة ، ولولا بناء الدار لم يصح بناء الجار ، ولولا سبوط الشهادة لامتنع تحميدها . والله در أمر التنزيل وإحاطته بفنون البلاغة وشعبها ، لا تكاد تستغرب منها فثا إلا عثرت عليه فيه على أقوم منهاجه ، وأسد مدارجه ^(٢) .

وقال في تفسير الآية الكريمة : « تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ » ^(٣) :

(١) سورة البقرة ٢٦

(٢) الكشاف ٤٥/١ (٣) سورة المائدة ١١٦

المعنى تعلم معلومى ، ولا أعلم معلومك ، ولكنه سلك بالكلام طريق
المشاكلة ، وهو من فصيح الكلام وبينه^(١) .

وقد نقل كلام الزمخشري بهاء الدين السبكي فى كتابه (عروس الأفراح
فى شرح تلخيص المفتاح)^(٢) .

(١) الكشف ٢٨١/١

(٢) شروح التلخيص ٣١٢/٤

ثامِنًا - تعليلٌ وتحيصٌ

١ - تأزرت عوامل متعددة مكنت للزخشرى أن يبرع في تعليله ، فهو معتزلى ذكى ممن مروا على الجدل والحاجة ، واستكناه ما وراء الظواهر ، وهو أديب ذواق ، قدير على التعبير عما يحتلج بنفسه ، وهو إلى هذا كله غيور على الإسلام ، غيور على القرآن ، لا يألو جهدا في الدفاع عنها ، ولا يدع تعليلًا موصولًا بتفسير الآية أو تأويلها إلا ذكره .

من ذلك أنه عند تفسير قوله تعالى في وصف أهل الجنة : « كلما رُزِقوا منها من ثمرة رزقًا قالوا : هذا الذى رُزِقْنَا من قَبْلُ ، وأوتوا به مُنْتَشِبًا ، ولهم فيها أزواج مطهرة ، وهم فيها خالدون » (١) .

قال : فإن قلت : لأى غرض يتشابه ثمر الدنيا وثمر الجنة؟ وما بال ثمر الجنة لم يكن أجناسًا آخر؟

قلت : لأن الإنسان بالمألوف آنس ، وللمعهود أميل ، وإذا رأى ما لم يألف نفر عنه طبعه ، وعافته نفسه ، ولأنه إذا ظفر بشيء من جنس ما سلف له به عهد ، وتقدم له معه إلف ، ورأى فيه مزية ظاهرة ، وفضيلة بيّنة ، وتفاوتا بينه وبين ما عهد ، أفرط ابتهاجه واغباطه ، وطلال استمجا به واستغرابه ، وتبين كنه النعمة فيه ، وتحقق مقدار النبطة به . وإن كان جنسا لم يعهده - وإن كان فائقا - حسب أن ذلك الجنس لا يكون إلا كذلك ، فلا يتبين موقع النعمة حق التبيين .

وتردبدهم هذا القول ونطقهم به عند كل ثمرة يرزقونها ، دليل على تناهى الأمر ، وتمادى الحال فى ظهور المزية وتعام الفضيلة ، وعلى أن ذلك التفاوت العظيم هو الذى يستملى تعجبهم ، ويستدعى تبجحهم فى كل أوان ^(١) .

وفى تفسير قوله تعالى : « هل يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ ^(٢) » .

قال ^(٣) : فإن قلت : لم يأتهم العذاب فى الغمام ؟ قلت : لأن الغمام مظنة الرحمة ، فإذا نزل منه العذاب كان الأمر أفظع وأهول ، لأن الشر إذا جاء من حيث لا يحتسب كان أغم ، كما أن الخير إذا جاء من حيث لا يحتسب كان أَسْرَّ ، فكيف إذا جاء الشر من حيث يحتسب الخير ؟

لذلك كانت الصاعقة من العذاب المستفطع ، لحببها من حيث يتوقع الغيث ، ومن ثمة اشتد على المتفكرين فى كتاب الله قوله تعالى : « وبدآ لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ^(٤) » .

وقال فى تفسير قوله تعالى : « يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ، لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيْنِ ^(٥) » فإن قلت : هلا قيل للأُنثيين مثل حظ الذكور ، أو للأُنثى نصف حظ الذكور ؟

قلت : لبدأ بيان حظ الذكر لفضله ، كما ضعف حظها لذلك ، ولأن قوله (للذكر مثل حظ الأنثيين) قصد إلى بيان فضل الذكر ، وقولك للأُنثيين مثل حظ الذكر قصد إلى بيان نقص الأنثى ، وما كان القصد منه بيان فضل الذكر أدل على فضله من القصد إلى بيان نقص غيره عنه ، ولأنهم كانوا يورثون الذكور

(١) الكشاف ٤٤/١

(٢) سورة البقرة ٢١٠ (٣) الكشاف ٩٩/١

(٤) سورة الزمر ٤٧ (٥) سورة النساء ١١

دون الإناث ، وهو السبب لورود الآية ، فقيل كفى الذكور أن ضوعف لهم نصيب الإناث ، فلا يتمادى في حرمانهن مع إدلائهن من القرابة بمثل ما يدل به الذكور ^(١) .

وقال عند تفسير قوله تعالى : « وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ » ^(٢) : « لَا تَسُبُّوا الْأَلَهَةَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، فَيَسُبُّوا اللَّهَ ، ذَلِكَ أَنَّهُمْ قَالُوا عِنْدَ نَزُولِ قَوْلِهِ تَعَالَى : « إِنَّا كُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ » ^(٣) لَتَنْهَيْنَ عَنْ سَبِّ آلِهَتِنَا ، أَوْ لَتَهْجُونَ إِلَهَكَ ، وَقِيلَ كَانَ الْمُسْلِمُونَ يَسُبُّونَ آلِهَتَهُمْ ، فَهَؤُلَاءِ ، لِثَلَا يَكُونَ سَبِّهِمْ سَبِّاً لِسَبِّ اللَّهِ سُبْحَانَهُ .

فإن قلت : سب آلهم حق وطاعة ، فكيف صح النهي عنه ، وإما يصح النهي عن المعاصي ؟

قلت : رُبَّ طاعة علم أنها تكون مفسدة ، فتخرج عن أن تكون طاعة ، فيجب النهي عنها لأنها معصية ، لا لأنها طاعة ، كالنهي عن المنكر ، وهو من أجل الطاعات ، فإذا علم أنه يؤدي إلى زيادة الشر انقلب معصية ، ووجب الكف عنه كما يجب الكف عن المنكر .

فإن قلت : فقد روى عن الحسن وابن سيرين أنها حضرا جنازة ، فرأى محمد نساء فرجع ، فقال الحسن : لو تركنا الطاعة لأجل المعصية لأمرع ذلك في ديننا .

قلت : ليس هذا مما نحن بصدد ، لأن حضور الرجال الجنازة طاعة ، وليس سببا لحضور النساء ، فإنهم يحضرنها حضر الرجال أو لم يحضروا ، بخلاف سب الآلهة ، وإما خيل إلى محمد أنه مثله حتى نبه عليه الحسن ^(٤) .

(١) الكشاف ١/١٩١ (٢) سورة الأنعام ١٠٨

(٣) سورة الأنبياء ٩٨ (٤) الكشاف ١/٣٠٥

٢ — وهو معتزلى يحتكم إلى العقل ، ويستند إلى التفكير في تمحيص ماقرأ وماسمع ، فبنى رؤية الناس للجن ، ورفض الحسد على أنه قدرة من الحاسد على التأثير في المحسود ، ولم يصدق السحر بمعنى التأثير في المسحور ، وفق مايريد الساحر .

قال في تفسير قوله تعالى : « يا بني آدم لا يفتننك الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزعُ عنها لباسها يُريهما سوءَ آتئها ، إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم »^(١) : ذلك دليل بَيِّن على أن الجن لا يُروْنَ ولا يظهرون للإنس ، وأن إظهارهم أنفسهم ليس في استطاعتهم ، وأن زعم من يدعى رؤيتهم زور ومخرقة^(٢) .

وقال في تفسير قوله تعالى : « ومن شرُّ حاسد إذا حسد »^(٣) : إذا ظهر حسده وعمل بمقتضاه من بنى الفوائل للمحسود ، لأنه إذا لم يظهر أثر ما أضمره فلا ضرر يعود منه على من حسده ، بل هو الضار لنفسه ، لاغنامه بسرور غيره . وعن عمر بن عبد العزيز : لم أر ظالماً أشبه بالظالم من حاسد .

ويجوز أن يراد بشر الحاسد إثمه وسماجة حاله في وقت حسده وإظهاره أثره^(٤) .

وقال في تفسير الآية الكريمة : « ومن شر النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ »^(٥) :

النفاثات النساء أو النفوس أو الجماعات السواحر اللاتي يعقدن عقداً في خيوط ، وينفثن عليها ويرقن ، والنفت النفخ مع ريق .

ولا تأثير لذلك ، اللهم إذا كان إطعام شيء ضار ، أو سقيه ، أو إشمائه ،

(١) سورة الأعراف ٢٧ (٢) الكشاف ١/٣٢٤

(٤) الكشاف ٢/٥٦٨

(٣) سورة الفلق ٥

(٥) سورة الفلق ٤

أو مباشرة المسحور به على بعض الوجوه . ولكن الله قد يفعل عند ذلك فعلا على سبيل الامتحان الذى يتميز به المثبت على الحق من الحشوية والجهلة من العوام ، فينسب الحشوية والرعاع إليهن وإلى نفهن ، والثابتون بالقول الثابت لا يلتفتون إلى ذلك ، ولا يعبأون به .

فإن قلت : فما معنى الاستعاذة من شرهن ؟

قلت فيها ثلاثة أوجه : أحدها أن يستعاذ من عملهن الذى هو صنعة السحر ، أو من إثمهن فى ذلك . والثانى أن يستعاذ من فتنتهن الناس بسحرهن وما يخذعن به من باطلهن . والثالث أن يستعاذ مما يصيب الله به من الشر عند نفتهن . ويجوز أن يراد بهن النساء الكيادات من قوله : « إن كيدهن عظيم » ^(١) ، تشبيها لكيدهن بالسحر والنفث فى المقد ، أو اللاتى يفتن الرجال بتعرضهن لهم ، وعرضهن محاسنهن ، كأنهن يسحرهم بذلك ^(٢) .

٣ — وكثيراً ما محص الأخبار والآراء التى ذكرها سابقوه تمخيصاً دالا على دقة نظره ، وحرصه على نقاء العقيدة وتصفيتها من شوائب الإسرائيليات والأساطير .

فسر قوله تعالى فى سورة يوسف : « ولقد هَمَّتْ بها وهمَّ بها لولا أن رأى برهان ربه » ^(٣) تفسيراً مفصلاً انتهى إلى أنها همت بمخالطته وهم بمخالطتها ، لولا أن رأى برهان ربه .

ثم ذكر ما قاله سابقوه من المفسرين ، فقال إن بعضهم فسرهم يوسف بأنه حل الهميان ، وجلس منها مجلس الجامع ، وبأنه حل سراويله ، وقعد بين

شعبها الأربع ، وهى مستلقية على قفاها ، وفسر البرهان بأنه سمع صوتا إياك وإياها ، فلم يكثر له ، فسمع ثانياً ، فلم يعمل به ، فسمع ثالثاً ، فأعرض عنه ، فلم يجمع فيه حتى مثل له يعقوب عاضاً على أُمَلته ، وقيل ضرب بيده فى صدره ، فخرجت شهوته من أنامله ، وقيل كل ولد يعقوب له اثنا عشر ولداً إلا يوسف ، فإنه ولد له أحد عشر ولداً من أجل ما نقص من شهوته حين هم .

وقيل صبح به يايوسف لا تكن كالطائر كان له ريش ، فلما زنا قعد لاريش له ، وقيل زبدت كف فيما بينها ليس لها عضد ولا معصم مكتوب فيها « وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين » ^(١) فلم ينصرف ، ثم رأى فيها « ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً » ^(٢) ، فلم ينته ، ثم رأى فيها « واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله » ^(٣) فلم يجمع فيه ، فقال الله لجبريل : أدرك عبدى قبل أن يصيب الخطيئة ، فاعطى جبريل وهو يقول يايوسف أتمتع عمل السفهاء ، وأنت مكتوب فى ديوان الأنبياء ؟

وقيل رأى تمثال العزيز ، وقيل قامت المرأة إلى صنم كان هناك فسترته ، وقالت : أستحي منه أن يرانا ، فقال يوسف : استحييت منى لا يسمع ولا يبصر ولا أستحي من السميع البصير العليم بذات الصدور ؟

وعلق الزمخشري على هذا بقوله : وهذا ونحوه مما يورده أهل الحشو والجبر الذين دينهم بهت الله تعالى وأنبيائه . وأهل العدل والتوحيد ليسوا من مقالاتهم ورواياتهم - بحمد الله - بسبيل .

ولو وجدت من يوسف عليه السلام أدنى زلة لنعمت عليه ، وذكرت توبته واستغفاره ، كما نعمت على آدم زلته ، وعلى داود وعلى نوح وعلى أيوب وعلى ذى النون ، وذكرت توبتهم واستغفارهم .

كيف وقد أثنى الله عليه وسماه مخلصاً فَعَلِمَ بالقطع أنه ثبت في ذلك المقام الدَّخْصُ ، وأنه جاهد نفسه مجاهدة أولى القوة والعزم ، ناظراً في دليل التحريم ووجه القبح ، حتى استحق من الله الثناء فيما أنزل من كتب الأولين ، ثم في القرآن الذى هو حجة على سائر كتبه ومصادق لها .

وقد استوفى القرآن الكريم قصته ، وضرب سورة كاملة عليها ، ليجعل له لسان صدق فى الآخرين ، كما جعله لجدّه الخليل إبراهيم عليه السلام ، وليقتدى به الصالحون فى العفة وطيب الإزار ، والتثبت فى مواقف العثار . فأخزى الله أولئك فى إرادهم ما يؤدى إلى أن يكون إنزال الله السورة ليقتدى بنبي من أنبياء الله فى القعود بين شعب الزانية ، وفى حل تَكَنُّته للوقوع عليها ، وفى أن ينهأ ربه ثلاث كَرَّات ، ويصاح به من عنده ثلاث صيحات ، بقوارع القرآن ، وبالتوبيخ العظيم ، وبالوعيد الشديد ، وبالتشبيه بالطائر الذى سقط ريشه حين سفد غير أشاه ، وهو جاثم فى مَرَبَضِهِ لا ينتهى ولا ينتبه حتى يتداركه الله بمحبريل ويأجباره .

ولو أن أوقع الزناة ، وأحدقهم حدقة ، وأجلحهم وجهاً ، لُتِيَ بأذى مالتى به نبي الله مما ذكروا لما بقى له عرق ينبض ، ولا عضو يتحرك .
فيا له من مذهب ما أخشه ومن ضلال ما أئينه ^(١) .

كذلك استقبح ما ذكروه عن تعلق داود عليه السلام بامرأة ، وذكر أن

على بن أبي طالب قال : من حدثكم بحديث داود على ما يرويه القصاص جلده
مئة وستين جلدة ، وهو حد الفرية على الأنبياء .^(١)

وعلق على ما يروى في الحديث : « ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسّه
حين يولد ، فيستهل صارخا من مس الشيطان إياه ، إلا مريم وابنها » فقال : الله
أعلم بصحته ، وإن صح فعناه أن كل مولود يطمع الشيطان في إغوائه ، إلا مريم
وابنها كآنا معصومين ، وكذلك كل من كان في صفتهما ، لقوله تعالى : « ولأغوينهم
أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين »^(٢) .

وأما حقيقة المس والنخس كما يتوهم أهل الحشو فكلّا ، ولوسلط إبليس
على الناس بنخسهم لامتلات الدنيا صراخا وعياطا مما ييلونا من نخسه^(٣) .

٤ — على أنه لم يسلم من أغلاط كان المفروض الا يقع فيها كما وقع غيره ،
وذلك أنه ذكر بعض الإسرائيليات بعد أن قدم لها أو عقب عليها بطلانها ،
ولكنه ذكر بعضها بغير أن يبدى رأيه فيها ، وكان المرجو منه أن يهملها
إهمالا ، أو يذكرها على أنها من الأساطير .

قال في تفسير الآية الكريمة : « حتى إذ بلغ مطلع الشمس وجدها تطلّع
عند قوم لم يجعل لهم من دونهما شيئا »^(٤) : إن بعضهم قال : خرجت حتى
جاوزت الصين ، فسألت عن هؤلاء ، فقليل إن بينك وبينهم مسيرة يوم وليلة ،
فيلتمهم فإذا أحدهم بفرش أذنه ويلبس الأخرى ، ومعنى صاحب يعرف لساهم ،
فقالوا له : جئتنا ننظر كيف تطلع الشمس ؟ فبينما نحن كذلك إذ سمعنا كهيئة
الصلصلة ، فمئشى على ، ثم أقفت وهم يمسحوننى بالدهن ، فلما طلعت الشمس
على الماء إذا هي فوقه كهيئة الزيت ، فأدخلونا مرباهم ، فلما ارتفع النهار خرجوا

(١) الكشف ٢١٩/٢ (٢) سورة الحجر ٣٩ — ٤٠
(٣) الكشف ١٤٢/١ (٤) سورة الكهف ٩٠

إلى البحر يصطادون السمك ، ويطرحونه في الشمس فينضج لهم ^(١) .

وعند تفسير قوله تعالى : « وقال فرعونُ يا أيها الملأُ ما علمتُ لكم من إله غيري ، فأوقد لي يا هامان على الطين ، فاجعل لي صَرْحًا لعلِّي أطلِع إلى إله موسى » ^(٢) .

ذكر أنه لما أمر ببناء الصرح جمع هامان المال ، حتى اجتمع خسون ألف بَنَاء سوى الأتباع والأجراء ، وأمر بطبخ الآجر والجص ونجر الخشب وضرب المسامير ، فشيدوه حتى بلغ ما لم يبلغه بنيان أحد من الخلق ... فبعث الله جبريل عند غروب الشمس ، فضربة بجناحه ، فقطعه ثلاث قطع ، وقعت قطعة على عسكر فرعون ، فقتلت ألف ألف رجل ...

ويروى في هذه القصة أن فرعون ارتقى فوقه فرمى بنشابه إلى السماء ، فأراد الله أن يفتنهم ، فردت إليه ملطوخة بالدم ، فقال : قد قتلت إله موسى ، فعندها بعث الله جبريل لهدمه ، والله أعلم بصحته ^(٣) .

وفي تفسير قوله تعالى : « أو كَصَيِّبٍ من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق » ^(٤) قال إن السحاب من السماء ينحدر ، ومنها يأخذ ماءه ، لا كزعم من يزعم أنه يأخذه من البحر ، ويؤيدة قوله تعالى : « ويُنزِّلُ من السماء من جبال فيها من بَرَدٍ » ^(٥) .

وذكر عند تفسير قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض » ^(٦) أن

(١) الكشاف ١/٢٧٧ (٢) سورة القصص ٣٨

(٣) الكشاف ٢/١٦٣

(٤) سورة البقرة ١٩

(٥) سورة النور ٤٣ والكشاف ١/٣٣

(٦) سورة الحجرات ٢

العباس بن عبد المطلب كان أجهر الناس صوتا ، ويروى أن غارة أتهم يوما
فصاح العباس : يا صباحاه ، فأسقطت الحوامل لشدة صوته .

وزعمت الرواة أن أبا عروة كان يزجر السباع عن الغنم ، فيفتق مرارة السبع
في جوفه^(١) .

وكلمة يروى في الأخبار عن العباس ، وكلمة زعمت الرواة في الإخبار عن
أبي عروة ، لا تعنيان إلزخشرى ، لأن هذا من الأساطير التي كان من واجبه
أن يهملها ، إذ أنها من الاستطراد الذي لا علاقه له بتفسير الآية ، أو يعقب
عليها بنفيها .

(١) الكشف ٢/٣٩٠

قيمة الكشف وأثره

من هذه الجولة في رحاب الكشف يتبين أنه موسوعة في التفسير حافلة بموضوعات كثيرة في الاعتزال واللغة والنحو والبلاغة والأدب والفقه والقراءات، وما يتصل بها من تعليل وتدليل وتمحيص .

ويبدو أن الزمخشري أعجب بتفسيره بعد إكماله، كما كان معجباً بأوائله التي أملاها على بعض المعتزلة ، فافتخر بقوله ^(١) :

وناهيك بالكشاف كنزاً نضارُهُ يعلم تمييزَ الجيادِ الصيارفا
وتخفق أوراق المصاحف هزةً لهن معانٍ يزدهين المصاحفا
فما في بلاد الشرق والغرب ناقد يقلبها دهرًا فيخرج زائفا
وكرر ثناءه على الكشاف في قوله ^(٢) :

إن التفاسير في الدنيا بلا عدد وليس فيها لعمري مثل كشاف
إن كنت تبغى الهدى فالزم قراءته فالجهل كالداء والكشاف كالشاف
ولقد كان للكشاف دوىٌ منذ ألفه صاحبه، ظهرت أصداؤه في الثناء عليه آناً، كما ظهرت في العناية به اختصاراً وتعليقاً وردوداً .

فن الذين أثنوا عليه ابن خلدون ، إذ قسم كتب التفسير قسمين : نقلي مسند إلى الآثار المنقولة عن السلف ، وصنف آخر معتمد على اللغة والإعراب والبلاغة .

ثم قال : ومن أحسن ما شتم عليه هذا الفن من التفاسير كتاب الكشف
للزنجشري من أهل خوارزم العراق ، إلا أن مؤلفه من أهل الاعتزال في العقائد ،
فيأتي بالحجاج على مذاهبهم الفاسدة ، حيث تغرض له في آي القرآن الكريم
من طرق البلاغة ، فصار بذلك للمحققين من أهل السنة انحراف عنه ، وتحذير
للجمهور من مكانه ، مع إقرارهم برسوخ قدمه فيما يتعلق باللسان والبلاغة .
وإذا كان الناظر فيه واقفاً مع ذلك على المذاهب السنية ، محسناً للحجاج
عنها ، فلا جرم أنه مأمون من غوائله ، فلتفتن مطالعته لغرابة فنونه في اللسان^(١) .
وعرض له مرة أخرى فأتى عليه ، لتفوقه على غيره بالكشف عن الأسرار
البلاغية ، ثم عقب بقوله : لولا أنه يؤيد عقائد أهل البدع عند اقتباسها من القرآن
بوجوه البلاغة ، ولأجل هذا يتحاماه كثير من أهل السنة ، مع وفور بضاعته من
البلاغة .

فمن أحكم عقائد السنة ، وشارك في هذا الفن بعض المشاركة حتى يقتدر على
الرد عليه من جنس كلامه ، أو يعلم أنه بدعة فيعرض عنها ولا تضر معتقده ،
فإنه يتعين عليه النظر في هذا الكتاب ، للظفر بشيء من الإعجاز مع السلامة من
البدع والأهواء^(٢) .

ومنهم يحيى بن حمزة العلوي ، فقد ذكر في مقدمة كتابه [الطراز] أن
الباعث على تأليف كتابه هو أن جماعة من إخوانه قرأوا تفسير الشيخ العالم
الحقق أستاذ المفسرين محمود بن صهر الزنجشري ، الممتاز بأنه مؤسس على قواعد
علم المعاني والبيان ، وتحققوا أنه لا سبيل إلى الاطلاع على حقائق إعجاز القرآن
إلا بإدراكه ، والوقوف على أسرار وأغواره ، ومن أجل هذا الوجه كان متميزاً
عن سائر التفاسير ، لأنني لم أعلم تفسيراً مؤسساً على المعاني والبيان سواه ، فسألني
بعضهم أن أملئ فيه كتاباً يشتمل على التهذيب والتحقيق ، فالتهديب يرجع إلى

اللفظ ، والتحقيق إلى المعاني ، إذ كان لامندوحة لأحدهما عن الثاني^(١) .
ومن اختصروه البيضاوى بعد أن جرده من الاعتزال ، وقرر آراء أهل
السنة ، ثم جاء النسفى فاختصر الكشاف وتفسير البيضاوى .

أما المعقبون عليه فكثير ، منهم أحمد بن محمد بن منصور الجذامى الإسكندرى
المالكي قاضى الإسكندرية المشهور بأبى العباس ابن المنير ، كان إماما فى النحو
والأدب والأصول والتفسير ، وله يد طويلة فى علم البيان والإنشاء ، خطب بالإسكندرية
ودرس فيها وناب فى الحكم بها ، ثم اشتغل بالقضاء . توفى سنة ٦٨٣ هـ
(١٢٨٤ م) وله مصنفات منها الانتصاف من صاحب الكشاف^(٢) ، ناقش فيه
الزنجشى ، وعارضه ، ونصر مذهب أهل السنة على مذهب المعتزلة ، بدليل قوله :
الحمد لله الذى أهل عبده الفقير إلى التورث عليه ، لأن آخذ من أهل البدعة بثأر
أهل السنة ، فأصمى أفئدتهم من قواطع البراهين بمقدمات الأئمة^(٣) .

ولكنه مع ذلك اعترف بفضل الزنجشى فى الكشف عن وجوه إعجاز
القرآن البلاغية التى تؤكد أنه كلام الله سبحانه^(٤) .

ومنهم شرف الدين الحسن بن محمد الطيبى ٧٤٣ هـ (١٣٦١ م) فى كتابه
(فتوح الغيب فى الكشف عن قناع الريب) وقد ذكره ابن خلدون فى قوله :
لقد وصل إلينا فى هذه العصور تأليفه الذى شرح فيه كتاب الزنجشى ،
وتتبع ألفاظه ، وتعرض لمذاهبه فى الاعتزال بأدلة تزيفها ، وتبين أن البلاغة
إنما تقع فى الآية على ما يراه أهل السنة لاعلى ما يراه المعتزلة ، فأحسن فى ذلك
ما شاء ، مع إمتاعه فى سائر فنون البلاغة ، وفوق كل ذى علم عليم^(٥) .

وهناك كثير غير هؤلاء^(٦) .

(١) الطراز للملوى ١/٥ (٢) بنية الوعاة ١٦٨ . (٣) هامش الكشاف ٢٩٩/١

(٤) هامش الكشاف ٥٧٢/١ (٥) مقدمة ابن خلدون ٩٩٩

(٦) كشف الظنون ٢/٣٠٩ — ٣١٦

الفصل السابع في بحر اللغة

تفوق الزمخشري في اللغة كما تفوق في التفسير ، وقد تجلت عناية باللغة وحقائقها ومجازاتها ونصوصها ونحوها في تفسيره الكشف .
ولكن له جهودا عظيمة أخرى في اللغة العربية تبين من مؤلفاته فيها ،
حسبنا أن نذكر منها ما يأتي :

(١)

أساس البلاغة

كان الخليل بن أحمد (١٨٠هـ) أول من دون معجرا لغويا سماه كتاب العين ،
جمع فيه كثيرا من ألفاظ اللغة ، ورتبها حسب مخارجها من الحلق فاللسان
فالأسنان فالشففتين ، ووضع أحرف العلة في آخر الكتاب ، وقد سمي كتابه
العين ، لأنه بدأه بحرف العين .

ثم سار كثير من مؤلفي المعاجم على طريقة الخليل ، كما نجد في البارع لأبي
على القالي ^(١) (٣٥٦هـ) وفي تهذيب اللغة للأزهري (٣٧٠هـ) وفي المحكم
لابن سيده (٤٥٨هـ) .

ولكن بعض اللغويين اتجهوا اتجاهين آخرين في ترتيب المعاجم ، فألف
الجهوري (٣٩٨هـ) « تاج اللغة وصحاح العربية » مراعى في ترتيب ألفاظه
أواخر الكلمات ، كما فعل ابن منظور والفيروزابادي فيما بعد .

ورتب أحمد بن فارس (٣٩٠هـ) كتابه المجمل في اللغة ، على أساس الحرف الأول
والثاني والثالث ، غير أنه التزم في ترتيبه الهجائي ما بعد الحرف الأول من حروف

الهجاء إلى أن يبلغ الياء ، ثم يعود فيذكر ما بعده من الهمزة إلى ذلك الحرف .
فمثلا عقد فصلا للراء ، ولكنه لم يذكر الراء مع الهمزة ثم مع الباء ثم مع التاء
وهكذا ، بل ذكر الراء مع الزاى ، ومع السين ، ومع الشين ، ومع الصاد
إلى الياء ، ثم عاد فذكر الراء مع الهمزة وما بعدها إلى الزاى .

طريقته

١ — ثم جاء الزحشرى ، فآلف كتابه أساس البلاغة على نهج هجائى
أرق وأسهل من نهج ابن فارس ، إذ التزم الحرف الأول وما يليه من حروف
الهجاء ، فعقد بابا للهمزة ، فرع منه الهمزة مع الباء (أب ، أبر ، أبس ، أبش ،
أبص ، أبط وهكذا إلى أبى) وفرع منه الهمزة مع التاء (أتب ، أتم ، أتى)
وفرع منه الهمزة مع الناء (أئر ، أف ، أئل أئم الخ) وفرع الهمزة مع الجيم
(أجد ، أجد ، أجر الخ) وفرع الهمزة مع الحاء ومع الخاء ومع الدال وهكذا ؛
وسار على هذا النهج فى كل حرف .

ولا شك أن هذا الترتيب الدقيق السهل جدير بقوله فى المقدمة : « وقد
رتب الكتاب على أشهر ترتيب متداول ، وأسهله متناولا ، يهجم فيه الطالب
على طلبته موضوعة على طرف الثمام وحبل الذراع ، من غير أن يحتاج فى التنقير
عنها إلى الإيجاف والإيضاع ، وإلى النظر فيما لا يوصل إلا بإعمال الفكر إليه ،
وفى دقق النظر فيه الخليل وسيبويه » .

٢ — شرح المعانى الحقيقية للكلمات ، وأضاف إلى هذه المعانى الاستعمالات
الحجازية ، فقال مثلا فى مادة ثقب : ثَقَّبَ الشئُ بالثقب ، وثَقَّبَ اللآلِ الدر ،
ودر مُثَقَّب ، وعنده دُرٌّ عذارى لم يثقبن ، وثَقَبَنَ البراقع لعيونهن

ومن المجاز: كوكب ثاقب ودرى: شديد الإضاءة والتلألؤ، كأنه يَنْقُبُ الظلمة فينفذ فيها ويدروها، وقد نَقَّبَ ثقبوا، وكذلك السراج والنار، وثقبتها وأنقبتها، وأنقب نارك بثقوب، وهو ما تنقب به من حراق وبمر ونحوها. ورجل ثقيب وامرأة ثقيبة: مشبهان للهب النار في شدة حرتهما، وفيها ثقابة، وحسب ثاقب: شهير، ورجل ثاقب رأى إذا كان جزلا نظارا، وأتتى عنك عين ثاقبة أى خبر يقين، وثَقَبَ الطائر إذا حلق كأنه يثقب السكاك (الجو) وثقب الشيب في اللحية أخذ في نواحيها.

وقال في مادة حلف: حلف بالله على كذا حلفا، وهو حَلَّافٌ وحَلَّافَةٌ، وحلف حَلْفَةً فاجر، وأخْلُوفَةٌ كاذبة، وحالفه على كذا، وتحالفوا عليه واختلفوا، وحَلَفَ خصمه وأحلفه، واستحلفه القاضى.

ومن المجاز: بينهم حلف أى عهد، وهم حلفاء بنى فلان وأحلافهم، وهذا حليفى، وهو حليف الندى وحليف السهر، وفلان محالف لفلان لازم له؛ ولسان حليف، ورجل حليف اللسان يوافق صاحبه على ما يريد لحدته كأنه حليفه ... الخ.

وقال في مادة كبد: هو يأكل كبود الدجاج وأكبادها؛ وكبدته: أصبت كبده؛ وكبد فلان فهو مكبود، ورجل أكبد؛ وأصابه الكباد.

ومن المجاز: بلغ كبد السماء وكبداء السماء، وتكبدت الشمس توسطت السماء، وتكبدت الفلاة: توسطتها، وتكبد اللبن: خثر، وفرس وجل أكبد: واسع الجوف ناهد موضع الكبد، وهو يبحث عن كبد الأرض وأكبادها: وهى معادنها، ورمت إليه الأرض بأفلاذ كبدها: بكنوزها وذخائرها، ووقع فى كبد: فى مشقة، وتقول للخصماء إنهم لنى كبد من أمرهم، وبعضهم يكابد بعضا، والمسافر يكابد الليل إذا ركب هوله وصعوبته.

وقد يتعمق فيذكر مجاز الجاز ، كقوله في مادة نطح : تناطحت الكباش وانتطحت ، ومن المجاز : تناطحت الأمواج والسيول ، وأصابه ناطح : أمر شديد ، وتطير من النطيح والمناطق : وهو المستقبل مما يُزجر . ومن مجاز الجاز : رجل نطيح : مشنوم .

وقوله في مادة نطع : على بالسيف والنطع ، ومن المجاز : تنطع في كلامه إذا تفصح فيه وتعمق ، ومن مجاز المجاز تنطع الصانع : تحذق في صناعته .

٣ — ذكر تصاريफ الكلمات ومشتقاتها وجموعها ومزيداتها ومعاني كل منها ، مرتبا بعضها على بعض ، ومتدرجا بعضها وراء بعض ، وسلكها في عبارات عدة تفصح عن معانيها ، وتميز مجازاتها من حقائقها ، سواء أكانت هذه العبارات شعرا أم نثرا ، قديمة أم محدثة ، وسواء أكانت من عصر الاحتجاج - من الجاهلية إلى القرن الثالث - أم مما بعده ، لأنه أراد أن يبين دلالات الكلمة في نصوص بليغة ، وليس يعنيه أن تكون هذه النصوص قديمة أم حديثة .

على أنه في كثير من الأحيان لم يقتصر على نصوص من كلام غيره ، بل أدار الكلمات في عبارات من عنده ، لأنه طبق ما قاله في المقدمة : « ومن خصائص هذا الكتاب تخير ما وقع في عبارات المبدعين ، وانطوى تحت استعمال المفلّحين ، أو ما جاز وقوعه فيها وانطواؤه تحتها ، من التراكيب التي تملح وتحسن ، ولا تنقبض عنها الألسن » .

وقد تكون عباراته من أحد كتبه الأدبية التي ألفها قبل الأساس .

وهذه أمثلة من أساس البلاغة على غير عمد :

قال في مادة حصد : حَصَدَ الزرع : جَزَّه فهو حصيد ، وجمعه حصائد ، وهذا زمان الحصاد : «وَأَتَوْا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ» ^(١) .

ومن الحجاز : حَصَدَم بالسيف : قتلهم ، «وَهَلْ يُكِبُّ النَّاسُ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ فِي النَّارِ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ» ^(٢) .

وقال في مادة (بلو) بُلِيَ فلانٌ : أصابته بلية ، قال :
بُليْتُ وفقدانُ الحبيبِ بليَّةٌ وكم من كريمٍ يُبتلى ثم يصبرُ
ومنه قولهم : لا أباليه أى لا أخبره لقلة اكترأى له ، وهو أفصح من لا أبالي به ، قال زهير :

لقد باليت مَظَنَ أم أوفى ولكن أم أوفى لا تُبالي
وقولهم : أبليته عذراً إذا بينت له بياناً لا لوم عليك بعده ، حقيقته جعلته بالياً لعذري ، أى خابراً له علماً بكنهه ، وكذلك أبليته يميناً ، قال جرير :
فأُبلى أميرَ المؤمنين أمانةً وأبلاه صدقاً في الأمور الشدائد
وابتليت الأمر : تعرفته ، قال :
تسائل أسماءَ الرِّفاقِ وتُبَتلى ومن دون ما يهتوين بابٌ وحاجبٌ
يريد أنه محبوس .

ومن الحجاز : بلوت الشيء شمتته ، قال يصف الماء الآجن القديم :
بأَصْفَرَ وَرْدٍ آلَ حَتَّى كَانَا يَسُوفُ بِهِ الْبَالَى عُصَاةُ خَرْدَلٍ
وقال في مادة رqn : رَقَنَ الكتاب : كتبه كتابة حسنة ، والترقيف الترقيش ، قال رؤبة :

دار كخط الكاتب المُرَقَّن

وفي نوايغ الكلم : العلم درس وتلقين ، لا طُرُسٌ وتلقين ^(٢) .
وقال في مادة رنح : رنح فلان وترنح إذا دبر به وتمایل كالسكران ، ورَنَحَ
الشراب ، قال :

وكأسٍ شربتُ على لذةٍ دِهاقٍ تُرَنِّحُ مَنْ ذاقها
ومن المجاز : رَنَحَتِ الریح الغضا فترنح ، ولقد ترنح على فلان إذا مال
عليك بالتناول والترقع ، قال أبو الفرب البصری :
تَرَنِّحُ بالكلام على جَهْلًا كأنك ماجدٌ من آل بَدْرِ

ويقول في مادة شب : شَبَّتِ النار : رفعتها ، وشبَّ الصبي شابًا ، وقوم
شبان وشباب وشَبَبَة ، وتقول : كان عصر شبابي أحلى من العسل الشَّبَابي ،
منسوب إلى بني شَبَابَة من أهل الطائف ، وتقول المرء في شبابه كالمهر في
شبابه .

ومن المجاز والكنایة . شُبَّتْ الحرب بينهم ، وسمعت من يُحَيِّي النار
وهو يقول :

تَشَبَّيْ تَشَبَّبَ النَّيْمَةُ تسعى بها زَهْرًا إلى تيمه

وهو كقولهم : أوقد بالنميمة ناراً ، قال عمر بن أبی ربيعة :

ليس كالمهد إذ علمت ولكن أوقد الناس بالنميمة نارا
وشبَّ الخمار وجهها ، وهو شوبٌ لوجهها

وقال في مادة نقد : تقول النَّقْدَةُ إليهم كأنهم النَّقْدُ ، وقد عاث فيها الذئب الأعقد^(١) .

وقال في مادة مرى : ومن المجاز قَرَعَ مَرَوْتَه^(٢)

ونلاحظ أنه يذكر موضوع النص أحيانا كقوله في مادة : بضع .

قال أوس بن حجر في صفة القوس :

وَمَبْضُوعَةٍ مِنْ رَأْسِ قَرَعٍ شَطِئَةٍ بِطَوْدٍ تَرَاهُ فِي السَّحَابِ مَكَلًّا

وقوله في مادة خرج : قال زهير يصف الخيل :

وخرَّجها صوارخ كلَّ يوم فقد جمعت عرائكها تَلِينُ
أراد وأدبها كما يُخْرِجُ المتعلم .

وقال في مادة طفل : هو طفل بين الطفولة ، وامرأة وظبية مُطْفِلٌ ، وَطَفَلَتْ ولدها : رشحته ، قال الأخطل يصف سحابة :

إذا زعزعته الريحُ جردٌ ذيوله كما زحفتُ عودٌ يقالُ تُطْفَلُ

وقال في مادة نتخ : نَتَخْتُ الشوكة من رجلٍ بالمنتاخ ، بالنتقاش ، و نتخ البازي اللحمِ يَنْسَرِه ، وَنَتَخَ الْقَلَّاعُ الضرس : نزعه . قال زهير يصف غزوا :
تَنْبَذُ أَفْلَاهَا فِي كُلِّ مَنْزِلَةٍ تَنْتُخُ أَعْيُنُهَا الْعِقبَانُ وَالرَّخْمُ

وفي كثير من الأبيات لم يذكر القائل ، مكتفيا بكلمة قال ، وأغلب الظن أن القائل لم يكن معلوما له ولا لسابقه الذين نقل عنهم .

كقوله في مادة جرد : ومن المجاز : كيف حرثك أى امرأتك ، قال :

(١) هذه العبارة من مقامات الزمخشري ١٠٠ النقد : جنس من الفم قبيح .
الأبعد : المتوى

(٢) وردت في المقامات ٧٢

إذا أكل الجرادُ حُرُوثَ قَوْمٍ فَحَزَنِي مِنْهُ أَكْلُ الْجَرَادِ
وقوله في مادة دوح : وفلان يلبس الدّاح وهو الوُشْيُ والنقش ، قال :
يلابسَ الوُشْيَ على شَيْبِهِ ما أَقْبَحَ الدّاحَ على الشَّيْخِ
وقوله في مادة نفج : وكانوا يقولون : هنيئلك النافجة ، وهي البنت ، لأنه
كان يأخذ مهرها فينفج ماله أى يوسعه ويعظمه ، وأنشد الجاحظ :

وليس تلادى من ورانة والدى ولا شأنُ مالى مُسْتَفَادُ النَّوافِجِ
٤ — على أنه أغفل بعض المواد التي نجدّها في لسان العرب وفي القاموس
المحيط ، ولعله وجدها ليست من المواد الثرية بالمعاني والمشتقات ، فذكر مثلاً في
الجم مع الهاء : جهرثم جهش ، ولم يذكر جهز .

وذكر في الحاء مع القاف حقل ثم حقن ولم يذكر حقم .
وذكر في الراء مع التاء رتل وبعدها رتم ولم يذكر رتن ولا رثن .
وذكر في السين مع الواو سود وبعدها سور ، ولم يذكر سوخ :
وذكر في العين مع الكاف عكف وبعدها عكم ولم يذكر عكل .
وذكر في النون مع التاء نتأ وبعدها نتج ولم يذكر نتب .

قيمه وآثره

١ — هذا الكتاب معجم لغوى جمع المفردات ومعانيها الحقيقية والمجازية ،
وكثيراً من النصوص البليغة التي وردت فيها ، فلم تجمء المفردات جوامد
منقطعة عن الاستعمال ، بل جاءت في سياق من التركيب أضفى عليها حياة .

وقد كان الزمخشري يبتغى من تأليفه الكشف عن أسرار اللغة ، للوقوف
على وجوه الإعجاز ، وليس من المستطاع هذا الكشف إلا بتذوق معاني
المفردات في قولها ، ومعرفة حقائقها ومجازاتها كما قال في المقدمة .

٢ — وهو إلى هذا ينبوع يفضى اللسكة الأدبية ، ويزود الشداة بنفائس اللغة وآدابها ، وقد كان الزمخشري أديباً بصيراً بما ينهض بأساليب الأدباء الناشئين ، لأنه جرب هذا الطور من قبل ، ولهذا قال في المقدمة : فمن حصل هذه الخصائص ، وكان له حظ من الإعراب ... وأصاب ذرواً من علم المعاني ، وحظي برشٍّ من علم البيان ، وكانت له قبل ذلك قريحة صحيحة وسليقة سليمة ، فعُلَّ نثره ، وجزل شعره ولم يطل عليه أن يناهز القدمين ، وبخاطر المقرئين .

٣ — وقد سلك مؤلفو المعاجم بعد الزمخشري طريقتين ، فبعضهم حاكي الجوهري في ترتيبه كتابه الصحاح ، وبعضهم تأثر طريقة الزمخشري في الترتيب الهجائي الذي التزمه ، وكان أبرع فيه وأدق وأسهل .

أما الفريق الأول فيمثله ابن منظور (٦٣٠ — ٧١١ هـ) مؤلف لسان العرب ، والفيروزابادي (٧٢٩ — ٨١٧ هـ) مؤلف القاموس المحيط ، فإنهما عدلا عن الترتيب الهجائي إلى نظام الحرف الأخير من الكلمة الذي سار عليه الجوهري في الصحاح .

وربما كان سبب ذلك أنهما لم يرتضيا طريقة الزمخشري في ترتيب الكلمات ولا مسلكه في التفريق بين الحقيقة والمجاز ، ولا طريقتة في الاستشهاد بنصوص من البلغاء بعد عصر الاحتجاج ، وليس بمستبعد أن يضاف إلى هذين السببين سبب ثالث هو أن الزمخشري زعيم المعتزلة في عصره ، وابن منظور والفيروزابادي من أهل السنة ، وبين الفريقين ما بينهما من خصومة وعداء .

وأما الفريق الثاني فيمثله الفيومي (توفي سنة ٧٦٦ هـ) مؤلف المصباح المنير ، ثم اللجنة التي شكلتها وزارة المعارف المصرية برئاسة محمود خاطر بك فرتبت مختار الصحاح للرازي (توفي عام ٧٨٠ هـ) ، وبطرس البستاني مؤلف محيط المحيط ،

وسعيد الشرتوني مؤلف أقرب الموارد؟ وجمع اللغة العربية في المعجم الوسيط .

٤ — وما زال أساس البلاغة في صدارة معاجنا اللغوية . نستشير ، ونستنبط منه ، ونأنس إليه ونثق به ، لأن مؤلفه كما قال ابن حجر العسقلاني : « في غاية المعرفة بفنون البلاغة ، وتصرف الكلام ، وكتابه من أحسن الكتب ، وقد أجاد فيه ، وبين الحقيقة من المجاز في الألفاظ المستعملة إفراداً وتركيباً ^(١) » .

(٢)

المستقصى في أمثال العرب

منذ زمن مبكر عني كثير من اللغويين والأدباء بتدوين أمثال العرب ، مثل أبي عبيدة الأصمعي وأبي عبيد وأبي زيد والفضل بن محمد والفضل ابن سلة .

ثم جاء الزمخشري والميداني (٥١٨ هـ) فألفا كتابيهما في زمن واحد . أما كتاب الزمخشري فهو (المستقصى في أمثال العرب) فرغ من تأليفه سنة ٤٩٩ هـ .

وأما كتاب الميداني فهو (مجمع الأمثال) .

وقد رتب الزمخشري كتابه ترتيباً هجائياً ، كما صنع في أساس البلاغة ، فبدأ بالأمثال التي أولها همزة ، ثم باء وهكذا إلى الياء ، مراعيّاً في الترتيب الحرف الثاني وما بعده ، فذكر مثلاً في حرف السين مع الراء : سرق السارق فانتحر ، وبعده سراك من دمك ؛ فإذا اتفقت كلمتان في صدر المثل راعى ما بعدهما ، فذكر في حرف العين مع النون : عند الشدائد تذهب الأحقاد ، وبعده : عند النطاح يغلب الكبش الأجَم .

(١) لسان الميزان ٤/٦

ولكنه ذكر في باب الهمزة جميع الأمثال المبدوءة بهمزة ، سواء أكانت الهمزة أصلية ، مثل إنك لا تجنى من الشوك العنب ، أم همزة وصل مثل : أحمل العبد على فرس ، اختلط الحابل بالنابل ، أم كانت الكلمة مبدوءة بأل مثل الحمد مغنم ، والمذمة مغرم ، أم كانت الكلمة على وزن أفعل مثل : أحق من نعمة .
وقد شرح الزمخشري الأمثال ، وبيّن مواردها وأسبابها وملابساتها ؛ وذكر مضارب كثير مغها ، والأحوال التي يصح أن يقال فيها ، وأضاف إلى شرحه مسائل من اللغة والنحو ، واستشهد بنصوص شتى من شعر ونثر .

وفي كتاب الزمخشري ثلاثة آلاف مثل وأربع مئة وواحد وستون .
أما الميداني فقد رتب كتابه طبقاً لأصول الكلمات ، فذكر في باب الهمزة الأمثال المبدوءة بهمزة قطع مثل : إن من البيان لسحراً ، ولم يذكر ما أوله أل ولا همزة وصل ، ثم ذكر ما جاء على وزن أفعل من هذا الباب مثل : آكل من حوت ، ثم سرد أمثال المولدين ، وهكذا صنع في بقية الحروف ، فذكر في باب الباء الأمثال المبدوءة بباء ، مثل بلغ السيل الزبى ، ثم ما جاء على وزن أفعل مثل : أبلغ من قس . ثم أمثال المولدين ، ولكنه لم يلتزم الترتيب طبقاً لما بعد الحرف الأول من المثل فنجد أنه يذكر مثلاً فيما أوله تاء : ترك الظبي ظله ، ثم يذكر تجوع الحرة ولا تأكل بثديها ، ثم يذكر تحسبها حمقاء وهي باخس ، ويذكر في باب القاف : قطعت جهيزة قول كل خطيب ، ثم يذكر قبل البكاء كان وجهك عابسا ، ثم يذكر قد استنوق الجمل وهكذا .

وبأمثال لميداني ستة آلاف مثل كما ذكر في مقدمته ، ويظهر أنه لم يراع أن كثيراً منها مكرر .

وفرق آخر بين العالمين ، هو أن الميداني ذكر في مقدمة كتابه عشرات من الكتب التي نقل منها ، على حين أن الزمخشري لم يذكر مصادره التي اعتمد عليها .

وقد كان الزمخشري أسبق إلى تأليف كتابه ، لأنهم يذكرون أنه لما اطلع على كتاب الميداني ندم على أنه ألف المستقصى .

ويذكرون قصة أخرى ، أغلب الظن أنها من وضع للتفككين أو العابثين ، لأنها لا تلائم أخلاق الزمخشري التي عرفناها ، فيقولون^(١) إن الزمخشري لما وقف على كتاب الميداني أخذ القلم ، وزاد نونا على كلمة الميداني ، فصارت التبيداني ، ومعناها بالفارسية الذي لا يعلم شيئا ، فلما علم الميداني بذلك أخذ بعض مؤلفات الزمخشري فصير الميم نونا ، ومعنى الكلمة بالفارسية بائع زوجته .

نماذج منه

١ — إذا ضربت فأوجع ، وإذا نَعَرْتُ فأسمع .

يضرب في إلتقان الأمر والتشديد فيه^(٢)

وفي مجمع الأمثال: من أمثال المولدين: إذا ضربت فأوجع، فإن الملامة واحدة ،

يصرّب في الحث على المبالغة^(٣)

٢ — أشأم من أحمر عاد

هو قُدار بن قُدَيْرَة ، وهى أمه ، وأبوه سالف ، عقر ناقة صالح فهلكت بفعله ثمود . قال زهير :

فَتُنْتِجَ لَكُمْ غِلْمَانُ أَشْأَمُ كُلِّهِمْ كَأَحْمَرِ عَادٍ ثُمَّ تَرْضَعُ فَتَقْطِعُ^(٤)

وفي مجمع الأمثال بعد ذكر المثل أنه قدار بن سالف ويقال له ابن قديرة

وهى أمه ، عقر ناقة صالح عليه السلام فأهلك الله بفعله ثمود^(٥)

(١) معجم الأدباء ٤٧/٥ وإنباء الرواة ١٢١/١ وبنية الوعاة ١٥٥

(٢) المستقصى ١٢٥/١ (٣) معجم الأمثال ٨/١

(٤) المستقصى ١٧٦/١ (٥) معجم الأمثال ٢٥٦/١

٣ — أفرس من عامر بن الطفيل

هو ابن أخى عامر سلاعب الأسنة ، أفرس أهل زمانه وأسودم ، وكان له مناد ينادى بمكاظ : هل من راجل فأحمله ، أو جائع فأطعمه ، أو خائف فأؤمنه ؟ ووقف جبار بن سلمى على قبره فقال : أنعم ظلما أبا على ، فوالله لقد كنت تشن الفارة ، وتحشى الجارة ، سريما إلى المولى بوعدك ، بطيئا عنه بوعيدك ، وكنت لاتنزل حتى يضل النجم ، ولاتهاب حتى يهاب السيل ، ولا تمطش حتى يعطش البعير ، وكنت والله خير ما تكون حين لاتظن نفس بنفس خيرا . ثم التفت فقال : هلا جعلتم قبر أبى على ميلا في ميل ^(١) ..

وفي مجمع الأمثال هذا نفسه ^(٢)

٤ — أنجز خرم ما وعد

نجز الوعد إذا نفذ ، وأنجزته ، قاله الحارث بن عمرو بن حُجر الكندى لصخر بن نهشل ، وكان له مربع بنى حنظلة ، فجعل للحارث الخمس منه إن دله على غنيمة ، ففعل ، ووفى هو بوعد . يضرب في استنجاز المواعيد ^(٣) .

وفي مجمع الأمثال هذا وزيادة عليه ^(٤)

٥ — أنقى من مرآة الغريبة

هى المرأة الناكح فى غير عشيرتها ^(٥)

وفي مجمع الأمثال : يعنون التى تزوج من غير قومها ، فهى تجلو مرآتها أبدا ، لتلا يحنى عليها من وجهها شئ . قال ذو الرمة :

(١) السنقى ٢٦٩/١ (٢) مجمع الأمثال ٢٢/٢

(٣) السنقى ٣٨٤/١ (٤) مجمع الأمثال ١٩٣/٢

(٥) السنقى ٣٩٨/١

لها أذن حَشَرٌ وذَفْرَى أسيلة وخذ كمرآة الغريبة أسجح^(١)

٦- إنَّ من البيان لسحرا

سأل النبي صلى الله عليه وسلم عمرو بن الأهتم عن الزبرقان ، قال كيف هو فيكم ؟ فقال : شديد العارضة ، مطاع في العشرة ، مانع لما وراءه . فقال الزبرقان : والله إنه ليعلم أنى أفضل مما قال ، ولكنه حسدنى . فقال ابن الأهتم : والله ما علمت (إلا) أنه زمر المروءة ، ضيق العطن ، أحق الأب ، لثيم الخال ، أما والله ما كذبت في الأولى ، ولقد صدقت في الأخرى ، ولكن رضىت فقلت برضى ، ثم أسخطنى فقلت بسخطى . فقال عليه السلام ذلك . يضرب في الثناء على البليغ^(٢) .

وفي مجمع الأمثال هذا المثل وشرحه بغير خلاف يذكر^(٣) .

٧ ضرب أخماساً لأسداس

أى اعتمد وتعاطى أخماساً لأجل أسداس ، وهو جمع خمس وسيدس من أطماء الإبل . وأصله أن الرجل حتى إذا أراد سفراً بعيداً عود إليه الصبر على العطش ، فأخذ يترقى بها مدرجاً في الإطماء ، إذا فَوَّزَ بها - دخل الصحراء - صبرت ، فهو حين يسقيها أخماساً ثم يتجاوزها وينقلها إلى الأسداس عقيبها على سبيل التدريب لها إنما يتعاطى سقيها أخماساً لأجل سقيها أسداساً ، قال الكميت :
وذلك ضَرْبُ أخماسٍ أريدَتْ لأسداسٍ عَسَى ألا يكونا
وقال أيضاً :

أَلَسْمَ أَيْقِظُ الْأَقْوَامَ أَفْسَدَةً وَأَضْرِبُ نَاسَ اخْمَاساً لِأَعْشَارَ

(١) مجمع الأمثال ٢/٢٠٧ حشر : لطيفة يستعمل للواحد والثنى والجمع . ذفرى : المراد

المنق .

(٢) المستقصى ١/٤١٤ (٣) مجمع الأمثال ١/١٠

وقال :

يضرب للمكار الذى يريد أمرا ويظهر غيره ^(١)

وقد شرح الميدانى المثل هذا الشرح ، وذكر شعرا آخر غير النصوص الثلاثة التى ذكرها الزمخشري ^(٢) .

٨ — قطعت جَهِيْزَةً قول كل خطيب .

بينما قوم يخطبون فى صلح بين حيين — قتل أحدهما من الحى الآخر رجلا
ويسألون الرضا بالدية — جاءت أمةٌ اسمها جهيزة فقالت : إن القاتل ظفربه
بعض أولياء المقتول فقتله ، ف قيل ذلك .

يضرب لأمر قد فات وأيس من صلاحه .

وقيل هى جهيزة التى يضرب بها المثل فى الحق ، وإنه مثل فيمن يقطع
على الناس ما هم فيه بحماقة يأتى بها ^(٣)

وفى مجمع الأمثال هذا الشرح نفسه ^(٤) .

٩ — كالثور يُضْرَبُ لما عافت البقر

كانوا إذا عافت البقر الورود ضربوا الثور زاعمين أن الجن ركبت ، وأنها
تزع البقر عن المشرب ، فينفرونها بإلقاء الضرب على الثور .

وقيل إنما يضرب لأنه قائد البقر وسائقها .

وقيل الثور: العَرْمَضُ أى الطحلب ، يضرب فيذهب فى نواحي الورود
الماء — ثم تشرب حينئذ ، وإذا كان على وجه الماء عافته .

يضرب للمأخوذ بذنب غيره ، قال أنس بن مدركة الخثعمي :

(١) المستقصى ١٤٥/٢ (٢) مجمع الأمثال ١/٢٨٣

(٣) المستقصى ١٩٧/٢ (٤) مجمع الأمثال ٢/٢٥٠

إِنِّي وَقَتْلِي سَلَيْكَا نِمَّ أَعْقَلَهُ كَالثَّوْرِ يُضْرَبُ لِمَا عَافَتِ الْبَقْرُ
وقال : (١).

ويشبه هذا ما ذكره الميداني (٢)

(٣)

الفاائق في غريب الحديث

كان جمع الأحاديث التي بها كلمات غريبة وترتيبها وشرح غريبها مناطق
كثير من علماء اللغة والحديث، فتوالت مؤلفاتهم حتى لم تكندع زيادة لمستزيد.
وقد ذكر ابن الأثير في مقدمة كتابه (النهاية في غريب الحديث والأثر)
موجزاً لتطور التأليف في غريب الحديث، منها أن أباعبيدة مَعْمَر بن المنثي التيمي
أول من جمع من ألفاظ غريب الحديث والأثر كتيباً معدود الأوراق. ثم صنع
مثل صنيعه أبو الحسن النضر بن شُمَيْل اللّازني وعبد الملك بن قريب الأصمعي
ومحمد بن المستنير المعروف بقَطْرُب.

ثم ألف أبو عُبَيْد القاسم بن سَلَام كتابه المشهور في غريب الأحاديث
والآثار، فكان المرجع إلى زمن ابن قتيبة الدينوري، إذ ألف كتاباً على نهج
كتاب أبي عُبَيْد، أكثره لم يذكره أبو عبيد.

وتتابعت المؤلفات في هذا الفن، إلى أن صنف أبو عُبَيْد أحمد بن محمد المَرْوِي
كتاباً جمع فيه ما بين غريب القرآن والحديث، ورتبه وفق حروف المعجم على
وضع لم يسبق في غريب القرآن والحديث، وفسر الكلمات اللغوية، وجمع فيه
ما ذكره سابقوه، ولهذا صار المؤلفون من بعده يتبعون أثره، ويستدركون
ما فاتته، إلى أن جاء الزنجشري فصنف كتابه سنة ٥١٦ هـ، وسماه الفاائق

«ولقد صادف هذا الاسم مُسَمًى ، وكشف عن غريب الحديث كل مُعَمًى ، ورتبه على وضع اختاره مُقَمًى على حروف المعجم ، ولكن في العشور على طلب الحديث منه كلفة ومشقة ، وإن كانت دون غيره من متقدم الكتب ، لأنه جمع في التقية بين إيراد الحديث مسرودا جميعه أو أكثره أو أقله ، ثم شرح ما فيه من غريب ، فجاء شرح كل كلمة غريبة يشتمل عليها ذلك الحديث في حرف واحد من حروف المعجم ، فترد الكلمة في غير حرفها^(١) ، وإذا تطلبها الإنسان تعب حتى يجدها ، فكان كتاب المروى أقرب متناولا ، وأسهل أخذا ، وإن كانت كلماته متفرقة في حروفها ، وكان النفع به أتم ، والفائدة أعم^(٢) .

طريقته

١ — رتب الكلمات الغريبة من الأحاديث والآثار على حروف المعجم ، مراعىا الحرف الأول والثانى ، فيذكر مثلا في الهمزة مع اللام ألب ثم ألت ، ثم ألف ، ويذكر في الحاء مع الكاف حلك ثم حكمة .

ولكنه لم يراع الحرف الثالث ، ففي التاء مع القاف يذكر ثقل ثم ثقب ، وفي الجيم مع الدال يذكر الجدم ثم جدف ، ثم جدد ، ثم جلد ، وفي الخاء مع اللام يذكر خلف ثم خلج ، ثم خلل ، ثم خلب ، ثم خلص ، ثم خلى ، وهكذا .

٢ — قد يذكر الحديث كله ، وقد يذكر بعضه ، ناظرا إلى الكلمة أو إلى الكلمات الغريبة التي يريد شرحها ، ويستشهد بنصوص بليغة من الشعر والنثر ، وقد يعرب بعض الكلمات « إعراب المحقق البصرى الناظر في نص سيويه وتقرير الفسوى »^(٣)

وقد أثنى عليه ابن حجر في قوله : « وكتابه الفائق في غريب الحديث من

(١) استدرج هذا بأن أشار إلى هذه الكلمات في المواضع التي وردت فيها .

(٢) الفائق ٣/١

(٣) النهاية ٤/١

أنفس الكتب ، لجمعه المتفرق في مكان واحد ، مع حسن الاختصار ، وصحة النقل^(١) .

نماذج منه

١ — النبي صلى الله عليه وسلم . أتى بكتفٍ مؤرَّبةٍ فأكلها وصلى ولم يتوضأ .

هي المؤرَّبة التي لم يؤخذ شيء من لحها ، فهي متلبسة بما عليها من اللحم ، متعمدة به ، من أربَّت العقدة إذا أحكت شدها . من الناس من يوجب الوضوء يأكل ما مسته النار . وعن أهل المدينة أنهم كانوا يرون هذا الرأي . وهذا الحديث وأشباهه ردُّ عليهم^(٢) .

٢ — إن الإسلام كَبَّارٌ إلى المدينة كما تَأَرَّز الحية إلى جحرها ، أى تنضوى إليه وتنضم . ومنه الأَرُوز للبخل المتقبض . وعن أبي الأسود الدؤلى إن فلانا إذا سئل أَرَزَ وإذا دُعِيَ انتَهَز^(٣) .

٣ — فى الحديث كانوا يتَأَمُّون شرار ثمارهم فى الصدقة ، أى يقصدون . وفى قراءة عبد الله : « ولا تَأَمُّوا الخبيث »^(٤) .

٤ — النبي صلى الله عليه وسلم : لا يُوطِنُ من المسجد للصلاة والذكر رجل إلا يَبْشِشَ الله به من حين يخرج من بيته كما تَبْشِشُ أهل البيت بفائهم إذا قدم عليهم .

التبشيش بالإنسان المسرة به والإقبال عليه ، وهو من معنى البشاشة لامن لفظها عند أصحابنا البصريين ، وهذا مثل لارتضاء الله فعله ووقوعه الموقع الجميل عنده .

(١) لسان البزآن ٤/٦ (٢) الفائق ٢١/١

(٣) الفائق ٢٢/١ (٤) الفائق ٤٥/١

يخرج في موضع الجر بإضافة الحين إليه ، والأوقات تضاف إلى الجمل ،
ومن لا ابتداء الغاية ، والمعنى أن التبشيش يبتدىء من وقت خروجه من بيته
إلى أن يدخل المسجد ، فترك ذكر الانتهاء لأنه مفهوم ، ونظيره :

سَمِتُ الْبَرْقَ مِنْ خَلَلِ السَّحَابِ
ولا يجوز أن يفتح حين كما فتحه في قوله :
على حين عاتبتُ المَشِيبَ على الصَّبَا
لأنه مضاف إلى معرب ، وذاك إلى مبني ^(١) .

ه — النبي صلى الله عليه وسلم ، كان يتعوذ من الأَيْهَمَيْنِ
هما السيل والحريق ، لأنه لا يهتدى لدفعهما ، من الغلاة اليَهْماء وهي التي
لا يهتدى فيها ، لأنه لا أثر يستدل به .
وقال ابن الأعرابي . رجل أَيْهَمَ أَعْمَى ، وامرأة يَهْماء ، ومنه قالوا : أرض
يَهْماء ، ويقال للجبل الذي لا يرتقى أَيْهَم .
وقيل يَهَم الجنون ، ومنه الأَيْهَم الفحل المقتلم ^(٢)

(١) الفائق ١/ ٩٢

(٢) الفائق ٣/ ٢٣٣

(٤)

أعجب العجب في شرح لامية العرب

هذا كتاب شرح فيه الزمخشري قصيدة الشنفرى التى مطلعها :

أقيموا بنى أمى صدور مطيكم فإنى إلى قوم سواكم لأنيل

وذكر فى مقدمة الشرح أنه ألفه « ليتحف به الخزانة السعيدية والحضرة العزّية ، ذا الآلاء المتظاهرة ، والنعم الوافرة المستولى على جوامع الحكم بالتوقيع لأهلها والمعظم ، والتقريب والتكريم ، وإحراز الكتب المؤلفة فيها ، وإعزاز أربابها ومصنفها » .

وفهم من المقدمة أنه ألفه بعد أساس البلاغة ، لأنه قال : « وخطابى لمن

نشأ فى علم الإعراب وطالع أساس البلاغة »

وقد شرح اللامية كثير من اللغويين ، مثل المبرد وثلث والتبريزى والمكبرى ويحيى الحلبي الفسائى والزوزنى والنقشوانى وابن أكرم وابن زاكور وعطاء الله المصرى والسويدى والسعيدى الحيرى ، واستشهد بأبيات منها كثير من اللغويين والنقاد والمؤرخين .

ونلاحظ أن الزمخشري ملأ شرحه بالنحو ، حتى لسكان النحو مقصود قصداً ، وأنه اقتصر من اللغة على شرح المفردات الصعبة ، ولم يعرض لشيء من علوم البلاغة .

وهو فى شرحه يستشهد بالآيات القرآنية ، وبأبيات شعرية

وقد غنى بها كثير من المستشرقين منذ نشرها (ده ساسى) فأكبوا على دراستها ، وترجموها شعراً ونثراً إلى لغاتهم مثل (فرنل) و (فيل) و (كوزجارتن) و (رويس) و (ديكرت) و (همبرجشتال) و (الفارت) و (أداما ميكيفتشا) و (فرين) و (ب . بليا) .

واتجه آخرون إلى اقتناء مخطوطاتها ، والموازنات بين بعضها وبعض ، مثل (بيترمان) و (شبرنجر) .

وفي عام ١٨٦٤ رأى نولدكه أن يعيد النظر فيها ، فألف كتابا في الشعر الجاهلي عرض فيه لما قيل في اللامية ، وناقشه ، ثم قال : لولا أني رأيت على مخطوطة (بترمان) هذه الجملة (لامية الشنفرى ، وقيل إنها منحولة) ما تطرق إلى ذهني شك في صحتها ، فإنها إن كانت منحولة فالشاعر الذي قالها يجب أن يكون ملما بالحياة العربية والجاهلية إلاما تاما ، كما أن خياله غزير جداً ، حتى إنه ليستحق أن يتبوأ أسى مكان بين الشعراء الجاهليين ، وإذا لم تكن هذه اللامية لبطل الصحراء ، فإنها صنعت لتنسب إلى مثله .

وفي الوقت الذي كان فيه جمع قينا العلمى ينشر دراسة لنولدكه عن العلاقات كان الجمع العلمى البافارى بميونخ ينشر فى عامى ١٩١٤ ، ١٩١٥ بحثاً قيما حول لامية العرب للمستشرق الألمانى (جورج يعقوب) ، وقد ألف قبل هذا البحث كتابا عن حياة البدو فى العصر الجاهلى ، وجمع المصادر المختلفة للامية الشنفرى ، وعنى عناية خاصة بنبات الشرق العربى وحيوانه .

وقد ناقش ما أجمع عليه شراح اللامية من أن السَّمع فى قول الشنفرى :

فَأَنَّى لَمَوْلَى الصَّبْرِ أَجْتَابُ بَزَّهْ طَلَى مِثْلَ قَلْبِ السَّمْعِ وَالْحَزْمُ أَنْفَلُ^(١)

هو ولد الذئب من الضبع ، وخالفهم وقال إن مثل هذا التزاوج لم يحدث بين الذئب والضبع ، واستعان لإثبات رأيه بمحديقة حيوان (هلابرن) بألمانيا التى

(١) قال الزمخشري فى شرح اللامية ٥٤ مولى الصبر : وله يريد أنا القائم به اجتابة :

ألبس البز : أمتعة البزاز ، يريد أنى وله ألبس ثوبه . السمع سبع مركب وهو ولد الذئب من

الضبع ، وفى المثل أسمع من سمع . قال الشاعر :

تراه حديد الطَّرْفِ أْبْلَجَ واضحا أغرَّ طويلَ الباع أَسْمَعَ من رَسْمِ
الحزم أنفل : أحتذى الحزم

نجحت في تجربة التزاوج بين الذئب والثعلب ، وأخفت في تحقيق ما قاله شراح اللامية ، لأن السمع كما قال الرحالة والعلماء وبخاصة علماء الحيوان : حيوان آخر يشبه الكلب ، وحجمه كالحمار ، إذا لم تنصب الطلقة الأولى منه مقتلاً اكتسب مناعة ضد الرصاص ، وهو يهاجم الإنسان ويضربه بمخلبه الأمامي ، فيبجر بطنه ويفترسه ، ويطلق عليه علماء الحيوان اسم (ليكاون بيكتوس — Lycaon Pictus) وهو مشهور بقوة السمع حتى يضرب به المثل^(٢)

على أن المناعة التي يكتسبها هذا الحيوان ضد الرصاص ليست مما يدخل في نطاق العقول ، لأن إخفاق الطلقة الأولى أو ما بعدها لا يكسب الحيوان هذه المناعة .

(٥)

الجبال والأمكنة والمياه

تعريف بالجبال والأمكنة والمياه ومواقعها وأسمائها وبعض ما يتصل بها من أخبار وشعر ، مرتبة ترتيباً هجائياً ، بدأ بما في أوله الهزرة ، فقال : أبو قبيس الجبل المشرف على الصفاء ، يسمى برجل من مذحج كان يكنى بأبي قبيس ، لأنه أول من بنى فيه ، ثم ذكر بعده ما في أوله الباء ، وما في أوله التاء ، وهكذا إلى الياء ، فقال : يَلْمَمَ واد يحرم منه أهل اليمن .

نماذج منه

١ — الْجَمَّاء : جبل بالمدينة ، سمي بذلك لأن ثم جبلين هي أقصرهما ، فكانها جماء ، وأنشدني الشيباني :

القصر والنخل فالجماء بينهما أشهى إلى القلب من أسياح جزيرون
الجماء من المدينة على ثلاثة أميال ناحية العقيق إلى الجرف .

(١) من مقال بمجلة الرسالة العدد ٨١ في ٤ فبراير سنة ١٩٦٥ الدكتور فؤاد حسين على .

٢ — مُحَلَّمٌ : نهر باليمامة ، قال الأعشى :

ونحن غداة العَيْنِ عَيْنِ فَطِيمَةٍ منعنا بنى شَيْبَانَ شُرْبَ مُحَلَّمٍ

٣ — عكاظ : سوق ، وقيل عكاظ ماء لهم ، قال :

إن عكاظا ماؤنا فخلوه

وقيل عكاظ ما بين نخلة والطائف إلى بلد يقال له الفُتُق ، كانت سوقه تقام
هلال ذى القعدة فلا تزال قائمة عشرين يوما .

٤ — منفوحة : بلد فيه منازل ونخيل ، وهى خلة بنى قيس بن ثعلبة ،
قال الأعشى :

ففاعِ منفوحة ذى الحَايِرِ (١) .

(١) لا تزال منفوحة عامرة بالقرب من الرياض فى نجد ، وبها أطلال يقولون إنها كانت
بيت الأعشى ، وفد زرتها مرات من سنة ١٩٥٧ إلى ١٩٦٠ .

الفصل الثامن

في شعاب النحو

درس الزمخشري النحو ، وتفوق فيه كما درس اللغة وبرع فيها ، وكان تابعا لمذهب سيبويه والبصريين في آرائه ، كما يتبين من مؤلفاته كلها ، وله في النحو ثلاثة كتب هي :

(١)

المفصل

شرح في تأليفه في غرة رمضان سنة ٥١٣هـ ، وفرغ منه في غرة المحرم سنة ٥١٥هـ^(١) .

وهو أربعة أقسام: الأول في الأسماء ، والثاني في الأفعال ، والثالث في الحروف ، والرابع في المشترك .

ويمتاز بأنه يورد أمثلة كثيرة من القرآن الكريم والحديث الشريف وشعر البلغاء ونثرهم ، كقوله في حذف المفعول به :

وحذف المفعول به كثير ، وهو في ذلك على نوعين :

أحدهما أن يحذف لفظا ، ويراد معنى وتقديرا .

والثاني : أن يجعل بعد الحذف نسيا منسيا ، كأن فعله من جنس الأفعال

غير المتعدية ، كما ينسى الفاعل عند بناء الفعل للمفعول به .

فمن الأول قوله تعالى « اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ » وقوله « لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ » لأنه لا بد لهذا الوصول من أن يرجع إليه من صلته مثل ما ترى في قوله تعالى « الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ الْمَسَّ »، وقرئ قوله تعالى : « وما عملته أيديهم وما عملت »

ومن الثاني قولهم : فلان يعطى ويمنع ، ويصل ويقطع ، ومنه قوله عز وجل : « وَأَصْلَحْ لِي ذُرِّيَّتِي » وقول ذي الرمة

وإن تقتدر بالمحل من ذى ضرورها إلى الضيف يجرّح عراقيبها نعل^(١)
ولقد شرحه وعلق عليه كثير من النحاة^(٢)، مثل أبي البقاء العكبري المتوفى سنة ٦١٦ هـ واسم شرحه الإيضاح ، ومثل ابن الحاجب (٦٤٦ هـ) وشرحه اسمه الإيضاح أيضاً ، وعلى هذا الشرح حواش لآخرين.

وأكثر شراح المفصل شهرة موفق الدين أبو البقاء يعيش بن علي بن يعيش الحلبي المولود بحلب سنة ٥٥٣ هـ (١١٥٨ م) درس النحو والحديث بحلب ودمشق والموصل ، وتوفى سنة ٦٤٣ هـ (١٢٤٥ م) وتلمذ عليه ابن خلكان سنة ٦٢٦ هـ ، ٦٢٧ هـ وقال إنه حجة في الأدب .

ولابن يعيش هذا مؤلفات منها حاشية على شرح ابن جني على (تصريف المازني) ، وشرح واف على (المفصل) عارض فيه الزمخشري في كثير من المواضع . وقد تحدث ابن يعيش عن الباعث له على شرح المفصل ، فقال : لما كان الكتاب الموسوم بالمفصل من تأليف الإمام العلامة أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري ، رحمه الله ، جليلاً قدره ، نابهاً ذكره ، قد جمعت أصول هذا العلم فصوله ، وأوجز لفظه فتيسر على الطالب تحصيله ، إلا أنه مشتمل على ضروب ، منها لفظ أغربت عبارته فأشكل ، ولفظ تتجاذبه معان فهو مجمل ، ومنها ما هو

(١) الفصل ٣٩/٢ . يجرّح : المراد يجرّحها

(٢) كشف الظنون ٤٨٨/٢ — ٤٨٩

بادر للأفهام إلا أنه خال من الدليل مهمل ، استخرت الله تعالى في إملاء كتاب
أشرح فيه مشكله ، وأوضح مجله ، وأتبع كل حكم منه حججه وعقله

ولا أدعى أنه — رحمه الله — أحل بذلك تقصيرا عما أنيت به في هذا
الكتاب ، إذ من المعلوم أن من كان قادرا على بلاغة الإيجاز كان قادرا على
بلاغة الإطناب (١) .

وقد طبع هذا الشرح في ليبسيك من سنة ١٨٨٢ إلى ١٨٨٦ م ثم طبع
بإدارة الطباعة المنيرية بالقاهرة في عشرة أجزاء .

(٢)

مقدمة الأدب

قسم هذا الكتاب خمسة أقسام :

القسم الأول في الأسماء ، فذكر المفردات وجوعها التكميرية ، مثل وقت
وأوقات ، وحين وأحيان ، وأجل وآجال ، وأوان وآونة وأيايين ، ودهر
وأدهار وأدھر ، ونبت ونبات ، وعشب وعِشَاب وأعشاب ، ومزرعة ومزارع ،
وسنبلة وسنابل ، وهكذا ، مراعيًا موضوعات عامة لكل طائفة من الكلمات .

والقسم الثاني في الأفعال ، مثل : هَنَأَ الطعام يَهْنِئُهُ وَيَهْنُوهُ وَيَهْنَاهُ ،
وهِنْئُهُ يَهْنُوهُ هُنُوًا ، وهنأ البعير بالقطران يَهْنِئُهُ وَيَهْنُوهُ هَنَاءً وهو الهنء .

والقسم الثالث في الحروف ، فتكلم عن الحروف ، وعملها في الأسماء
والأفعال ، وعقد لذلك فصولا ، منها فصل في الحروف التي تنصب الاسم
وترفع الخبر مثل : إن زيدا منطلق ، بلفظي أن زيدا منطلق ، كأن زيدا الأسد ،
ما جاءني زيد لكن عمرا حاضرا ، ليت زيدا خارج ، لعل عمرا حاضرا ، فإذا

اتصل بها (ما) ارتفع الاسمان كقولك : إنما زيد منطلق وكذا الباقي .
القسم الرابع في تصريف الأسماء ، فتكلم عن حركات الإعراب وحركات
البناء ، وعن التذكير والتأنيث . والنسب والتصغير . . الخ .
القسم الخامس : في تصريف الأفعال ، فعرض للمبنى للفاعل ، والمبنى
للمفعول ، وللصحيح والمعتل ، وللتعجب ، ولأسم الفاعل واسم المفعول . الخ .
والكتاب عربي - فارسي في قسميه الأولين ، أما الأقسام الثلاثة الباقية
فعمرية خالصة .

ويبدو من هذا التعريف الوجيز أن الكتاب نحو ولفة ، ولكن النحو
أغلب . وقد أهداه إلى الأمير الأجل بهاء الدين علاء الدولة أبي المظفر أنسوز
ابن خوارزم شاه ، ووصفه بقوله : « غاية لذته في مجالسة الأفاضل ، وقصارى لهوه
في منادمة الأماثل ، ولا يزال ظل كرمه الواسع عليهم ممدودا ، وجناحه يأنعاه
الفائض تجودا ، وصلاته وخلعه مترادفة عندهم متوالية ، رائحة إليهم غادية . وقد
رسم لى أمره العالى — زيد علوا — بتحرير نسخة من كتاب مقدمة الأدب
خزانة كتبه المعمورة ، ففعلت على رسمه ، وجعلت الكتاب مرسوما
باسمه ^(١) »

(٣)

الأنموذج

هذا كتاب موجز جداً فى النحو ، اقتضبه من الفصل ، ويظهر أنه أراد به
للمبتدئين ، عدد صفحاته ثلاث وعشرون صفحة .

وحسبنا هذه الإشارة ، لأن التفصيل فى هذا يحتاج إلى دراسة خاصة .

الفصل التاسع

في حديث النثر

مارس الزمخشري النثر الفنى فى هذه الكتب الثلاثة : نوابغ الكلم ، ومقامات الزمخشري ، وأطواق الذهب .

وله نثر فنى فى مقدمات كتبه الأخرى وفى ثنايا بعضها ، وبخاصة الكشف ، وفى بعض فصول كتابه ربيع الأبرار .

أما موضوعاته فتدور حول الوعظ والإرشاد والدعوة إلى التحلى بالتقوى ومكارم الأخلاق .

وأما أسلوبه فالصبغة العامة له مجازاة كتاب عصره فى الكلف بالسجع ، وتكلف المحسنات ، والجنوح إلى حل المنظوم ، والتلاعب بالألفاظ الاصطلاحية . ولقد كان المأمول من أبى القاسم أن يتحرر من هذه القيود التى كبلت النثر الفنى منذ القرن الثالث الهجرى إلى القرن العشرين ، لكنه لم يتحرر منه ، مع أنه قال فى مقدمة المقامات ^(١) : ولتعلم أن ماسماه الناس البديع ، من تحسين الألفاظ وتزينها بطلب الطباق فيها والتجنيس والتسجيع والترصيع ، لا يملح ولا يبرع حتى يوازى مصنوعه مطبوعه ، وإلا فما قَلِقَ فى أما كنه ، ونبا عن موافقه ، فتنبؤٌ بالعراء ، ، مرفوض عند الخطباء والشعراء .

على أن بعض سجعاته حلوة الوقع ، لا يبدو عليها استكراه ، وبعض

محسناته أسغت بها المهارة واللباقة فجاءت كأنها عفو الخاطر ، ووليدة المصادفة ، مثل قوله : « ألا إن اتقاء المحارم ، من أجل المكارم ، فاتقها إما لسكرم الفريزة ، وإما للتوقف عند حدود الشارع ، وتخوف الزواجر والقوارع »^(١).

وقوله : « يا أيها المستجدي، حَسْبُكَ ، فبئس الكسبُ كَسْبُكَ ، لا يُخْلِقُ الديباجة مثل التمرض للحاجة ، فليرقع اليسيرُ خَصَّتَكَ »^(٢)، ولتكن القناعة حصتك ، وأقل في الناس طمعك ، واستدِّمْ فضل الله معك »^(٣) .

وبكفي أن أذكر بعض الأمثلة من كلفه بالسجع والمحسنات المقصورة المثقلة ببعض المفردات اللغوية التي لا باعث على استعمالها إلا الجنوح إلى الإغراب ، أو الدلالة على الإحاطة والقدرة ، على حين أن غيرها أجمل منها وقعاً ، وأوضح دلالة ، وأترى معنى .

من ذلك قوله في مقامه العزلة : « قاتل الله بنى هذه الأيام ، حوارم غَوَارَ »^(٤) وَتَقَالَهُمْ نِقَارَ »^(٥) بينما أنت في خلواتك إذ فوجئت بمثافنة بعضهم ، من الذين أخذك الله بيفضهم » . . .

فهو يتصنف في تعبيره ليسجع وليجانس بين حوار وغوار ، وبين نقال ونقار ، ويستعمل كلمة مثافنة على ثقلها .

(١) اللغات ٥٦

(٢) الحصة : الحصة الفقر ، وقال في الأساس : سمعت أهل السراة يقولون : رفع الله خصتك .

(٣) أطباق الذهب ٣٢

(٤) الغوار : الماوراة

(٥) النقال : مناقاة الكلام . النقار : الناقرة والتجريح

ويقول في المقامة نفسها^(١): « استبقنا إلى غاية النواية مُعْنَقَيْن، وتردبنا في هوة الرأي مُعْتَقَيْن^(٢) » .

والتكلف واضح في استعمال معنقين ومعنقين لضمان السجع والجناس .
ويقول في مقامة العمل^(٣):

« إن ذكر النثر فلو رآه ابن لسان الحُمْرَةِ حمرة لسانه تلجّش وما بهش^(٤) » .

فهو يستعمل (راء) بدلا من رأى ، ويستعمل بهش ليجانس بينها وبين جهش ، ويمثل بشخص غريب الاسم ، غير مشهور بالبلاغة إلى درجة أن يضرب به المثل .

ويستعمل في هذه المقامة في استعمال كلمات أربع متصلة بالقوس ، فيقول: « متى نظر إلى الرُّماة مُوتِرَيْن مُنْبِضَيْن^(٥) مُسَدِّدَيْن غير مُحْبِضَيْن^(٦) أقبل على مفلاة الغم يَتَقَلَّى ، وبجمرة الفيظ يَتَصَلَّى » والتكلف بين في تتابع هذه الكلمات .

على أنه كتب خمس مقامات مثقلة باصطلاحات نحوية وعروضية وغيرها ، سأعرض لها فيما بعد .

وهذا النثر في كتبه : نوايع الكلم ، ومقامات الزمخشري ، وأطباق الذهب ، وريع الأبرار .

(١) مقامات الزمخشري ٧٢

(٢) معنقين : مسرعين

(٣) المقامات ١٠١

(٤) جهش : فزع أو هرب . بهش : هش وارتاح . ابن لسان الحمرة : على وزن سكرة خطيب بلغ نساية اسمه عبد الله بن حصين أو ورقاء بن الأشقر (القاموس مادة حر) .

(٥) منبضين : جاذبين أو تار القسي

(٦) محبضين : ساقطه سهامهم

(١)

نوابغ الكلم

أما نوابغ الكلم فهي حكم قصار متوالية بوجزة أقصى إيجاز ، مسجوعة
سجعا ملتزما ، لا ينتظمها موضوع أو فكرة ، كقوله : العرب نبع صلب
للمعجم ، والفرب ^(١) مثل للأعجم .

إذا قلت الأنصار كلت الأبصار .

لاتمش بالريية مهينمآ ^(٢) ولاتنس أن عليك مهينمآ .

صنوان من منح سائله ومن ، ومنع نائله ومن .

كم رأيت من أخرج في درج المعالي أعرج ^(٣) ، ومن صحيح القدم ليس له في
الخير قدم .

قد جمع الأصل والفرع من تيسع القل والشرع .

رُبَّ صدقة من بين فكّيك خير من صدقة من بطن كفّيك .

لن يسود النّقّار ^(٤) ما اسودّ القار .

أم الزائر ^(٥) نزور ^(٦) ، وأم النابح نثور ^(٧) .

رب كلمة هي عند الناس فضيحة ، وهي عند الله فضيحة .

(١) الفرب : نوع من الشجر سهل الكسر

(٢) المهينة : الصوت الحلقى

(٣) أخرج (الثانية) : أسعد وأرق

(٤) النّقّار : الواسى العائب النّام

(٥) الزائر : الأسد

(٦) نزور : قليلة للولد

(٧) النابح : الكلب . نثور : كثيرة الأولاد .

(٢)

المقامات

وأما المقامات فقد ألفها سنة ٥١٢ هـ ، لأنه قال إنه أصيب في تلك السنة بالمرض الناهكة التي سماها المنذرة ، فأخذ على نفسه الميثاق إن من الله عليه بالصحة ألا يطأ عتبة السلطان ولا أعوانه ، وأن يربأ بنفسه ولسانه عن قرض الشعر فيهم ، وأن يعف عن التطلع إلى عطايهم ، ويجتهد في محاسمه من الديوان ، ويبتهل إلى ربه ويتنسك^(١) .

وكان تأليفها أو شرحها بعد نوابغ الكلم ، لأنه شرح كلمة نقار في صفحة ٧٢ من المقامات ، وقال : وفي نوابغ الكلم : لن يسور النِّقَار ما اسود القار ، وشرح كلمة ثور في صفحة ٢٣٠ فقال : وفي النوابغ أم الزائر زور ، وأم النابح ثور^(٢) . ويفهم مما ذكره في الشرح أن تأليفها أو شرحها كان بعد الكشف^(٣) ، وكان بعد الفائق في غريب الحديث^(٤) .

ويظهر أنه كتبها في مكة ، لأنه أشار إلى البيت العتيق بقوله : أسأل الله أن يغم لك سجال النعم ، ويعينك على إفادة أهل الحرم ، ويكتيك ببركة هذا البيت العتيق في زمرة العتقاء من النار^(٥) .

وهي خمسون مقامة ، موضوعها النصيح والإرشاد والعظة ، موجهة إلى نفسه ، مصدرية كل منها بقوله : يا أبا القاسم . ولكل منها عنوان مثل : مقامة المرشد ، مقامة التقوى ، مقامة الرضوان ، مقامة الزهد ، مقامة الصمت ، مقامة القناعة ، مقامة العفة ، مقامة التوحيد ، مقامة الشهامة ، مقامة العزم ، مقامة أيام العرب .

(١) المقامات ٦ (٢) سبق شرح الكلمات في نماذج نوابغ الكلم

(٣) شرح المقامات ١٠٥ (٤) شرح المقامات ٥٥

(٥) مقدمة المقامات ٣

وهي وإن خالفت مقامات الحريري في اللزوعات والغاية فإنها محاكاة لها في الأسلوب المسجع الحافل بالمحسنات .

وقد شرحها الزمخشري نفسه شرحا مفصلا ، تعرض فيه للغة والبلاغة والنحو ، واستشهد بكثير من آيات القرآن الكريم والحديث النبوي وشعر العرب وأمثالهم وأخبارهم ، كقوله^(١) :

الطائر يحمى بيضته ويرفرف عليها ، فضرب مثلا لما يذب عنه الإنسان من حوزته وحقيقته ، فيقال فلان يحمى بيضته ، ولوقيل فلان يرفرف بمناحه على بيضة الإسلام لكان مجازا مرشحا .

فإن قلت : ما بالهم قالوا : أذل من بيضة البلد مع قولهم أعز من بيضة البلد ؟ قلت : هي بيضة النعامة ، وأضيفت إلى البلد وهي المفازة ، لأنها تباض فيها ، وأما تركها فتحضنها أخرى ، فلما كانت متروكة من ناحية محضونة من أخرى وصفت بالعمزة والذلة ، فقليل :

لو كان قاتل عمرو غير قاتله بكيته ما أقام الروح في جسدي

لكن قاتله من لا يعاب به وكان قدما يسمى بيضة البلد

والقاتل أخت عمرو بن ود في علي رضي الله تعالى عنه وقتله أخاها .

وقيل المراد بالبيضة التي هي مثل في الذل الكأأة البيضاء ، لأن الأرض تبيضها ، أو تشبيها بالبيضة ، فهو كقولهم أذل من فقح بقرقر .

وقوله في شرح « استبقل من الدهش » إنها كلمة موضوعة ، استفعل ، من باقل المضروب به المثل في اليمى ، قيس على استنوق الجمل ونظائره ، نحو استنبط

العرب ، واستعرب النبط^(١) . ولكن لم يذكر هذا الاستعمال في أساس البلاغة .

وهذه نماذج من المقامات

١ — قال في مقامة العزلة^(٢) :

يا أبا القاسم، أزل نفسك عن صحبة الناس واغزلها ، وانت فرعة من فراع الجبل فانزلها ، ولذ ببعض الكهوف والغيوان ، بعيدا من الرفقاء والجيران ، حيث لا تعلق طرفك إلا بسوادك^(٣) ، ولا تجرى مؤامرتك^(٤) إلا مع فؤادك ، ولا توصل إلى سمعك إلا همسك ومناجاتك ، وإلا جوارك^(٥) ومناداتك . . .

قاتل الله بنى هذه الأيام ، فإنهم طلائع الشرور والآثام ، حوارج غوار ، ويقالهم^(٦) نثار ، ووفاتهم نفاق ، تسلق بالسفهم الأعراض ، كما ترشق بسهامهم الأعراض^(٧)

٢ — ويحتم بعضها شعر من إنشائه ، كقوله في مقامة الزهد^(٨)

طوبى لعبد يحبل الله مُتَّصِمَةً على صراط سوى ثابتٍ قدَّمه
رث اللباس جديد القلب مستتر في الأرض مشتهر فوق السماء سِمة^(٩)
إذا العيون اجتلتته في بدأته تلو نواظرها عنه وتقتحمة^(١٠)

(١) المقامات ١-١ (٢) المقامات ٧١

(٣) السواد : الشخص (٤) المؤامرة : المشاورة

(٥) الجوار : رفع الصوت بالدعاء والاستغاثة ، وفي التنزيل (إذ هم يجأرون)

(٦) تقالهم : مناقلتهم الكلام . نثار : مناقرة ينقر بعضهم بعضا بالقب ، وفي نوابع

الكلم لن يسود النثار ما اسود القار .

(٧) تسلق : تضرب . قال تعالى : سلقوكم بالسنة حداد

(٨) المقامات ٢٥

(٩) السم : الاسم ومعنى البيت مبنى على قول عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : كونوا

جدد القلوب خلقان الثياب تحفون في الأرض تعرفون في السماء .

(١٠) البذاذة : ترك التكلف في المطعم والملبس .

مازال يستحق الدنيا بهمتِه حتى ترقّت إلى الأخرى به همه
فذلك أعظم من ذى التاج متكئا على النارق مُحْتَفًا به حشمه

٣ — وفي هابئها خمس مقامات ، ملأ الأولى باصطلاحات نحوية ، وسماها
(مقامة النحو) وملأ الثانية باصطلاحات عروضية ، وسماها (مقامة العروض)
وملأ الثالثة باصطلاحات القافية وسماها (مقامة القوافي) والرابعة اختص بها
اصطلاحات ديوانية وسماها (مقامة الديوان) مثل الطّاسيج^(١) والتأريج^(٢)
والروزنامج^(٣) والأسكرار^(٤) ، والخامسة قصرها على ذكر أيام العرب وسماها
(مقامة أيام العرب) وهذه المقامات الخمس مثقلة بالتكلف والتخل ، وإن دلت
على مهارة في اللعب بالألفاظ .

فمن مقامة النحو قوله^(٥) :

يا أبا القاسم أعجزت أن تكون مثل همزة الاستفهام ، إذ أخذت على ضعفها
صدر الكلام ؟ ليتك أشبهتها متقدما في الخير مع المتقدمين ، ولم تشبه في
تأخرُك حرف التانيث والتنوين ، ضارع الأبرار بعمل الثواب الأواب ،
فالفعل لمضارعتة الاسم فاز بالإعراب ... ولا يكون ضميرك عن الهم الديني
ساليا ، كما لا يكون أفعل من الضمير خاليا ...^(٦)

ومن مقامة العروض قوله^(٧) :

يا أبا القاسم ، لن تبلغ أسباب الهدى بمعونة الأسباب^(٨) والأوتاد^(٩) أو يبلغ

(١) الطّاسيج : أقساط السواد سميت بأقسط الثقال وهو أربعة وعفرون طسوجا .

(٢) التأريج : تعريب تاريخ وهو المظلم وهو سواد يصل للمقد إذا احتاجوا إلى حل

الأبواب

(٣) الروزنامج . تعريب روزنامه وهو ما يكتب فيه ما يجري كل يوم من استخراج وفتحة

(٤) الأسكرار : كتاب يكتب فيه عدد الحرائط والكتب الواردة والناقدة .

(٥) المقامات ١٨٠ (٦) شرح بتفصيل المراد من هذه المصطلحات

(٧) المقامات ١٨٦

(٨) السبب اثم لرفين وهو سبب خفيف نحو قل وسبب ثقيل نحو ريم ...

(٩) الوند اسم لثلاثة أحرف نحو نعم ونحو قال ...

أسباب السماوات فرعون ذو الأوتاد . إن الهدى في عَرَوْضِ سِوَى علم
العَرَوْضِ ^(١) في العلم والعمل بالسنن والفروض ، ما أحوج مثلك إلى الشغل
بتعديل أفاعيله ، عن تعديل وزن الشعر بتفاعيله ^(٢) .

(٣)

أطواق الذهب

وأما أطواق الذهب في المواظ والخطب فإنه مئة مقالة ، كل منها في بضعة
أسطر بغير عنوان ، أنشأها في مكة قبل تأليف الكشف ، قال في المقدمة :
« أسألك أن تفيض على هذه المقالات من البركة والقبول ، وأن تحفظ فيها
ما وجب للجار ، من حق الذمام والذمار ، لأنها وجدت في حرمك المطهر ،
وولدت في جحر بيتك المُسْتَر » ^(٣)

وقال الميرزا يوسف خان الأشعري في شرحه لها : يريد أنه أنشأ تلك المقالات
بمكة أجلها الله تعالى ، وذلك أنه كان يطوف بيت الله ، وإذا فرغ من الطواف
ألف مقالة ، ثم يقوم ويطوف وينشئ بعد الفراغ ، وما زال على ذلك إلى أن
بلغت مئة كاملة ^(٤) .

وشرحها أيضاً الشيخ يوسف أفندي الأسير .

ثم ألف شرف الدين عبد المؤمن بن هبة الله المغربي الأصفهاني كتابه أطباق

(١) العروض: الجانب والناحية . وسمى هذا العلم بالعروض لأنه ناحية من نواحي العلم ،
أو باسم الجزء الأخير من أجزاء الصراع الأول ، كما قل لعل الموارث علم الفرائض لقول الفرضيين
فريضة الزواج كذا وفريضة الأم كذا ، وقيل العروض عمود البيت وقيل السعة التي في وسطه ،
أخذ الخليل هذه الأسماء من نيت العرب وهي السبب والتدب والفاصلة والعروض والضرب
تشبيهاً لبيت الشعر بيت الشعر .

(٢) تفاعيل الشعر سبعة خماسيان وما فعلن وفاعلن وخمسة سباعية وهي الأفاعيل
والأركان والمضادات والمساطع والأوزان

(٣) أطواق الذهب ٩ (٤) قلائد الأدب في شرح أطواق الذهب ٩

الذهب على غرار أطواق الذهب ، وقال إنني حذوت حذوه ، واقتفيت أثره وخطوه ^(١) .

ثم حاكها السيد توفيق البكرى فى كتابه صهاريج اللؤلؤ ؛ ثم أحد شوقى فى كتابه أسواق الذهب ، مع اختلاف الموضوعات وتفاوت العبارات .
وهذه نماذج من أطواق الذهب :

١ — من عرف منهل الذل فعافه ، استعذب نقيع العز وذعافه ^(٢) ، ومن لم يصطل بحرّ الهيجاء لم يصل إلى برّ النعم ، ومن لم يصبر على برائن أسد اللقاء لم يصب أطرافاً كالعم ، ^(٣) ومن لم يقض عليه غسر يقذه ^(٤) ، لم يقبض له يسر ينقذه ^(٥) .

٢ — الدنيا أديار ، والناس أطوار ، فالبس كل يوم بحسب ما فيه من الطوارق ^(٦) ، وعاشر كل قوم بقدر مالهم من الطرائق ^(٧) ، فالأيام لا تجرى على وفق مرادك ، والأيام لا تسرى على طبق تأويلك وإسارك ^(٨) ^(٩)

٣ — يابن آدم ، أصلك من صلصال كالفضار ، وفيك ما لا يسمعك من التيه والافتخار ، تارة بالأب والجد ، وأخرى بالدولة والجد ، ما أولاك بالآ تصغر خديك ، ولا تفتخر بمجدبك . تبصر خليل ممّ متركبك ، وإلام منقلبك . فحفض من غلوائك ، وخلّ بعض خيلائك » ^(١٠) .

(١) أطواق الذهب ٧ (٢) الذعاف : السم الشديد

(٣) النعم : شجر لين الأغصان تشبه به بنان الحسان .

(٤) يقذه : يوجهه

(٥) أطواق الذهب ٤٢ (٦) الطوارق : الشئون والأحداث

(٧) الطرائق : المذاهب

(٨) التأويل : التبر من أول النهار . الإسآد : سير لإقامة فيه .

(٩) أطواق الذهب ٦١ (١٠) أطواق الذهب ١٢

٤ — العلماء السوء جمعوا عزائم الشرع ودَوَّنوها ، ثم رخصوا فيها
لأئمة السوء وهو نوحها ، ليتهم إذ لم يراعوا شروطها لم يعموها ، وإذ لم يُسموها
كما هي لم يجمعوها ^(١) .

٥ — ذو الحقيقة لا يُعزُّه ديباج الملوك ، ولا يعبأ إلا بعبادة الصُّلوك ،
يقول : وراء الديباجة ليل داس ، وتحت العبادة مَهار شامس ^(٢) .

(٤)

النصائح الصغار والبوالغ الكبار

مجموعة من النصائح والحكم في صور مقالات قصار عددها نحو التسعين .
منها قوله :

١ — القاضى تعمل فيه الرشوة ، ما لا تعمل في الشارب النشوة ، إن
أنته فسكران تيّلاً وطرباً ، وإن فاتته فتكلان وزيلاً وحرَباً ، كأنه لم يسمع
أن الرشوة من السُّحت ، وأن السحت مأخوذ من السَّحت ^(١) .

٢ — من لم يحفظ ما بين فكَّيه ، ظل يُقَلَّب كَفَّيه ، وبات يتململ
على دَفَّيه ^(٢) ، حزننا على ما فرط فيه من التحفظ ، وأسفاً على ما فرط منه
من التَّلَفُّظ ، ولو كان اللسان مخزوناً لم يكن الفؤاد مخزوناً ، فلما يحرس
مهجته من لم يحرس لهجته ، ولن نجد على السر أميناً ، إلا بكل أمانة قينا .

(١) أطواق الذهب ٨١

(٢) شامس : مشرق . أطواق الذهب ١٤٥

(٣) السحت : بضم السين الحرام ويفتحها الاستئصال

(٤) الدف : الجنب

(٥)

ربيع الأبرار

وأما ربيع الأبرار فقد ألفه بعد نوايغ السكم وبعد ديوان شعره وبعد ديوان المنشور^(١).

وموضوعه كما قال في مقدمته « إجماع خواطر الناظرين في الكشف عن حقائق التنزيل ، وترويح قلوبهم للتعبه بإجالة الفكر في استخراج ودائع علمه وخباياه ، والتنفيس عن أذهانهم المسكدودة باستيضاح غوامضه وخفاياه » .

وقد عرض فيه لكثير من الموضوعات مثل الأوقات وذكر الدنيا والآخرة ، والسماء والكواكب ، وذكر العرش والكرسى ، والسحاب والمطر والثلج والرعد والبرق وما يتصل بذلك من ذكر الاستمطار وغيره ، والهواء والريح والنسيم والحر والبرد والظل ، والنار وأنواعها وأحوالها وذكر نار جهنم وأحوالها والسراج والشمعة ونحو ذلك ، والأرض والجبال والحجارة والحصى وجواهر الأرض والمفاوز وذكر الرجفة والخسف ، والماء والبحار والأودية والأنهار والعيون والآبار وما اتصل بذلك وناسبه من ذكر السفن والسباحة وغيرها ، والشجر والنبات والفواكه والرياض والبساتين وذكر الجنة ، والبلاد والديار والأبنية وما يتصل بها من ذكر العبارة والخراب وحب الوطن ، والجنون والحق والسفه والغفلة والحزن والغفلة وترك الأناة والفضول ، والرسوم في معايشة الناس وعلاقاتهم ومصاغتهم ومجالستهم ومراسلتهم وذكورهم وزيارتهم ، وذكر السلام والتحية وآداب النفس وما يتصل بذلك ، والقصاص وما ورد من حكاياتهم وملحهم ، والمتصوفة وما جاء في أكلهم ورزقهم ، والمنطق وذكر

الخطب والشعر والفصاحة والبلاغة والعي والإجسام والإيجاز وما اتصل بذلك ، والنساء ونكاحهن وطلاقهن وخطبتهن والإعراس بهن ومعاشرتهن وما يحمدهن ويذم منهن .

وهو يعتمد في هذا الكتاب على النقل من بعض كتبه ، ومن الجاحظ ، وغيره ، ويذكر كثيراً من الأحداث والأخبار والأشعار ، وما روى عن السابقين فيها وفيما يتصل بها ، فنجد كثيراً من الأسماء تتردد مثل عمر بن الخطاب وابن عباس وعلي بن أبي طالب والحدري والحسن وأنس بن مالك ووهب بن منبه وأحمد بن يوسف والصنوبري والمأمول والفرزدق وابن مسعود وابن الرومي والأصمعي والحجاج وعبد الملك بن مروان وبديع الزمان الهمداني وسهل بن هارون وأنوشروان الخ .

ومن هذا ينبت أن الكتاب مجموعة من المعارف والطرائف أكثره بعبارات غيره . وهذه نماذج منه .

١ — قال في معاشرة الناس وملاقاتهم ومضاجعتهم ومراسلتهم وذكرهم وزيارتهم ^(١) .

جابر رضى الله عن النبي صلى الله عليه وسلم : من أخلاق النبين والصديقين البشاشة إذا تراؤا ، والمصافحة إذا تلاقوا ، والزائر في الله حق على المزور إكرامه .

كان القنقاع بن ثور الهذلي إذا جالسه رجل جعل له نصيباً من ماله ، وأعاناه على حوائجه ، وعداً إليه شاكرًا .

عن محمد بن عبد الله بن يحيى بن خاقان قال : بعثني أبي إلى المعتضد في

شيء ، فقال لى : اجلس . فاستعظمت ذلك ، فقلت إنه لا يجوز ، فقال لى :
يا محمد ، إن أدبك فى القبول منى خير من أدبك فى قيامك .

قال رجل لأبى خليفة الجمحى : ما أحسبك تنسبى ، قال : وجهك يدل
على علو نسبك ، والإكرام يمنع من مسألتك ، فأوجد السبيل إلى معرفتك .
قال أبو تمام :

يحميه لآ لاؤه • ولوذ عيته • من أن يقال بمن أو بمن الرجل ؟
وفى معناه

ارم بعينيك فى مفارقنا ففقد التاج غير ملتئم
المعري :

ولو كنتموا أنسابهم لعزتهم • وجوه وفعل شاهد كل مشهد
ابن عباس : جليسى على ثلاث : أن أرميه بطرفى إذا أقبل ، وأوسع له
إذا جلس ، وأصفى إليه إذا حدث .

زار الخليل بعض تلامذته فقال له : إن زرتنا فبفضلك ، وإن زرتناك
فلفضلك ، فلك الفضل زائرا ومزورا .

أراد رجل أن يقبل يد هشام بن عید الملك فقال : لا تفعل ، فإنما يفعله
من العرب الطمع ومن العجم الطبيعة .

قال رجل للنصور : أعطى يدك أقبلها ، قال : إنا نصونك عنها ، ونصونها
عن غيرك .

سأل بعض أصحاب أبى حنيفة الشافعى عن مسألة ، فأجاب عنها ، فقال له :
أخطأت . فقال : لو كنت مكانك ثم كنتك بمثل ما كنتنى لاحتجت إلى أدب .

كان أردشير إذا تمطى قام سُماره ، وكان قباز إذا رفع رأسه إلى السماء قاموا .
 بهرام جور : إذا لم تصد قلوب الأحرار بالبشر والبر فبأى شيء تصيدها ؟
 معاوية : نكحت النساء حتى ما أفرق بين امرأة وحائط ، وأكلت الطعام
 حتى لا أجد مأمرًا به ، وشربت الأشربة حتى رجعت إلى الماء ، وركبت المطايا
 حتى إخترت نعلى ، ولبست الثياب حتى إخترت البياض ، فما بقى من اللذات
 ماتتوفى إليه نفسى إلا محادثة أخ كريم .

ليبد :

ما عاتب المرء اللبيب كنفه والمرء يصلحه المجلس الصالح
 ٢ — وقال فى القصص والمتصوفة (١) :

خباب بن الأرت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن بنى إسرائيل لما
 قصوا هلكوا .

ابن عمر رضى الله عنه : لم يقص على عهد رسول الله ولا عهد أبى بكر ولا
 عهد عمر وعثمان ، وإنما كانت القصص حين كانت الفتنة .
 ابن المبارك : سألت الثورى : من الناس ؟ قال : العلماء ، قلت : من الأشراف ؟
 قال : المتقون ، قلت : من الملوك ؟ قال : الزهاد ، قلت : من الفוגاء ؟ قال :
 القصاص الذين يأكلون أموال الناس بالكلام .
 وهب رجل لقاص خاتما بلا فص ، فقال : وهب الله لك فى الجنة غرفة
 بلا سقف .

قال ابن السَّمَّاء للمتصوفة : إن كان لباسكم هذا مواقفًا لسرايركم لقد أحببتم
 أن يطلع الناس على سرايركم ، ولئن كان مخالفا لسرايركم لقد هلكتم .
 قال بعضهم : قلت لصوفى بمعنى جبتك . فقال إذا باع الصياد شبكته فبأى
 شيء يصيد ؟

٣ — وقال في النساء ومعاشرتهن ^(١) : —

عوتب الكسائي في ترك الزواج فقال : مكابدة العفة عنهن أيسر من الاحتياج لمصلحتهن .

قيل لأعرابي يجمع بين ضرائر : كيف تقدر عليهن ؟ قال : كان لنا شباب يطاوعهن علينا ، ومال يصورهن إلينا ، ثم قد بقي لنا خلق حسن ، فنحن نتعاسر به .

خطب بنت دقيانوس غنى وفقير ، فاختر الفقير ، فسأله الإسكندر ، فقال : كان الفتى جاهلا وكان يخاف عليه الفقر ، والفقير عاقلا فكان يرجي له الغنى .

قال مصعب لسكينة : أنت مثل البغلة لاتلدين . قالت : لا والله ولكن أبى كرمى أن يقبل لؤمك .

الأحنف : لأفنى تمسكك في بدى أحب إلى من أئيم رددت عنها كفنا . قال عمر رضى الله عنه لرجل هم بطلاق امرأته وزعم أنه لا يحبها : أو كل البيوت تبني على الحب ، فأين الرعاية والتدسم ؟ .

قال عبد الملك لابن الرقاع : كيف علمك بالنساء ؟ قال : أنا والله أعلم بهن ، وأنشأ يقول :

قُضَاعِيَّةُ الْعَيْنِينَ كَنْدِيَّةُ الْحَشَا خُرَاعِيَّةُ الْأَطْرَافِ طَائِيَّةُ الْقَم

لَهَا حَكَمُ لَقْمَانٍ وَصُورَةُ يَوْسُفَ وَمَنْطَقُ دَاوُدَ وَعِفَّةُ مَرْيَمَ

سئل المغيرة بن شعبة عن النساء ، فقال : بنات العم أحسن مواساة ، والفرائب أنجب ، وما ضرب رهوس الأقران مثل ابن السوداء .

أبو عمرو بن العلاء عن رجل : لا أتزوج امرأة حتى أنظر إلى ولدى منها . قيل : وكيف ؟ قال : أنظر إلى أبيها وأُمها فإنها نجى بأحدهما .

الفصل العشرون

في روضة الشعر

خلف الزنجشري ديوان شعر في ١١٩ ورقة^(١)، جمع قصائده استجابة لمشورة ابن وهاس كما ذكر في المقدمة .

فأما موضوعات هذا الديوان فاهمها :

١ - المدح ، ففيه مدحه للرسول صلى الله عليه وسلم^(٢) ، ومدائح لابن وهاس^(٣) ، ولنظام الملك^(٤) ، وللملك سنجر^(٥) ، ولعبيد الله بن نظام الملك^(٦) ، ولعبد الله^(٧) ولعمين الدولة^(٨) ، ولجبر الدولة^(٩) ، ولقنغر المعالي^(١٠) ، وللوزير محمد^(١١) ، وللموفق^(١٢) ، ولمحمد خوارزمشاه^(١٣) ، ولمحمد بن أبي الفتح السلجوقي^(١٤) ، ولبنى زريق بهمدان فقد زارهم أيام إقامته بالحجاز^(١٥)

٢ - الشكوى من الزمان ومن الناس ومن معاندة الحظ .

٣ - الغزل .

(١) راجع مؤلفاته	(٢) الديوان ٨٩
(٣) الديوان ٢٧	(٤) الديوان ٩٤
(٥) الديوان ٢٠	
(٦) الديوان ٧ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٨٩ ، ٩٧ ، ١٠٦	
(٧) الديوان ١٤ ، ٣٢ ، ٣٨ ، ٩٩ ، ١٠٥	
(٨) الديوان ١٥	(٩) الديوان ٢٢
(١٠) الديوان ٢٧	(١١) الديوان ٣٣
(١٢) الديوان ٧٤	(١٣) الديوان ٨٢ ، ١٠٦
(١٤) الديوان ٨٥	(١٥) الديوان ١١٠

- ٤ — الفخر .
- ٥ — الحكمة .
- ٦ — التزهيد .
- ٧ — المراسلات والرد على الإخوان والشوق إليهم .
- ٨ — الحنين إلى مكة .
- ٩ — الرثاء ، كرتائه لمحمد بن أرسلان^(١) ولنسراج الدولة^(٢) ولابن سميان^(٣)

خصائص شعره

١ — أما الطابع العام^(٤) لشعر الزمخشري فإنه شعر عالم امتزجت نفسه بالحقائق العلمية وقضاياها ، وأخذ نفسه بمجد الحياة وواقعها ، فكان ينبوع عواطفه وشلا تارة وناضبا تارة ، وقلما تفجر دافقا فياضا ، فجاء خياله من القريب الذي لا يحلق في الآفاق البعيدة ، وجاءت صورته تكريرا للمارسم سابقوه . .
وأما أسلوبه فرصين جزل لا تحس فيه بضمف أو تهافت في أية قصيدة من قصائده .

٢ — وهو يبدأ بعض مدائمه بغزل تمهيدى لا حرارة فيه ، على طريقة كثير من القدماء ، كقوله في مدح الوزير مجير الدولة الأردستاني^(٥) :
أيا حبذا سُعدى وَحُبَّ مُقَامِهَا وَيَا حَبِذَا أَيْنَ اسْتَقَلَّ خِيَامِهَا
حَيَاتِي وَمَوْتِي قَرَبُ سَعْدِي وَبُعْدُهَا وَعِزِّي وَذُلِّي وَضَلُّهَا وَانْصِرَامِهَا
سَلامَ عَلَيْهَا أَيْنَ أُمَسْتُ وَأَصْبَحْتُ وَإِنْ كَانَ لَا يُقْرَأُ عَلَى سَلامِهَا

(١) الديوان ١٦ ، ٢٢ (٢) الديوان ٣٦

(٣) الديوان ٧٠

(٤) حينما كنت أقرأ مخطوطة الديوان لأكتب في تفصيل عن شعر الزمخشري عرض على أحد أبنائي من طلبة الدراسات العليا أن يمد رسالته عن الزمخشري الشاعر وتحقيق ديوانه بإشراف ، فاكفيت بهذه الإشارات .

(٥) إنباه الرواة ٢٦٧/٣ وقال إن الوزير خلع عليه وأعطاه فرسا وألف دبنار

(م ١٩ — الزمخشري)

رعى الله سرحاً قدرعى فيه سرحها ورَوْضَ أرضاسام فيها سوامها^(١)
 إذا سَحَبَتْ سَعْدَى بأَرْضِ ذِيولها فقد أرغَمَ الْمَسْكَ الذَّكَّى رَغَامُها^(٢)
 وإن مَابَسَتْ قَضبانَ بانِ رأيتُها تنكَّسُ واستعلى عليها قوامها
 ويمثل هذا الغزل بدأ مدحته لصدر الملك^(٣) .

٣ - ويقدم لبعضها بالشكوى من سوء حاله ، والفخر بعلومه وأدبه ،
 والسخط على الدهر الذى جاد على الجهال ، وبخل على العلماء ، كقوله فى مِدْحَةِ
 لنظام الملك^(٤) :

خَلِيلِيْ هَلْ تَجِدُنِيْ عَلَى فُضَائِلِيْ إِذَا أَنَا لَمْ أَرْقَعْ عَلَى كُلِّ جَاهِلٍ ؟
 مِنَ النَّبِيِّ ذُو تَقْصٍ يَصِيبُ مَنَازِلَا أَخُو الْفَضْلِ مُحَقَّقٌ بِتِلْكَ الْفُضَائِلِ
 وَمَنْ لِيْ بِمَحَقٍّ بَعْدَ مَا وَفَّرْتُ عَلَى أَرَادَهَا الدُّنْيَا حَقُوقَ الْأُمَائِلِ ؟
 كَذَا الدَّهْرُ كَمْ شَوْهَاءٍ فِي الْخَلْقِ جِيدَهَا وَكَمْ جِيْدٍ حَسَنَاءٍ الْمُقْلَدِ غَاطِلِ
 وَمَا شَجَانِيْ أَنْ تُغَرِّمَنَّا قَبِي تَفْنَىٰ بِهَا الرِّكْبَانُ بَيْنَ الْقَوَافِلِ
 وَطَارَتْ إِلَى أَقْصَى الْبِلَادِ قَصَائِدِي وَسَارَتْ مَسِيرَ النُّبَرَاتِ رَسَائِلِي
 وَلِيْ فِي دَقِيقِ النَّحْوِ وَالنَّقْدِ مَنَطِقٌ إِذَا قَلَّتْ لَمْ أَبْقِ قَوْلَا لِقَائِلِ
 غَنَىٰ مِنْ الْأَدَابِ لَكُنِّي إِذَا نَظَرْتُ فَمَا فِي الْكَفِّ غَيْرُ الْأَنَامِلِ
 فَيَا لَيْتَنِي أَصْبَحْتُ مُسْتَفْنِيَا وَلَمْ أَكُنْ لَحْزَ خُورَزْمٍ وَرَأْسَ الْأَفَاضِلِ
 وَيَا لَيْتَنِي مُرِّضٌ صَدِيقِي وَمُسَخِّطٌ عَدُوِّي وَأُنَىٰ فِي فَهَاةِ بَاقِلِ

(١) سرحها : ليلها وأنعامها . سام فيها سوامها : رعت فيها ليلها .

(٢) الرغام : التراب .

(٣) الديوان ١٢

(٤) الديوان ٩٤

فلستُ بفضلِي بالفأولواني كقسٍ إبادٍ أو كحبانٍ وائل
ويصرح بطلب المعطاء في بعض المدائح ، كقوله لنظام الملك ^(١) :

وكم قلت ألقى في وزارتك النوى وأدرك وحدي ما أرتجى كل أمل
ولم أدر أن الأرذلين يرون ما تمنوا وأنى لست أحظى بظائل
فوقع إلى هذا الزمان فإنه غلامك يجمعني كبعض الأراذل
وقوله في مدح عبيد الله ^(٢) :

لقد ظفقت في نجمد البلاد وغورها فما كان إلا بالوزير مفرجى
وما أرتجى إلا عطية كفه وهل غير هذى الكف كف لمرتجى ؟
وقوله ^(٣) :

وابذل لأهل الفضل منك مودة فابن الفضائل لابنهن ودود
ومتى بذلت لهم ودادا فليكن متخصصا بزيادة محمود
ونلاحظ أنه لم يقتصر على الطلب الصراح ، بل جهر بأن يؤثره وحده في
قوله : « وأدرك وحدي ما أرتجى كل أمل » .

وطالب بأن يكون أعظم نوالا من سواه في قوله :

ومتى بذلت لهم ودادا فليكن متخصصا بزيادة محمود
وهو في هذا الطلب الصراح يشبه جريراً في قوله لعبد الملك بن مروان ^(٤) :

أغثنى يافداك أبى وأمى بسبب منك إنك ذو ارتياح
سأشكر إن رددت على ريشى وأنت القوادم في جناحى

(١) الديوان ٩٤

(٢) الديوان ٢٢

(٣) الديوان ٣٥

(٤) الأغاني ٦٥/٥

وقوله لعمر بن عبد العزيز^(١) :

إني لآمل منك خيراً عاجلاً والنفسُ مولمةٌ بحب العاجل
والله أنزل في الكتاب فريضةً لابن السبيل وللفقير العائل

ويشبه المتنبي في قوله لكافور^(٢) :

أبا مسك هل في الكأس فضل أناله فإني أغنى منذحين وتشرّب
وهبت على مقدار كفى زماننا ونفسى على مقدار كفىك تطلب
وقوله له^(٣) :

أرى لى بقرى منك عينا قريبة وإن كان قربا بالبعدا يُشاب
وهل نافعى أن ترفع الحجب بيننا ودون الذى أملت منك حجاب؟
وفى النفس حاجات وفيك فطانة سكوتى بيان عندها وخطاب

٤ — ويبرع فى حسن التخلص من الغزل التمهيدى إلى المدح ، فيصور
نفسه منهض الجناح من كثرة ما صوب الدهر إليه سهامه ، ولكنه صار فى
رعاية الأمير الذى يقيه سهام الدهر وخطوبه ، فيقول^(٤) :

أزعموا السيرُ بكرةً واستقلّوا سقط الفيث حيث ساروا وحلّوا
استقلّوا فكيف لى بحياة ولقدِمتُ قبل أن يستقلّوا
استحلّوا دى وفى صلاحٍ ودم الصالحين لا يستحل
غلبتى الدئى وهن ضعف ربما يقلبُ الأعزَّ الأذل
واستنزلت سعادنى رزينا ثابت الحلم والحليم يذل

(٢) ديوان المتنبي ١/١٢٦

(٤) الديوان ١٠٢

(١) ديوان جرير ٤١٥

(٣) ديوان المتنبي ١/١٣٩

لَا تَرَوْكُمْ كِسْرَةً يُجْنَحِي إِنَّمَا يُمدِّحُ البِمانِي الأَفَلَّ
عِجْمَتُ عودى النواذبِ قَدْماً تلك آثارها على تَدَلَّ
وأنا اليوم إن عرتنى خطوت فلأنيابها الأمير الأجل
إنما حضرة الأمير لمن يشكو صروف الزمان شمس وظل
كما يحسن التخلص من الشكوى إلى المدح ، فإنه في قصيدته التي مدح بها
نظام الملك^(١) صور آلامه من تعاسة حالته ، وازدهى بثقافته وكفايته ، وعجب
من التفاضى عنه ، والخنو على غيره ، وتخلص من هذا إلى المدح بقوله :

وما حق مثلى أن يكون مُصَيِّعاً وقد عظمت عند الوزير وسائلى
وأعظمها أنى نسيب نصابه إذا عُرِضَتْ أنساب هذى القبائل
وقد كان يرعى الناس حتى قبله على عَدَمِ القربى وبُعْدِ الوصائل

هـ - ويعنى بالمحسنات ، كما ترى الطباق في البيت الثانى من الغزل بين حياتى
وموتى ، وبين قرب وبعد ، وعز وذل ، ووصل وانصرام ، وكأترى في البيت الثالث
بين (سلام عليها) و (إن كان لا يقرأ على سلامها) وبين أمست وأصبحت .
وتجد الجناس في البيت الرابع بين (رعى الله) بمعنى حفظ من الرعاية
و (رعى فيه سرحها) من الرعى والأكل ، وبين (سرحا) و (سرحها) وبين
(رَوْض) و (أرضا) و (سام) و (سوام) .

وهذا الكلف بالمحسنات واضح في قوله يمدح بنى زريق^(٢) :

كم قلت في خور زَمَ عند ترَحُّلى لركائبي سبرى إلى همدانا
وإلى الكرام بنى زريق لم تزل تجفو بنات غرير الأوطانا^(٣)

(١) سبقت أبيات منها في طريقته التي بدأ بها قصائد المدح .

(٢) الديوان ١٢٠ (٣) بنات غرير : الطيور

وبنو زرير ما تُزَرُّ ثيابهم إلا على المَضْبَات من ثَهْلَانَا

٦ — وهو حين يعبر عن عاطفة صادقة جياشة يتحرر من المحسنات المتصيدة ،
لأنه يندمج مع الفكرة أو مع الشعور ، كقوله في تصوير ضيقه بالإقامة في
خوارزم ^(١) :

أَحَبُّ بِلَادِ اللَّهِ شَرْقًا وَمَغْرِبًا إِلَى الَّتِي فِيهَا تُغْذِي وَلِيدَا
ولكن تواسى بالكرامة غيرها وهذى أرى فيها الهوان عتيدا
وما منزل الإذلال للحر منزلا وإن كان عيش الحرفيه رغيدا
سأرحل عنها ثم لست براجع وأضربُ مرعى في البلاد بعيدا
فلا كنت إن ضُمتُ فيها ابنَ حرة ولا عشت بين الصالحين حميدا
وقوله وهو قاصد مكة عازم على الإقامة بها حتى الموت ^(٢) :

قامت لتمنعي المسير تُماضِرُ أَنَّى لَهَا وَغِرَارُ عَزَمِي بَاتِرُ
سبى تماضر حيث شئتِ وَحَدَّتْ أَنَّى إِلَى بَطْحَاءِ مَكَّةِ سَائِرِ
حتى أنيخ وبين أطاري فتي للكعبة البيت الحرام نجاور
سأقيم ثمَّ وثمَّ تُدْفَنُ أعظمي ولسوف يبعثنى هناك الحاشر
وقوله في مدح ابن وهَّاس ^(٣) :

فَتَى هُوَ حَالٍ بِالْمَعَالَى بِأَسْرِهَا وَقَدْ حَلَيْتَ مِنْهُ الْمَعَالَى بِأَوْحَدَا
نَجِيبُ نَمَتُهُ مِنْ ذُوَابَةِ هَاشِمٍ نَقِيَّاتُ أَعْرَاقٍ أَطَابَتْهُ مَوْلَا
ولو شاء لم يمتدَّ مُجْتَدَ هَاشِمٍ نَصَابَا كَفَاهُ بِالنَّبْوَةِ مَحْتَدَا

(١) الديوان : ٣٧ .

(٢) الديوان : ٤٢ .

(٣) الديوان ٢٨

وتقرأ من سيماء في قسامة شهادة حق أنه سبط أحمد
هو الحر ما أصدى إلى بيض معشر فأبصره إلا تقف به الصدى
ولى منه نضع الجنب والمعدة التي أث أن يرى الرامون أوثق متقيدا

٧ — وقد يلجأ إلى المبالغة الدالة على نضوب العطفة ، كقوله في مدح
الملك سنجر^(١) :

سماء كل الناس كعبة سؤدد أهل الحوائج منهم حجاجها
وكانما السلطان سنجر كعبة للملك منتجب اللوك رتاجها
ركب السياسة وهي أصعب مركب فتطامت لركوبه أنتاجها
ألفقه دونهم فما إجماعها إلا على يده ولا إخراجها
لأنه ركب النجوم لما نبت أفرادها عنه ولا أزواجها
جهم الحيا للعدا طلق إذا ضيفانه نزلت به أفواجها
يخبر إليهم سنيته بأنامل مثل البحار تلاطمت أمواجها
تبني الحقيقة في أمورك كلها إن الحقيقة واضح منهاجها
لو أن عدلك شنته بمياها لارتدت كالعذب الفرات أجاجها

والمبالغة المفرقة واضحة في كثير من الأبيات وبخاصة البيت الخامس والتاسع.

٨ — وللمخشري حكم صاغها شعراً ، كما أن له حكماً كثيرة صاغها
نثراً ، ولكن حكمه الشعرية لا ترق إلى أوج حكم المتنبي وأبي العلاء ، لأنها
لا تصور دخائل النفوس ، واضطرار العواطف ومشكلات الأفراد والجماعات ،

والطب الناجع في علاج هذه المشكلات ، وإنما هي أقرب إلى الوعظ المألوف
والنصح المعتاد ، كقوله (١) :

ليسَ السيادةُ أكملًا مطرزةً	ولا مرا كيب يجرى فوقها الذهب
وإنما هي أفعال مذهبةٌ	ومكرماتٌ يليها العقل والأدب
وما أخو المجد إلا من بنى شرفاً	يوماً فهان عليه النفس والنَّشَب
وأفضل الناس حرٌّ ليس يغلبيه	على الحِجَا شهوة فيه ولا غضب

خاتمة المطاف

أما بعد ، فقد آن للقلم أن يتوقف بعد تطواف طويل الشقة ، لكنه رغب
الجهد ، حبيب المشقة ، لتبيين المعالم البارزة من الرحلة في صحبة الزمخشري .
فما هذه المعالم ؟ .

(١)

لقد طالعنا اللغة العربية وآدابها والعلوم الإسلامية وفروعها ناضرة
ناضجة في زمخشري مدينة وإقليم وفيما حولها ، وأشرقت علينا من سماء المنطقة
كلها نجوم شع علمها وأدبها على الشرق وعلى الغرب من بخارى إلى قرطبة ،
وما تزال أشعتها تثير الطرق للباحثين والدارسين .

(٢)

ورأينا اللغة العربية والثقافة الإسلامية لم تنتشر هنالك بحسب ،
بل استقرت استقراراً مطمئناً ، فصبغت مناطق واسعة شاسعة عدة قرون ،
ثم صارت كلها أو أكثرها اليوم من الاتحاد السوفيتي ، فباحسرتا عليها .
ومعنى هذا أن العرب لم يقوموا وحدهم بنشر لغتهم وثقافتهم ودينهم ، بل
إن سكان تلك الأقاليم شاركهم إذ سارعوا إلى الإسلام فاعتنقوه ، وأقبلوا
على علومه ، وبادروا إلى اللغة العربية فأداروا بها ألسنتهم ، وأجروا أعلامهم ،
واصطفوها لغة لهم ، ثم اندمجوا في آدابها وثقافتها فانتقلوا إلى العروبة انتقالاً ،
وإن شئت فقل إنهم استعربوا استعراباً ، حتى صاروا ينافسون العرب في
الإنتاج بالعربية ، والتأليف فيها ، والنوص إلى أسرارها ، وكان كثير من
الأمراء والوزراء كلوا بالعلوم العربية والإسلامية ، حفيّاً بالأدب والأدباء ،
حتى لكانهم بنو العباس في عصرهم الذهبي ببغداد .

ورأينا الرحلة في طلب العلم أجدى وسائل طلابه ، إذ كان العالم الحجة مقصد العطاش إلى المعرفة يؤمنونه من بلاد نائية ، كما تنقل الزمخشري من إقليم إلى آخر ، واستقى من مدينة بعد مدينة ، ودرس على هذا وسمع من ذاك ، ولم يأنف - وقد بلغ مرتبة المناظرة للعلماء - أن يجلس من أستاذ كبير جلسة المتعلم المشوق إلى أن يجيزه أستاذه .

(٤)

وتبين لنا أنه كان مشغوقا بالمعرفة ، يتزود بها من الأساتذة تارة ومن الكتب تارة ، فتنوعت ثقافته ، وتميزت عقليته ، وتعددت مؤلفاته ، وكثر تلاميذه والمعجبون به ، فشغل معاصريه ومن بعدهم ، سواء في ذلك موافقوه ومخالفوه ، وما تزال بعض كتبه من المنابع الأصلية للفكر العربي الإسلامي إلى اليوم ، كالكشف وفنونه ، وأساس البلاغة وحقايقه ومجازاته ، والمفصل وشروحه .

(٥)

- وليس من التزيد في شيء أن نصف الزمخشري بأنه كان أرفع المعتزلة تأويلا للآيات القرآنية ، لتطابق مذهبهم . ومن حقه أن نشيد بأنه ما كان يريد من هذا التأويل الذي عنى به نفسه إلا أن يزه الخالق سبحانه وتعالى عن أية شبهة قد تنسب منها المشابهة لمخلوقاته أو المماثلة ، فقد كان الرجل عريق الدين ، عميق الإيمان ، عظيم التقوى ، غيوراً على الإسلام أشد الغيرة .

(٦)

كذلك كان الزمخشري أول من فرق بين علوم البلاغة وقسمها إلى معان وبيان ، وجعل البديع تابعا لهما وحلية ، ثم جراه في هذا التقسيم السكاكي ومن بعده إلى اليوم .

(٧)

وهو صاحب السبق إلى تأليف معجم لغوى مرتب على الحروف الهجائية ، هذا الترتيب الدقيق السهل الذي نجد في أساس البلاغة ، كما نجد شيئا به في كتابيه الآخرين الفائق والمستقصى .

(٨)

على أنه قد كان - وهو فارسي الأصل - مغرما باللغة العربية بفضلها على سائر اللغات ، ومؤثرا للعرب يرفهم إلى أسمى الدرجات ، لأنه ربط ربطا

وثيقاً بين العروبة والإسلام ، وبين حب العروبة والإسلام ، وكان يخشى من الشعوبية على البلاد التي أسلمت واستعربت ، لأن الذي ينطق على العرب اليوم سينطق على الإسلام في الغد ، ولأن وحدة اللغة والثقافة والعقيدة والحضارة والتاريخ والوجدان المشترك كلها دعائم وطيدة في حصن الإسلام ، يسند بعضها بعضاً ، فلا بد من الحفاظ عليها موصولة متساندة ، وإلا تطرق الوهن إلى الصرح الأثم الذي يترعب به أعداء الإسلام أيما ترعبس .

وعلى الذين يهتمون باللغة العربية بالعمق والجود أو النزارة أن يرجعوا إلى مؤلفات الزمخشري ، ليعلموا أن العربية ثرية مرنة تنور ، اتسعت في مؤلفاته للتعبير الدقيق عن قضايا التشريع وعلم الكلام والفلسفة والنحو والبلاغة ، وسلمت لنثره الفنى ولشعره ، كما وسعت العلوم التي مارسها سابقوه ومعاصروه ولاحقوه ، ولم تنعثر إلا حينما تعثر أهلها ، وتخلفوا عن مسيرة الزمن ، لأن اللغات لا تحيا وحدها بمعزل عن المجتمع الذي يتكلم بها ويقراء ويؤلف ويعبر . والخير لمن ينصرفون عن العلوم والآداب طموحاً إلى متاع زائل أن يتأسوا بالزمخشري ، إذ أنه قلق في أول حياته ، ثم تغلب على مثل هذا الطموح ، فانصرف إلى الإنتاج ، لأنه وجد فيه الجهد الذي لا يفتى ، والجاه الذي لا يحول ، والسعادة التي لا يرنقها شيء ، حتى لقد استعاض بمؤلفاته عن الزوجة والبنين ، بل فضلها عليهم تفضيلاً .

وإني لآمل أن تشرق علينا كتبه التي توارت ، فقد كان كتابه (المستقصى في أمثال العرب) محتجباً لم يطبع إلا منذ ثلاث سنوات ، ولعل فيها أوفى عدد منها فيضا غزيراً يروى الظامئين .

وأرجو أن يطبع ديوانه ، فإن به شعراً كثيراً يتراوح بين التوسط والجودة . وهو في حاله تصوير لبعض مظاهر المجتمع الذي عاصره ، ولبعض الأحداث التي مرت به ، وهو صورة لنفسه ، وأفنان في دوحة أدبه .

المراجع

- ١ — أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم . شمس الدين المقدسى . ليدن . سنة ١٩٠٢ .
- ٢ — أساس البلاغة . الزمخشري . مطبعة دار الكتب بالقاهرة (١٣٤١ هـ — ١٩٢٢ م)
- ٣ — أطواق الذهب في المواعظ والخطب . الزمخشري . بشرح الشيخ يوسف الأسير . الطبعة الثالثة بيروت سنة ١٣١٤ هـ
- ٤ — أعجب العجب في شرح لامية العرب . الزمخشري . الطبعة الثانية سنة ١٣٢٤ هـ .
- ٥ — الأعلام — الأستاذ خير الدين الزركلى . الطبعة الثانية .
- ٦ — أمالى المرتضى . السيد المرتضى . القاهرة سنة ١٩٠٧ .
- ٧ — إنباه الرواة على أنباء النحاة . القفطى . تحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم . مطبعة دار الكتب سنة ١٣٧٤ هـ . ١٩٥٥ م .
- ٨ — الأتموزج في النحو . الزمخشري . مطبعة الجوائب بالقسطنطينية سنة ١٢٩٩ هـ .
- ٩ — الانتصار أبوالحسين الخياط . القاهرة ١٩٢٥ م .
- ١٠ — الانتصاف من الكشاف . أحمد بن المنير السكندرى . على هامش الكشاف .
- ١١ — الأنساب . السمعانى . نسخة مصورة سنة ١٩١٢ م .
- ١٢ — إيران في عهد الساسانيين . كريستنس . ترجمة الدكتور يحيى الخشاب . القاهرة ١٩٥٧ م .

- ١٣ — البداية والنهاية في التاريخ . ابن كثير . مطبعة السعادة بمصر .
- ١٤ — البصائر والذخائر . أبو حيان التوحيدي . بتحقيق الأستاذين .
أحمد أمين والسيد طلبة صقر . مطبعة لجنة التأليف سنة ١٣٧٣ هـ . ١٩٥٣ م
- ١٥ — بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة . السيوطي . مطبعة السعادة .
سنة ١٣٢٦ هـ .
- ١٦ — البلاغة العربية : تاريخ وتطور . الدكتور شوقي ضيف . دار
المعارف سنة ١٩٦٥ . القاهرة
- ١٧ — البيان والتبيين . الجاحظ . تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون .
مطبعة لجنة التأليف سنة ١٣٦٧ هـ . سنة ١٩٤٨ م
- ١٨ — تاريخ آداب اللغة العربية . جورجى زيدان . دار الهلال
سنة ١٩٥٧ م .
- ١٩ — تاريخ آل سلجوق . العماد الأصفهاني . مطبعة دار التأليف بمصر .
- ٢٠ — تاريخ أبي الفدا . المطبعة الحسينية بمصر سنة ١٣٢٥ هـ .
- ٢١ — تاريخ الأدب في إيران . برون . ترجمة الدكتور أمين الشواربي .
مطبعة السعادة . سنة ١٣٧٣ هـ . سنة ١٩٥٤ م .
- ٢٢ — تاريخ الحضارة الإسلامية . ف . بارتولد . ترجمة الأستاذ حمزة طاهر .
مطبعة دار المعارف .
- ٢٣ — تاريخ الرسل والملوك . الطبري . المطبعة الحسينية بمصر .
- ٢٤ — تاريخ الفلسفة في الإسلام . دي بور . ترجمة الدكتور محمد أبو ريده .
القاهرة سنة ١٩٢٣ م
- ٢٥ — ثلاث رسائل في إعجاز القرآن . مطبعة دار المعارف .
- ٢٦ — ثلاث رسائل للجاحظ . نشرها يوشع فنكل

- ٢٧ — الجبال والأمكنة واللياه . الزغشري . ليدن سنة ١٨٥٥ م
- ٢٨ — الحضارة الإسلامية ومدى تأثيرها بالموثرات الأجنبية . فون كريم .
ترجمة الدكتور مصطفى بدر .
- ٢٩ — الحيوان . للجاحظ . تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون
- ٣٠ — الدولة الخوارزمية والمفول . الأستاذ حافظ حمدي . مطبعة الاعتماد
سنة ١٩٤٩ م
- ٣١ — الدولة العباسية . الأستاذ حسن خليفة . الطبعة الأولى .
- ٣٢ — ديوان جرير . مطبعة الصاوي بالقاهرة .
- ٣٣ — ديوان الزغشري . مخطوط بدار الكتب . أ د ب ٥٢٩ .
- ٣٤ — ديوان المتنبي . بشرح البرقوق . المطبعة الرحمانية بمصر سنة ١٣٤٨ هـ
- ١٩٣٠ م
- ٣٥ — ربيع الأبرار ونصوص الأخيار . الزغشري . مخطوط بدار الكتب
١٥٥٠ أ د ب .
- ٣٦ — الرحلة المغربية . محمد العبدري البنسي . تحقيق الأستاذ أحمد بن
جدو . نشر كلية الآداب الجزائرية
- ٣٧ — الرسالة القشيرية . القشيري
- ٣٨ — زرادشت الحكيم . الأستاذ حامد عبد القادر . مطبعة نهضة مصر
سنة ١٩٥٦ م .
- ٣٩ — شرح العميون في شرح رسالة ابن زيدون . ابن نباتة . تحقيق
الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم .

٤٠ — سلاجقة إيران والعراق . الدكتور عبد المنعم حسنين . القاهرة

سنة ١٩٥٩ م

٤١ — سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي . محمد بن أحمد النسوي ،
تحقيق الأستاذ حافظ حمدي مطبعة دار الفكر العربي سنة ١٩٥٣ .

٤٢ — شرح أدب الكاتب . الجواليقي . مطبعة القدس سنة ١٣٥٠ هـ .

٤٣ — شرح المفصل . موافق الدين يعيش بن علي بن يعيش . إدارة
الطباعة المنيرية بمصر .

٤٤ — ضحى الإسلام . الأستاذ أحمد أمين . مطبعة دار التأليف سنة
١٣٥٥ هـ . ١٩٣٦ م .

٤٥ — طبقات الشافعية الكبرى . السبكي . المطبعة الحسينية بمصر سنة ١٣٥٤ .

٤٦ — طبقات المفسرين . السيوطي . طبعة أوروبا .

٤٧ — الطراز . يحيى بن حمزة العلوي . مطبعة المقتطف سنة ١٣٣٣ هـ .
سنة ١٩١٤ م .

٤٨ — ظهر الإسلام . الأستاذ أحمد أمين . مطبعة لجنة التأليف سنة
١٩٤٥ هـ ١٣٦٤ م .

٤٩ — عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح . بهاء الدين السبكي .
من شروح التلخيص . القاهرة ١٣٤٢ هـ .

٥٠ — علم الأخلاق لأرسطو . ترجمة الدكتور أحمد لطفي السيد .

٥١ — عيون الأخبار . ابن قتيبة . مطبعة دار الكتب بالقاهرة .

٥٢ — الفائق في غريب الحديث . الزمخشري . تحقيق الأستاذين علي
البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم .

٥٣ - الفرق بين الفرق . البغدادى . مطبعة الحلبي ١٣٦٤ هـ . ١٩٤٥ م

٥٤ - فى علم النفس . الأستاذ حامد عبدالقادر والأستاذ محمد عطية الإبراشي

٥٥ - القاموس المحيط . الفيروز آبادى

٥٦ - قلائد الأدب فى شرح أطواق الذهب . لليرزا يوسف خان . مطبعة

التمدن بمصر سنة ١٣٢١ هـ

٥٧ - الكامل فى التاريخ . ابن الأثير . المطبعة الأميرية .

٥٨ - الكشف . الزمخشري . الطبعة الأولى بالمطبعة البهية المصرية ١٣٤٣ هـ

٥٩ - كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون . حاجى خليفة . الطبعة

لأولى سنة ١٣١١ هـ

٦٠ - لسان الميزان . ابن حجر العسقلانى . الطبعة الأولى بالهند سنة ١٣٣١ هـ

٦١ - مجموعه رسائل للجاحظ . طبعة ساسى

٦٢ - محاضرات فى تاريخ الدولة العباسية . محمد الخضرى . الطبعة

الرابعة سنة ١٣٥٣ هـ سنة ١٩٣٤ م

٦٣ - مختصر تاريخ العرب . سيد أمير على . مطبعة لجنة التأليف ١٩٣٨ م

٦٤ - مرآة الجنان وعبرة اليقظان . أبو محمد عبدالله بن أسعد الياقنى .

الطبعة الأولى بمطبعة دائرة المعارف النظامية بحيدر آباد الدكن ١٣٣٨ هـ .

٦٥ - المستقصى فى أمثال العرب . الزمخشري . مطبعة حيدر آباد الدكن

سنة ١٣٨١ هـ - سنة ١٩٦٢ م

٦٦ - معجم الأدباء . ياقوت . طبعة الدكتور فريد رفاعى

٦٧ - معجم البلدان . ياقوت . مطبعة السعادة بمصر ١٩٠٦ م

٦٨ - مفاتيح الغيب . الفخر الرازى . المطبعة الأميرية ١٢٨٩ هـ

٦٩ - مفتاح العلوم - السكاكى .

- ٧٠ - مقامات الزمخشري . بشرح الزمخشري . الطبعة الثانية بمصر ١٣٢٥ هـ .
- ٧١ - مقدمة الأدب . الزمخشري . القسم الأول والثاني . مطبعة ليبسيك ١٨٤٣ م والقسم الثاني إلى الخامس مخطوط بدار الكتب ٢٧٢ لغة .
- ٧٢ - مقدمة ابن خلدون . تحقيق الدكتور على عبد الواحد وافي . مطبعة لجنة البيان العربي بمصر
- ٧٣ - الملل والنحل . الشهرستاني . طبعة الجمعية الفلسفية بمصر .
- ٧٤ - منهج الزمخشري في تفسير القرآن . الدكتور مصطفى الجويني . دار المعارف
- ٧٥ - المنية والأمل في شرح كتاب الملل والنحل المرتضى . مطبعة دائرة المعارف النظامية بحيدر آباد الدكن ١٣١٦ هـ
- ٧٦ - مذهب رحلة ابن بطوطة . الأستاذ أحمد الموماري والأستاذ محمد أحمد جاد المولى . المطبعة الأميرية بالقاهرة سنة ١٩٣٩ م
- ٧٧ - المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار . المقرئ . القاهرة ١٣٢٦ هـ
- ٨٧ - ميزان الاعتدال في معرفة الرجال . شمس الدين الذهبي . مطبعة السعادة سنة ١٣٢٥ هـ
- ٧٩ - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة . ابن تقي بردي . مطبعة دار الكتب سنة ١٣٥٣ هـ - سنة ١٩٣٥ م
- ٨٠ - نزهة الألباء في طبقات الأدباء . ابن الأنباري . طبعة مصر سنة ١٢٩٤ هـ
- ٨١ - نقد العلم والعلماء . ابن الجوزي . مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٤٠ هـ (م ٢٠ - الزمخشري)

٨٢- نوايغ الكلم . الزمخشري . الطبعة الأولى بمصر سنة ١٣٣٢ هـ -

سنة ١٩١٤ م

٨٣- وفيات الأعيان . ابن خلكان . تحقيق الأستاذ محمد محي الدين عبد

الحيد . القاهرة ١٩٤٨ م

٨٤- بتيمة الدهر . الثعالبي . المطبعة الحنفية بدمشق سنة ١٣٠٠ هـ

الفهرس

مقدمة ٣

تمهيد

يُنشئه

١ - خوارزم ٥ - ٩

موقعها ، مكائنها بعد الفتح ، وصفها قديما : وصف المقدسى ، وصف
ياقوت ، وصف ابن بطوطة ، بعض مدنها ، مدينة زرخشر .

٢ - الحياة السياسية ٩ - ١٤

خضوع البلاد للحكم العربى مدة ، خضوعها للدولة السامانية ، عناية
السامانيين باللغة الفارسية واللغة العربية ، حدبهم على السنة .

خضوعها للدولة السلجوقية ، آثار الوزير نظام الملك فى تشجيع العلوم
والآداب .

خضوعها للدولة الخوارزمية ، السلاطين الذين أدركهم الزرخشرى :

٣ - الحياة الثقافية ١٥ - ٣٤

كلمة عامة عن استعراب أقاليم خراسان وخوارزم وما وراء النهر ، كثرة
العلماء والمؤلفين والمدارس والمكتبات هناك ، تشجيع الحكام للحركة
الفكرية والأدبية ، ميزة أهل خوارزم فى اتجاههم الفكرى .

لمحة إلى إقليم خوارزم خاصة (١٦)

غنى الإقليم بالعلماء والأدباء ، كلف السلاطين بتشجيع العلم والآدب ،

ديوان الإنشاء ، إنتاج العلماء والأدباء بالفارسية والعربية ، أمثلة لهم ، مناهج المؤلفين في النحو والصرف والعروض ، منهمجهم في اللغة ، منهمجهم في البلاغة .
 المعتزلة (٢٢) . كثرتهم بالعراق وفارس وخراسان وما جاورها ، تأييد البويهيين لهم ، غلبة الاعتزال على خوارزم .
 القضاء (٢٥) : غلبة مذهب أبي حنيفة ، نظام التقاضى .

لمحة إلى المنطقة كلها (٢٦)

كثرة العلماء والمؤلفين والأدباء ، جهود البويهيين والسامانيين والسلجقة في تنشيط العلم والأدب ، فضل الوزير نظام الملك ، المكتبات وأثرها ، علماء الحديث والفقه ، علماء اللغة والأدب ، الفلاسفة ، المتصوفة .

الفصل الأول

٣٥ - ٤٧

حياته

نسبه ، مولده ، دراسته بزغشهر ، رحلته إلى بخارى (٣٥) مدحه نظام الملك ، دلالة هذا المدح (٣٦) لماذا لم ينل ما أراد ؟ بأسه واتجاهه إلى خراسان ، مدحه بعض رجال الدولة (٣٨) دلالة هذا المدح (٣٩) رحلته إلى أصفهان عاصمة السلجقة ، مدحه ملكها (٤٠) بأسه من هؤلاء جميعا ، عزمه على الترفع والعكوف على التأليف ، رحلته إلى بغداد (٤١) اتجاهه إلى مكة ليقم بها ، حفاوة أميرها ابن وهاس به (٤٢) اطمئنانه إلى الإقامة بمكة ، زيارته همدان (٤٣) تطوافه بالجزيرة ، عودته إلى وطنه ، لومه نفسه على هذه العودة (٤٤) رجوعه إلى مكة ، تعريجه على الشام ، تشجيع ابن وهاس له على تأليف الكشاف (٤٥) سفره إلى خوارزم ، تعريجه على بغداد (٤٦) إقامته بخوارزم حتى الوفاة (٤٧) .

٥١ — ٤٨

الفصل الثاني

أساتذته

أبو مضر محمود بن جرير الضبي (٤٨) ، علماء بخارى ، أبو منصور الحارثي ، أبو سعد الشقاني ، أبو الخطاب بن أبي البطر (٤٩) أبو علي الحسن بن المظفر النيسابوري (٥٠) الدامغاني ، ابن الشجري ، أبو منصور ابن الجواليقي ، عبد الله ابن طلحة الياقبي (٥١) .

٥٥ — ٥٢

الفصل الثالث

تلاميذه

كثرة تلاميذه في خراسان والعراق وخوارزم . أمثلة لهم (٥٢ — ٥٤) استجازة بعضهم له (٥٤) تلاميذ كتبه (٥٤) .

٦٣ — ٥٦

الفصل الرابع

مؤلفاته

جهود خوارزم في حماية الإسلام ، آثار النهضة العلمية والأدبية التي بلغت أوجها في القرن الرابع (٥٦) شغف الزمخشري بالدرس والبحث ، فراغه للعلم ، استعاضته بكتبه عن النسل (٥٧) .

مؤلفاته في العلوم الدينية ورجالها (٥٨)

مؤلفاته في اللغة (٥٩)

مؤلفاته في النحو (٦٠)

مؤلفاته في العروض (٦١)

مؤلفاته في الأدب (٦١)

٩٨ - ٦٤

الفصل الخامس

معالم شخصيته

معنى الشخصية (٦٤) صفاته الجسدية (٦٥) شغفه بالتقافة (٦٥) اعتزاله (٦٧) عزه نفسه (٧٠) بين الطموح والقناعة (٧٣) تدينه (٧٨) تواضعه (٨٤) حبه للعرب والعربية (٨٨) قسوته على مخالفيه (٩١) عزوبته (٩٦)

٢٤٤ - ٩٩

الفصل السادس

في رحاب التفسير والتأويل

لمحة إلى التفسير قبل الزمخشري (٩٩) علة المفسر في رأى الزمخشري (١٠٠) تأثره بعبد القاهر الجرجاني (١٠٢) المعتزلة الذين سبقوه إلى التأويل (١٠٣) القاضي عبد الجبار الهمداني وجهوده (١٠٤) .

الكشاف

الباعث على تأليفه (١٠٨) بعض من نقل عنهم : القاضي عبد الجبار ، مجاهد ، عمرو بن عبيد (١٠٩) أبو بكر الأصب ، الزجاج (١١٠) الرماني ، عبد الله بن دستوريه ، سيبويه ، الجاحظ ، الواقدى ، ماث من القراء واللغويين والنحاة والفقهاء والمفسرين (١١١)

أهم مباحث الكشاف

أولاً - في خضم المعتزلة

لمحة إلى المعتزلة ونشأة مذهبهم (١١٢)
أصول المعتزلة وكيف أيدها الزمخشري (١١٩)

(١) التوحيد

معناه عندهم (١١٩) معتقدات بنوها على التوحيد :

١ - نفي الصفات المستقلة القديمة (١٢٠)

٢ - نفي التشبيه (١٢١) .

تأويل الزمخشري لقوله تعالى: « ولما جاء موسى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي » ، تعليق ابن المنير (١٢١) .

تأويله لقوله تعالى: « ثم جعلناكم فِئًا فِي الْأَرْضِ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ »

(١١٢) تعليق ابن المنير (١٢٣)

تأويله لقوله تعالى: « وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا، وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ » ، تعليق ابن المنير (١٢٣) .

تأويله لقوله تعالى: « وما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ » (١٢٤) تعليق ابن المنير (١٢٥) .

تأويله لقوله تعالى: « الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى » (١٢٥) .

تأويله لقوله تعالى: « إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ، يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ » (١٢٦)

تأويله لقوله تعالى: « وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ » (١٢٦) .

تأويله لقوله تعالى: « وَبِقِي وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ » (١٢٦)

تعليق ابن المنير (١٢٧)

٣ - إنكارهم رؤية المبادئ في الآخرة .

تأويل الزمخشري لقوله تعالى: « ولما جاء موسى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ، قَالَ لَنْ تَرَانِي » (١٢٧) ، تعليق ابن المنير (١٣٠)

تأويله لقوله تعالى : « لا تُدرِكُه الأبصار » (١٣٤) تعليق ابن المنير (١٣٤)

تأويله لقوله تعالى : « وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ » (١٣٥)
٤ — رأيهم في أن القرآن مخلوق

تأويل الزمخشري لقوله تعالى : « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله » (١٣٦) تعليق ابن المنير (١٣٧)

(٢) العدل

١ — معناه عندهم (١٢٧) تأويل الزمخشري لقوله تعالى : « إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ، وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ ، وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ » (١٣٨) تعليق ابن المنير (١٢٩)

٢ — نظرية الصلاح والاصلاح (١٤٠) تأويل الزمخشري لقوله تعالى : « وَهَلَى اللَّهُ قَصْدُ السَّبِيلِ ، وَمِنْهَا جَائِرٌ ، وَلَوْ شَاءَ لَهْدَاكُمْ أَجْمَعِينَ » (١٤١) تعليق ابن المنير (١٤١) .

تأويله لقوله تعالى : « فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُور ، فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى » (١٤٢)

تأويله لقوله تعالى : « لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ » (١٤٢) تعليق ابن المنير (١٤٣)

تأويله لقوله تعالى : « ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة . . . » (١٤٣) تعليق ابن المنير (١٤٣)
تأويله لقوله تعالى : « هـ الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن » (١٤٤) .

٣ — نظرية الحسن والقبح الذاتية (١٤٤)

تأويل الزمخشري لقوله تعالى : « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » (١٤٥) تعليق ابن المنير (١٤٦) .

تأويله لقوله تعالى : « وما كان الله لِيُضِلَّ قوماً بعدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ ما يَتَّقُونَ » (١٤٦) تعليق ابن المنير (١٤٧) .

تأويله لقوله تعالى : « ونفسٌ وما سواها فألهمها فجورها وتقواها » (١٤٧) تعليق ابن المنير (١٤٧) .

(٣) حرية العباد

معنى هذه الحرية (١٤٨) تسميتهم أنفسهم أهل العدل (١٤٨) لماذا أطلق عليهم خصومهم لفظ القدرية (١٤٨) تبرؤهم من هذه التسمية ، أدلهم على مذهبهم (١٤٩) توسط الأشعرى بين مذهبهم ومذهب الجبرية (١٥٠) .

تأويل الزمخشري لقوله تعالى : « ربنا لا تزغ قلوبنا بعدَ إِذْ هَدَيْتَنَا » (١٥٠) تعليق ابن المنير (١٥٠) .

تأويله لقوله تعالى : « ومن يُرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً » (١٥١) تعليق ابن المنير (١٥١) .

تأويله لقوله تعالى : « وقال الشيطانُ لما قَضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الحَقِّ ، ووَعَدَكُمْ فَأَخْلَفَكُمْ » (١٥١) تعليق ابن المنير (١٥٢) .

تأويله لقوله تعالى : « ولو شاء ربك لَجَمَعَ الناسَ أُمَّةً واحدةً » (١٥٣) .

تأويله لقوله تعالى : « ونفسٌ وما سواها فألهمها فجورها وتقواها » (١٥٣) تعليق ابن المنير (١٥٤) .

(٤) الوعد والوعيد

معناها (١٥٥) تأويل الزمخشري لقوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ » (١٥٥) تعليق ابن المنير (١٥٦) .

تأويله لقوله تعالى : « وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فُجِرَ آوَهُ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا » (١٥٧) تعليق ابن المنير (١٥٧) .

تأويله لقوله تعالى : « وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا، وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ » (١٥٨) تعليق ابن المنير (١٥٨) .

تأويله لقوله تعالى : « يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا » (١٥٩) تعليق ابن المنير (١٥٩) .

(٥) المنزلة بين المنزلتين

منشأ الخلاف في الحكم على مرتكب الكبيرة (١٥٩) الآراء في ذلك (١٦٠) دليل المعتزلة (١٦٠) تأويل الزمخشري لقوله تعالى : « الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ » (١٦١) تعليق ابن المنير (١٦١) .

تأويله لقوله تعالى : « الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ » (١٦١) .

تأويله لقوله تعالى : « وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا » (١٦٢) .

تأويله لقوله تعالى : « ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ » (١٦٢) تعليق ابن المنير (١٦٣) .

تأويله لقوله تعالى : « وَإِنْ رَبُّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ » (١٦٣) تعليق ابن المنير (١٦٤) .

تأويله لقوله تعالى : « قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذَّنُوبَ جَمِيعًا » (١٦٤) .

تأويله لقوله تعالى : « إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ » (١٦٥).

تأويله لقوله تعالى : « الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ، إِنْ رُبُّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ » (١٦٥).

(٦) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

مراحلها (١٦٥) رأى الزمخشري (١٦٦)

ثانياً — مذاهب فقهية

لم يقتصر الزمخشري على مذهبه الحنفي (١٦٧) أمثلة من عرضه للأحكام الفقهية :

في قوله تعالى : « فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعِمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتَ » (١٦٧).

في قوله تعالى : « وَادْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ » (١٦٧)

في قوله تعالى : « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَيْضِ الْقَلِيلِ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْخَيْضِ » (١٦٨)

في قوله تعالى : « وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُرْضِعَ الرِّضَاعَ... » (١٦٨)

في قوله تعالى : « وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ » (١٦٨)

في قوله تعالى : « وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مِنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا » (١٦٩)

في قوله تعالى : « وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ ، فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ

رَشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ » (١٦٩)

في قوله تعالى : « لَا يُؤْخَذُكُمْ اللَّهُ بِالْفُغْرِ إِيْمَانُكُمْ ... » (١٧٠)
 في قوله تعالى : « إِيْمَانُكُمْ لَكُمْ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ
 هَذَا » (١٧١)

في قوله تعالى : « الَّذِينَ يَظَاهَرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ ... »
 (١٧٢)

في قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ » (١٧٣)

ثالثاً - قراءات

عنايته بذكر كثير من القراءات (١٧٥) ذكره للمصاحف (١٧٥) ذكره
 لروايات شتى (١٧٥) أمثلة للقراءات :

في قوله تعالى : « وَلَا تَسْأَلْ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ » (١٧٦)

في قوله تعالى : « وَإِذَا ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبَّهُ » (١٧٦)

في قوله تعالى : « وَعَلَى الَّذِينَ يَطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامِ مَسْكِينٍ » (١٧٦)

في قوله تعالى : « وَأَتَمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ » (١٧٦)

في قوله تعالى : « وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلِينَ كَامِلِينَ . . » (١٧٧)

في قوله تعالى : « فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَاتَّبَعَهَا فَلَهُ مَاسَلَفٌ » (١٧٧)

في قوله تعالى : « هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ » (١٧٧)

في قوله تعالى : « وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا

بِهِ » (١٧٧)

في قوله تعالى : « شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا

بِالْقِسْطِ » (١٧٧)

في قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ

حَقٍّ ... » (١٧٧)

في قوله تعالى : « قال رب اجعل لي آية ، قال آيتك ألا نكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا » (١٧٨)

في قوله تعالى : « أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيرا » (١٧٨)

في قوله تعالى : « سماعون للكذب أكالون للسخط » (١٧٨)

في قوله تعالى : « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا » (١٧٩)

في قوله تعالى : « ليكفر عنهم أسوأ الذي عملوا » (١٧٩)

في قوله تعالى : « وما هو على الغيب بضنين » (١٧٩)

مفاضلة بين القراءات

في قوله تعالى : « وإنا لجميع حذرون » (١٨٠)

في قوله تعالى : « ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة ... » (١٨٠)

في قوله تعالى : « كبرت كلمة تخرج من أفواههم » (١٨١)

استبعاده القراءات الشاذة وإنكارها

في قوله تعالى : « أفلم يئأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدي الناس جميعا »

(١٨١)

رابعا - آراء نحوية

تعرضه للإعراب (١٨٢) أمثلة للآيات التي عرض فيها للنحو :

في قوله تعالى : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما

بالقسط » (١٨٢)

في قوله تعالى : « ذلكم الله فأتى تؤفكون ، فالتق الإصباح وجعل الليل

سكنا والشمس والقمر حسبانا » (١٨٣)

في قوله تعالى : « إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره : » (١٨٤)

في قوله تعالى : « فلولاً كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض » (١٨٥)

في قوله تعالى : « وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف » (١٨٥)

في قوله تعالى : « هو الذي يربكم البرق خوفاً وطمعاً » (١٨٦)

في قوله تعالى : « لا أقيم يوم القيامة » (١٨٧)

خامساً - مسائل لغوية

حرصه على تجلية بعض الدلالات الدقيقة (١٨٩) .

في قوله تعالى : « والذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون » (١٨٩) .

في قوله تعالى : « ذهب الله بنورهم » (١٩٠)

في قوله تعالى : « فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون » (١٩٠)

في قوله تعالى : « وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون » (١٩١)

في قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا من يرد منكم عن دينه فسوف يأتي

الله بقوم يحبهم ويحبونه » (١٩١)

في قوله تعالى : « إن الساعة آتية أكاد أخفيها . . . » (١٩٢)

في قوله تعالى : « ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلاً عينا فيها نسي

سلسبيلاً » (١٩٣)

في قوله تعالى : « وأنزلنا من المعصيرات ماءً ثجاجاً . . . » (١٩٤)

في قوله تعالى : « وكذبوا بآياتنا كذاباً » (١٩٤)

سادسا - نصوص شعرية

استشاده بالشعر كما استشهد سابقوه (١٩٥) لم يحرم الإسلام الشعر كله (١٩٥) أمثلة من استشاده بالشعر في تفسيره :

في قوله تعالى : « والحصنات من النساء إلا ما ملكت أيما نكم » (١٩٦)
في قوله تعالى : « فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان » (١٩٧)
في قوله تعالى : « لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة » (١٩٧)

في قوله تعالى : « إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا » (١٩٨)
في قوله تعالى : « يطاف عليهم بكأس من معين » (١٩٩)
في قوله تعالى : « وإِنَّه لحب الخير لشديد » (١٩٩)
في قوله تعالى : « إِنَّ الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها » (١٩٩)

سابعا - بلاغة ونقد

تمهيد (٢٠٠) كثرة البلغاء والأدباء والفلاسفة من المعتزلة (٢٠٠) عنايتهم بالكشف عن وجوه الإعجاز البلاغي (٢٠١) انتفاع الزمخشري بدراسات المعتزلة والأشعرية وعبد القاهر الجرجاني (٢٠١) تفرقة الزمخشري بين علمي البيان والمعاني (٢٠٢) ، رأيه أن علم البديع تابع لها (٢٠٣) تأثر السكاكي بالزمخشري (٢٠٣) تأثر يحيى بن حمزة العلوي به (٢٠٤)

أمثلة مما ذكره من علم البيان :

١ — التشبيه .

في قوله تعالى : « إلهارمى بشرر كالتصحر كأنه جمالة صفر » (٢٠٥)

٢ — تشبيه التمثيل :

في قوله تعالى : « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ، مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً » (٢٠٩)

٣ — الاستعارة :

في الآية السابقة

في قوله تعالى : « ثم جعلناكم فئاتاً في الأرض من بعدهم للنتظر كيف تعملون » (٢٠٩)

في قوله تعالى : « وما يُضِلُّ به إلا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه » (٢١٠)

الاستعارة المرسحة في قوله تعالى : « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم » (٢١١)

في قوله تعالى : « مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم » (٢١١)

٤ — الكناية ، تفرقة بينها وبين التعريض (٢١٢) أمثلة لها :

في قوله تعالى : « ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء أو أكننتم في أنفسكم » (٢١٢)

في قوله تعالى : « الرحمن على العرش استوى » (٢١٣)

في قوله تعالى : « وقالت اليهود يد الله مغلولة ، غلت أيديهم ... » (٢١٣)

في قوله تعالى : « ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن

أقرب إليه من حبل الوريد » (٢١٤)

في قوله تعالى : « إذا زلزلت الأرض زلزالها » (٢١٤)

في قوله تعالى : « قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين »

(٢١٤)

• — الحجاز الرسل ، حقيقته ، أمثلة له :

في قوله تعالى : « إن الساعة آتية أكاد أخفيها . . . » (٢١٥)

في قوله تعالى : « كل شيء هالكٌ إلا وجهه » (٢١٦)

في قوله تعالى : « ويبقى وجهُ ربِّك ذو الجلال والإكرام » (٢١٦)

٦ — الحجاز العقلى ، معناه ، أمثلة له :

في قوله تعالى : « يُضِلُّ بِكَ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا » [٢١٦]

في قوله تعالى : « أولئك الذين اشتروا الضلالةَ بالهدى فما ربحت تجارتهم

وما كانوا مُهْتَدِينَ » [٢١٧]

في قوله تعالى : « الله يعلمُ ما تحمل كلُّ أنثى وما تفيضُ الأرحامُ وما تزدادُ »

(٢١٧)

أمثلة من علم المعانى

١ — القصر ، أمثلة له :

في قوله تعالى : « وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرضِ قالوا إنما نحن

مصلحون ، ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون » (٢١٨)

في قوله تعالى : « إياك نعبدُ وإياك نستعين » [٢١٨]

في قوله تعالى : « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » [٢١٨]

في قوله تعالى : « وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة » [٢١٩]

آيات أخرى [٢١٩]

٢ — الفصل والوصل ، أمثلة لهما :

في قوله تعالى : « ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين » (٢١٩)

في قوله تعالى . « قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون » (٢٢٠)

في قوله تعالى : « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون

بالغيب وقيمون الصلاة واما رزقناهم يُنفقون، والذين يؤمنون بما أنزل إليك ..»
(٢٢٠)

٣ - التوكيد

في قوله تعالى : « واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون...»
(٢٢١)

٤ - التقديم والتأخير ، أمثلة :

في قوله تعالى : « قل أغير الله اتخذ ولياً (٢٢١)

في قوله تعالى : « أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون » (٢٢٢)

في قوله تعالى : « ذلك الكتاب لا ريب فيه » (٢٢٢)

في قوله تعالى : « وظنُّوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله » (٢٢٢)

٥ - الحذف :

في قوله تعالى : « فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون » (٢٢٣)

في قوله تعالى : « والضحى والليل إذا سجى ما ودَّعك ربك وما قلى » (٢٢٣)

٦ - الالتفات . هو في رأيه من علم البيان وفي رأى البلاغيين بعده من علم المعاني .

في قوله تعالى : « إياك نعبد وإياك نستعين » (٢٢٣)

تأثر السكاكي بالزحشرى

٧ - التعبير بالمضارع عن الماضي

في قوله تعالى : « والله الذي أرسل السلاح فتثير سحاباً فسقناه إلى

بلد ميت » (٢٢٥)

٨ - التعبير بالماضي عن المستقبل .

في قوله تعالى : « أأمر الله فلا تستعجلوه » (٢٢٦)

في قوله تعالى : « ويوم ينفخ في الصور ففرع من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله » (١٢٦)

٩ — الجملة الاسمية والجملة الفعلية . دلالة كل منهما

في قوله تعالى : « واخشوا يوماً لا يجرى والدُّ عن ولده ولا مولودٌ هُوَ جاز عن والده شيئاً » (٢٢٧)

في قوله تعالى : « وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون . الله يستهزئ بهم » (٢٢٧)

أمثلة من علم البديع

١ — الجناس :

في قوله تعالى : « وجئتُك من سبأٍ نبأٍ يقين » (٢٢٨)

في قوله تعالى : « وقيل يا أرضُ ابلعي ماءك وإسماء أقلي » (٢٢٨)

٢ — الطباق :

في قوله تعالى : « ألا إنهم همُ السفهاء ولكن لا يعلمون » (٢٢٨)

٣ — تأكيد المدح بما يشبه الذم :

في قوله تعالى : « وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد » (٢٢٩)

٤ — اللف والنشر . معناه .

في قوله تعالى : « شهرُ رمضانَ الذي أنزل فيه القرآن . . . » (٢٢٩)

٥ — المشاكلة ، معناها .

في قوله تعالى : « إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضةً فما فوقها »

(٢٣٠)

في قوله تعالى « تعلمُ ما في نفسي ولا أعلمُ ما في نفسي » (٢٣٠)

ثامنا — تعليل وتحييص

١ — قدرته على التعليل والتحخيص . أمثلة لتعليله :

في قوله تعالى : « كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل ، وأتوا به متشابها ... » (٢٣٢)

في قوله تعالى : « هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام » (٢٣٣)

في قوله تعالى : « للذكر مثل حظ الأنثيين » (٢٣٣)

في قوله تعالى : « ولاتسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم » (٢٣٤)

٢ — أمثلة من تحييصه :

فيه رؤية الجن (٢٣٥) فيه الحسد بمعنى التأثير الفعال (٢٣٥)

سخريته بما ذكره بعض سابقيه من هم يوسف عليه السلام بالمعصية (٢٣٦)

استهجانه ماذكروه عن تعلق داود عليه السلام بامرأة (٢٣٨)

تعليقه الساخر على أن صراخ الطفل الوليد سببه مس الشيطان له (٢٣٩)

٣ — أمثلة من متابعتة لأغلاط سابقيه :

في قوله تعالى : « حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدناها نطلع عند قوم لم نجعل لهم من دونها سترا » (٢٣٩)

في قوله تعالى : « وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى » (٢٤٠)

في قوله تعالى : « أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق » (٢٤٠)

في قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول . . . » (٢٤٠)

قيمة الكشف وأثره

موسوعة لعلوم شتى (٢٤٢) إعجاب الزمخشري به (٢٤٢) ثناء ابن
خلدون عليه (٢٤٢) ثناء يحيى العلوى (٢٤٣) اختصار البيضاوى والتسنى له
(٢٤٤) تعقيب كثير من العلماء عليه (٢٤٤)

٢٦٧ — ٢٤٥

الفصل السابع

في بحر اللغة

(١) أساس البلاغة

طريقة تدوين المعاجم (٢٤٥) طريقة الزمخشري (٢٤٦) عنايته ببيان
المعاني الحقيقية والمجازية للكلمات (٢٤٦) ذكر التصاريف والمشتقات والجموع
والمزيدات ومعانيها مرتباً بعضها على بعض (٢٤٨) وضعها في عبارات
أدبية (٢٤٨) بعض العبارات من كلامه (٢٤٨) أمثلة (٢٤٨) إغفاله
بعض المواد (٢٥٢) قيمته وأثره (٢٥٢)

(٢) المستقصى في أمثال العرب

طريقة ترتيبه (٢٥٤) موازنة بينه وبين مجمع الأمثال للميداني (٢٥٥)
نماذج منه (٢٥٦)

(٣) الفائق في غريب الحديث

تطور التأليف في غريب الحديث (٢٦٠)
طريقة الزمخشري في الفائق (٢٦١) نماذج منه (٢٦٢)

(٤) أعجب العجب في شرح لامية العرب

لماذا ألفه؟ (٢٦٤) عناية القدماء بشرح اللامية (٢٦٤) انصراف

الزحشرى في شرحه إلى النحو (٢٦٤) استشهاده بالآيات والشعر (٢٦٤)
عناية المستشرقين باللامية (٢٦٤)

(٥) الجبال والامكنة والمياه

موضوع الكتاب (٢٦٦) نماذج منه (٢٦٦)

٢٦٨ — ٢٨١

الفصل الثامن

في شعاب النحو

(١) الفصل

تعريف به (٢٦٨) كثرة شروحه (٢٦٩) شرح ابن يعيش (٢٦٩)

(٢) مقدمة الأدب

أقسام الكتاب (٢٧٠)

(٣) الأنموذج

٢٧٢ — ٢٨٧

الفصل التاسع

في حذيقه النشر

نثره الفني (٢٧٢) موضوعاته (٢٧٢) الطابع العام لأسلوبه : كلفه بالسجع
والحسنات وحل النظم والتلاعب بالمصطلحات (٢٧٢) أمثلة (٢٧٣) .

(١) نوايغ الكلم

موضوعه ، نماذج منه (٢٧٥)

(٢) للقلات

متى ألفها ؟ وأين ؟ (٢٧٦) موضوعها (٢٧٦) شرحه لها (٢٧٧) مثال من
شرح (٢٧٧) نموذج من مقامة العزلة (٢٧٨) نموذج من مقامة النحو
(٢٧٩) من مقامة العروض (٢٧٩)

(٣) أطواق الذهب

موضوعه (٢٨٠) نماذج منه (٢٨١)

(٤) النصائح الصغار والبولغ الكبار

موضوعه (٢٨٢) نماذج منه (٢٨٢)

(٥) ربيع الأبرار

متى ألفه؟ (٢٨٣) موضوعه (٢٨٣) طريقته (٢٨٤)

نماذج منه (٢٨٤)

٢٨٨ - ٢٩٦

الفصل العاشر

في روضة الشعر

ديوانه المخطوط (٢٨٨) موضوعاته (٢٨٨) خصائص شعره (٢٨٩) :

نضوب عواطفه في الأعم الأغلب (٢٨٩) رصانة أسلوبه (٢٨٩) بدء بعض

المدائح بفزل تمهيدى لاجتماع فيه (٢٨٩) بدء بعضها بالشكوى والسخط

والفخر (٢٩٠) حسن التخلص من التمهيد إلى المدح (٢٩٢) العناية بالحسنات

(٢٩٣) تخلصه من الحسنات حين يعبر عن عاطفة قوية (٢٩٤) المبالغة في

بعض شعره (٢٩٥) حكمه (٢٩٥) .

٢٩٧ - ٢٩٩

خاتمة المطاف

٣٠٠ - ٣٠٦

المراجع

كتب للنزاف

- ١ - وحى النسيب في شعر شوقي :
دراسة لنزل شوقي من حيث بواعثه وخصائصه
- ٢ - وطنية شوقي :
دراسة مفصلة للوطنية في شعره ، ومظاهرها المختلفة ، ممتدة على دراسة العصر الحديث من الناحية السياسية ، وعلى نصوص من شعر شوقي ، وموازنات بينه وبين غيره من شعراء العصر الحديث ، وتوضيح لموقفه من الخلافة الإسلامية وأنه لا يتعارض مع وطنيته
- ٣ - الإسلام في شعر شوقي :
دراسة لتدينه ومظاهره في شعره من إيمانه بالله ، ومدائح للبنى ، وإشادته بخصائص الإسلام ، ودفاعه عنه ، ودراسة فنية لهذا الشعر الديني .
- ٤ - الفكاهة في الأدب :
يتناول الفكاهة وأصولها وتقسيمها إلى أنواع طبقا للبواعث النفسية ، ويعرض في تفصيل لدلالات الفكاهة الاجتماعية والسياسية واللغوية .
- ٥ - البطولة والأبطال :
يعرض للبطولة وأسسها وأنواعها ، ولصور من أبطال العرب في الجاهلية والإسلام ، وبعض أبطال مصر الحديثة ، مع التحليل .
- ٦ - أبوحيان التوحيدى .
دراسة لعصره السياسى والعلمى والأدبى ، وعرض لحياته ، وثقافته ولصلاته بوزراء عصره ، وتحليل لشخصيته ، وتعريف بكتبه ، وتحليل لأسلوبه ، وموازنات بينه وبين معاصريه ، وبينه وبين الجاحظ .

٧ — سماحة الإسلام :

تحليل منتصف لسماحة الإسلام في نواح شتى في السلم والحرب ، معتمد على التشريع والنصوص والتطبيق ، مع موازنات بين الإسلام وغيره من الأديان والشرائع والقوانين والفلسفات

٨ — أدب السياسة في العصر الأموي :

يتناول الأحزاب السياسية ونشأتها ومذاهبها ، ويعرض نماذج من أدبها شعرا وخطابة وحوارا وكتابة ، مع تحليل لهذا الأدب ، ودراسة لخصائصه ، وموازنات بين بعضه وبعض . وعرض للمصيبة القبلية والجنسية وآثارها في الشعر والسياسة .

وبه ترجمة لبعض الأدباء الساسة .

٩ — سوسن :

قصة مصرية سامية العرض ، نبيلة الغرض .

١٠ — مع ابن خلدون :

عرض لآرائه في التربية وعلم الاجتماع التي لم يعرض لها الدارسون من قبل ، ودراسة لأدبه من نثر وشعر .

١١ — الفزل في العصر الجاهلي :

دراسة للفزل في الجاهلية من حيث أصوله ، وبواعثه ، وأنواعه ، ونشأته كل منها وعلاقته بالبيئة ، مع موازنة بين الفزل في الجاهلية والإسلام

١٢ — المرأة في الشعر الجاهلي :

دراسة مفصلة للمرأة في العصر الجاهلي من الشعر ، من حيث مكانتها في الأسرة والقبيلة والمجتمع ، أمّا وزوجة وبنات وأختاً وقرينة . ودراسة للمرأة في

الحياة العامة في السلم والحرب ، وثقافتها وصناعاتها . ودراسة للمرأة في الحياة الفنية ، من حيث أثرها في الغناء ، ومن حيث روايتها للشعر ، ونقد هاله ، ولشاعريتها، وأنواع شعرها وخصائصه، مع موازنات بينها وبين النساء المعاصرات لها في العالم القديم .

١٣ - الحياة العربية من الشعر الجاهلي

بحوث تمهيدية ، وتوثيق للشعر الجاهلي ، ودراسة له من حيث تصويره لأنوان الحياة الاجتماعية والدينية وللعادات والمعتقدات ، ولصلات العرب بغيرهم من الأمم .

١٤ - أغاني الطبيعة في الشعر الجاهلي

عرض وتحليل لصور الطبيعة في الشعر الجاهلي من حيوان ونبات وجماد وظواهر في الأرض والجو ، واستنباط الخصائص العامة في تناول الشعراء للطبيعة، ودراسة لأصدااء البيئة في موضوعات الشعر وأخيلة الشعراء وفهم .

١٥ - تيارات أدبية بين العرب والفرس :

يتناول صلات العرب والفرس في الجاهلية والإسلام ، وأثرها في كل من الشعبيين في العقائد والنظم والعادات واللغة والأدب . . الخ .

١٦ - المثل السائر لابن الأثير :

تقديم وتحقيق وتعليق

١٧ - الطبري

دراسة لعصره ، وبيئته ، وحياته ، ومصادر ثقافته وألوانها ، وعرض لتلاميذه ، ومؤلفاته ، ودراسة لشخصيته ، ولما هجه في التفسير والتاريخ والفقه .

١٨ — فن الخطابة :

دراسة للخطيب ، وعدته ، وصفاته ، وعوامل نجاحه ، ودراسة للخطابة ، وأنواعها ، وأصولها ، وأسلوبها ، وتصور الأمم لها ، وتعميق بدراسة مفصلة للخطابة السياسية في العصر الأموي .

١٩ — الجاحظ :

دراسة لعصره ، وحياته ، ومعالم شخصيته . ومؤلفاته ، وخصائصه الفنية ، مع تحليل بعض كتبه .

٢٠ — تحت راية الإسلام :

بحوث شتى في الدفاع عن الإسلام ، وفي الكشف عن ألوان من الثقافة الإسلامية .

٢١ — القومية العربية في الشعر الحديث :

دراسة لدعائم القومية العربية في تفصيل ، وعرض للشعر الذي أثر فيها وتأثر بها من الخليج إلى المحيط ، ودراسة فنية لهذا الشعر ، وتوضيح الجهود مصر قديما وحديثا في مجال القومية العربية .

٢٢ — الزمخشري .

دراسة لعصره ، وحياته ، وأساتذته ، وتلاميذه ، ومؤلفاته ، ومنهجه في التفسير وما تضمنه من تأييد مذهب المعتزلة ، وما اشتمل عليه من آراء فقهية ونحوية وبلاغية الخ . ودراسة للجهود الزمخشري في ميادين اللغة وغيرها ، وتحليل لنثره وشعره .

٢٣ - من أخلاق النبي :

عرض للاخلاق الإسلامية ، وموازنة بين المذهب الإسلامى والنظريات الفلسفية تكشف عن سمو المذهب الإسلامى ودراسة لبعض أخلاق النبي عليه الصلاة والسلام كما تجلت فى أقواله وسلوكه .

٢٤ - الجهاد :

دراسة للجهاد من حيث معناه وحكمه وأنواعه وعدته وجزاؤه ونتائجه ، وتعقيب بصور من شخصيات مجاهدة .

٢٥ - مع القرآن الكريم (الجزء الأول) :

بحوث شتى فى التدليل العقلى على أن القرآن الكريم من عند الله ، وفى بيان إعجازه ، ونوع أسلوبه ، وحضه على العلم وعلى الفكر ، وفى توضيح الغرض من القسم فيه وفى بيان الثواب العاجل والعقاب الواقع ، وبيان أثره فى الأدب شعراً ونثراً الخ .

٢٦ - مع القرآن الكريم (الجزء الثانى) :

بحوث شتى تعرض أثر القرآن الكريم فى اللغة ، وتبين ألواناً من إيجاز الحذف فيه ، وتتنى أن به حروفاً أو كلمات زائدة ، وتوضح المعنى الحقيقى لكلمة أمى وأمين ، وتبين معنى الضلال والهدى والقدر والحرية والجزاء والعمل ، وتوضح أكاذيب اليهود على الله وعلى رسله كما توضح أسماء يوم القيامة الخ .

٢٧ - بلاغة الإمام على :

دراسة أساسها نهج البلاغة بين القبول والرفض ، وتوضيح لخصائص بلاغة الإمام على فى خطبه وفى كتبه .

٢٨ — حصاد القلم :

بحوث ومقالات نشرت بالمجلات الأدبية في مصر وفي العالم العربي .

٢٩ — ديوان شوقي :

توثيق وتبويب وشرح وتكلمة لديوان أمير الشعراء أحمد شوقي .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٨٠/٣٦٦٦

١ ٨٦٩ ٢٠١ . ٩٧٧ ISBN

٢٥٠ قرشا

مطابع الهيئة القومية للكتاب